جودَلِيّة

ملتقى الثقافة والفكر والإبداع
مركز الحضارة العربية للتنمية الثقافية

تأسست 1 يناير 1990م
ش.ذ.م.م: 2022

مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي، والإسهام بدورٍ فاعل فى إثراء الثقافة العربية، ونشر الكتاب العربي.

ينطلق المركز في ممارسة دوره في إطارٍ من حرية الفكر والإبداع والبحث العلمي سعيًا نحو بناء مجتمعٍ يؤمن بالتعدد والتنوع والتسامح والانفتاح على كل الرؤى والأفكار والاجتهادات المختلفة، ومواجهة التحديات التي تعيشها الأمة، وبناء وحدتها، في إطار المشروع الحضاري العربي الإسلامي المُستقِل.

يسعى المركز إلى التفاعل مع المثقفين، وتشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكُتَّاب العرب، والتعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات في مصر والوطن العربي والعالَم.

يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق رؤيته وأهدافه.

الآراء الواردة في ما يصدر عن المركز تُعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

رئيس المركز

علي عبد الحميد علي

للتواصل

مركز "الحضارة العربية"

Mo&Whats :{ 01095770008 _ 01115790009
01223050005
E_mail : { hadaraa1990@gmail.com
hadaraa2023@gmwail.com
Facebook { الحضارة العربية للتنمية الثقافية
علي عبدالحميد علي عبدالقادر

زهير ياسين الشليبة

جودَلِيّة

رسائل من زمن الحصار لكاتب مجهول

(سردية عابرة الأجناس)

الطبعة الثانية

ملتقى الثقافة والفكر والإبداع
الحضارة العربية
للتنمية الثقافية

كل الحقوق محفوظة

جميع حقوق الطبع محفوظة

الكتاب : **جودَليّة**
رسائل من زمن الحصار لكاتب مجهَول

المؤلف : **زهير ياسين شليبة**

الناشر : **مركز الحضارة العربية**

الطبعة : **الأولي 2025**
الثانية 2026

الاخراج الفني والجرافيك: **أيمن رياض دويدار**

الجمع والصف الإلكتروني والإخراج الفني:
وحدة الحاسوب بالمركز

شليبة ، زهير ياسين
جودَلِيّة ، رسائل من زمن الحصار لكاتب مجهول، سردية عابرة الأجناس .. زهير ياسين شليبة . مركز الحضارة العربية ، 2025.
208 ص؛ 21 سم.
رقم الإيداع: 2025/ 5532
تدمك: 4_677_496_977_978 :ISBN
1_ الرسائل العربية
أ_ العنوان
816

الإهداء

إلى صديقي الراحل

"عدنان المبارك"

إلى كلّ المغتربين على الأرض

لوحة: عدنان المبارك

لوحة الغلاف إصدار قديم 2000

هذه الجودلية العراقية:

إنها "رسـائل من زمن الحصار لكاتب مجهول"، خلطة سـردية بـدأتُ بكتابتها في بداية التسـعينيات، أخـذتْ مكانَها في موقع القصة العراقية، وبعدها في "سامسبيل" الدنمركية 1998_2000م، لترتقي عاليًا مخترقة الغيوم الإسكندنافية والبريطانية متجهةً نحو "الزمان" اللندنية؛ فيطلُّ فصلُها الأول على القرّاء بعنوان: يوميات اللاجـئ العراقي واصل "منتظر الفرج، الهارب من عالم الهمج"، ومن ثمَّ طارتْ محلّقةً في سـماء بغداد السـاطعة فوق لمعة مياه دجلة الخير لتتصدّرَ صافيةً هانئةً صفحاتٍ من العراق!

لكني كنتُ أراجعها كلما أحنُّ إلى أمّي في أوقاتِ الناسـتولجيا في أشهُر الشتاءات القارسة البرد، نقّحتها، اختصرتها وزدتُ عليها هنا وهناك، حسـب الأجواء والأمزجة والأهـواء، والأنواء الجوية، بعـد كل مكالمـةٍ هاتفيةٍ معها، حيث كانـت تلهمني وتعلّمني كيف خاطت جودليّاتنا من بقايا قطع قماش، وأحيانًا ملابسـنا القديمة لنجلس عليها أو لتغطّي أسـرّتنا، سـرتُ على نفس منوالها، عانيتُ كثيـرًا في جمعهـا واختيارها، لكنها صارت عنـدي جودَليّةً كبيرةً زاهيـةَ الألوان، مؤطّرةً زاخرةً بقصـصِ طفولتنا وصِبانا المتناثرة هنا وهناك! هذه هي سـرديتي الهزلية أحيانًا والجدية طورًا آخرَ، أقدّمها واضحةً سَلِسةً للقارئ كما هي بلا رتوش وجُملٍ مفتعلةٍ:

فيليتونٌ سـاخرٌ، أو سلسلة رسائل وقصص وخواطر وتحقيقات وذكريات سردية وفصول روائية تقليدية مكرسة لأبطالي المختلفين

المنتشرين في البقاع والأصقاع!

أنا إذن أمام تداعياتٍ كثيرةٍ ولا أريد حشــرَ نفسي في "خانة" كتابةٍ محددةٍ.

ســرديةٌ هجينةٌ فحســب، عابــرة للأجناس، لا التــزام بالأبعاد الثلاثة، لا حبكة تقليدية، ومقدمة وذروة ونهاية، لا يهم كيف؟ ومتى وأين؟ ومَن قال ذلــك؟ ومن نفى؟ ومن تزوج؟ ومن أحب حبيبتَه الأولــى وعاش معها فترةَ عشــقٍ جميلةٍ ثم طلّقها بعد مشــاحناتٍ كثيرةٍ وخطيرةٍ كادت أن تودي بحياتهما كليهما!

****

هذه تفاصيل استهلاكية أهملتُها، تركتُها للقارئ!

الفضــل يعود أيضًــا لصاحبي المحرر الجــزّار! نعم، لولاه لما حصلتُ على هذه السردية الهجينة!

أنا أريدها كذلك، عجينةً طيّعةً، أعيد خلقها متى أشــاء وكيفما أريــد، وخلطها، لتصير منمقةً، وأحيانًا مرصّعةً متنوعةً مزركشــةً، مثل أيّ جودليّةٍ مرقّعةٍ بأنواعٍ مختلفةٍ من خِرَقٍ ملوّنةٍ!

فيهــا ذكرياتي وانطباعاتي وخواطري عن أمي وأبي وأخواتي وإخوتــي وأقربائي وأصدقــاء الطفولة والصبا والشــباب، جميلة كامــرأة تتمعّن إكسســواراتِها القديمة بفرح وحزنٍ، لكن بســعادة الذكريات!

كأنهــا قلادة ذهب مرصّعة بألماســاتٍ قديمةٍ تلمعُ، ذات بريق أخّاذ، تُلصَقُ عليها الرسائل المليئة بالإحساسات والمشاعر!

****

"كقارئةٍ في أرضٍ غريبةٍ، لامَستْ هذه الروايات وجداني بعمق، فــكل كلمة صادقة تردد صدى الشــوق إلى الوطــن وتعكر صفو الروح بذكريات لا تمحى.

ككاتبــةٍ، تلهمنــي القــدرة الاســتثنائية للكاتب علــى نقل تلك التجارب الشخصية والعميقة إلى سياق يتسع ليشمل العالم بأسره. هــذا العمق يســتثير تفكيري حول القوة التــي يمتلكها الأدب في التعبير عن قضايا الإنسانية، وكيف يمكن أن يسهم في رفع الوعي وتحدي المفاهيم القائمة.

كإنســانةٍ، طرقتْ القصصُ باب قلبي بقوة لا توصف، ممزوجة الألم بالأمل في نســيج معقد يتحدى الفصل بين الواقع والخيال. وكمغتربة، أجد نفسي مرتبطة عميقًا برحلات أولئك الذين يبحثون عن معنى ومكان في عالم قد لا يكون دائمًا مرحّبًا.

الحنين إلى الوطن يتردد في كل صفحة، مذكرًا بأهمية الجذور والهوية. هذه القراءة أكثر من مجرد تمرير العين على النصوص؛ إنها رحلة عاطفية عبر الثقافات والجغرافيا، تعزز فهمي للتحديات التي يواجهُها اللاجئون وتقدم الأدب كمرآة للروح الإنسانية، تعكس الجروح التي ربما لا يمكن للزمن وحده شفاؤها."؟

(الروائية المغربية "زكية خيرهم").

****

الكلمةُ الطيبةُ صدقة!

لا وطن لا يضمن لأفراده العملَ والرعاية والحماية، ولا اندماج في مجتمع يدير للإنسان ظهره!

****

يقول الشاعر صفي الدين الحِلّي:

بِقَدر لُغاتِ المرءِ يَكثُرُ نفعُه

فتِلكَ له عند المُلِمّاتِ أعوانُ

تهافتْ على حِفظِ اللُّغاتِ مجاهدًا

فكلُّ لسانٍ في الحقيقةِ إنسانُ

****

الفصل الأول

واصل

من يوميات اللاجئ العراقي واصل
"منتظر الفرج، الهارب من عالم الهمج"

من المُشرَد العراقي منتظر الفرج الهارِب من عالم الهمج إلى الأستاذ أنيس النقاش، رئيس تحرير صحيفة "اليأس"

تحية وبعد، مقدمة مهذبة

ترددتُ كثيرًا في كتابة هذه السطور وإرسالها إليك. قد تبدو كلماتُها عبثيةً أو مزاجيةً وجنونيةً. وتتصورني مخرفًا أو مدمنًا، معاذ الله من ذلك. إنه حقًّا لأمر محرج ومزعج وغير مفهوم أو معقول بالنسبة لك. وقد تتقبلون أو لا تتقبلون ولا تقبلون مزاجي أو أسلوبي الساخر وتغيير اسم صحيفتكم من "الأمل" إلى "اليأس"!

لكنك ستفهمني أو تتفهّم وضعي، وستجدني بعد قراءتك لرسالتي هذه إنسانًا حزينًا كسيرًا مكتئبًا محبطًا منعزلًا، بل أنا قانط ويائس، لكن غير مهزوم ولا منهزم أو مندحر أو مدحور أو لامبالٍ بمصائر السومريين والبابليين وكل البشر، رغم كل معاناتي كأي عراقي في جبهات الحروب والشتات والانقسام والهروب من بلد إلى آخر بجوازات مزورة، يمشي هائمًا في متاهات المدن ودروبها. وقد تندهش من هذه اللغة وطريقتي في التعبير عن خلجات نفسي، إذ كيف يمكن أن يكون الإنسان يائسًا وغير مهزوم في الوقت ذاته.

في الحقيقة، إني تأثرت كثيرًا بأُسلوب كاتب مخطوطٍ أنا بصدده الآن، أرغب بنشره في صحيفتكم، أصبحت أحيانًا مثله ألعب بالمفردات والمترادفات، وهي رغبة روحية وصرخة استغاثة الملهوف ذي القلب الممزّق المتحرّق على بلاده، وليس تصنعًا أو تشدقًا لغويًّا، لا، لا أحبذه، بل لا أطيقه.

دَعني الآن أبذلَ جهدي لسرد حكايتي بتبسيطٍ معقولٍ وسلاسةٍ وتسلسلٍ واختصارٍ رغم صعوبة ذلك، وأنا أجلسُ محشورًا وسط

غرفةٍ صغيــرةٍ مكركبة، مليئة بالفوضـــى، مضمّخة بروائح العفونة والرطوبـــة، والعطن. وفيها حاجات قديمة وأشــياء كثيرة مبعثرة، "خرضاوات"، كما ســمّاها طالب لجوء عربي مزمن مخضرم، بل عتيــق لم يعد يتذكــر أهلَه وأصلَه وفصلَه! قلتُ لــه ممازحًا: يعني مثلي ومثلك! نحن أيضًا كراكيــب مرمية في هذه البلاد الجميلة، من يدري؟ قد يحتاجون إلينا يومًا ما! هزَّ رأســه بأسى، من دون أن ينبس ببنت شفة، والحزن بادٍ على وجهه.

وسرحتُ إلى سوق الهرج الشهير في بغداد، المليء بالخردوات والكراكيب: "زعابيل أو قلاقيل وخُردَة فَروشيات"، أتذكره باستمرار في منفاي أو رحلتي لطلب اللجوء منذ ســنواتٍ، وغربتي الطويلة هــذه عن دياري الجريحة النازفة دمًا، وأنا دومًا في شــوق على أحر من الجمر لرؤيتها.

كانــت البداية في إحدى ليالي شــباط اللبّاط القارس من عام 1998م، كنــت أمارس عزلتي في بيتٍ ريفي قديــم، أُجريتْ عليه ترميمات أوليــة وضرورية وعمليات تجميلية ســطحية وبســيطة. كانت الثلوج تغطي ســقف هذا المنزل القديم، فيه عدة غرف في الطابق الأرضي والأول، يبدو أن قسمًا منها مهجور، أو أن نُزلاءَها مسافرون. النتيجة واحدة سواء كانت متروكةً، أو أن سكّانَها غادروا.

قدمتُ إلــى هذه القرية الإســكندنافية المظلمــة ونزلتُ هذا المسكن منذ فترة قصيرة. مرّت عليَّ كأنها سنوات عجاف، قاسية ومريــرة. كانت إحدى غــرف البيت تثير فيّ الفضول والدهشــة والريبة، تبدو لي كأنها زاوية صغيرة، أو حجرة منزوية. وتظهر لي كما أراها من خلال شــبّاكها الصغير مليئةً بأشياءَ مختلفة، مبعثرة وفيها صندوق خشبي أسود كبير، مرصّع بمسامير عريضة، يذكّرني بـ"صنــدوق الولايات"، كانت "الجدة الكبيرة" تحتفظ به. ولاحظتُ هناك تخطيطات ولوحات صغيرة وعُلبًــا كارتونية مليئة بحاجات

غير مرتبة، مكوّمة كالركام، يعلوها الغبار.

كان باب الغرفة مواربًا، يبدو كأنه مقفل، إلا أنه لم يكن كذلك، ومع ذلك لم أفكر مرة في "اقتحامه" عنوةً، أقنعتُ نفسي بألا أبالي للأمر، كأنه لا يخصني. لم أقتنع تمامًا بهذه الفكرة. مجرد تظاهر بعدم الاكتراث!

لأصدقك القول: إني كنتُ أخشى فتحَ البابِ وولوجَ الغرفة كأنها فتاة عذراء صعبة المراس، لكني لم أرد التفكير بالأمر، رفضت البقاء في منزل يبدو مهجورًا، منذ وطأته قدماي. عندما رأيته أول مرة تخيلته كخرابةٍ من بيوتٍ مهدّمة مسكونة بالجن وطناطِل وسعلوات وأرواح وأشباح، وحكايات شعبية سمعناها في طفولتنا.

في إحدى الليالي الشتوية القارسة البرد، زارني أحد سكان القرية المتقاعدين الطيبين المتعاطفين مع اللاجئين والغرباء عمومًا، من العاملين سابقًا مع هؤلاء البشر "الطارئين" الجدد على هذا البلد، كما سمعت عنه. في الحقيقة أنه لم يزرني أنا شخصيًّا، بل كان يتجول كعادته مع كلبه "الدالماتين" المرقط بالأسود والأبيض، بينما كنت واقفًا بالصدفةِ أمام المنزل داخل الحديقة الأمامية الصغيرة، أدخن سيجارتي متطلعًا إلى الغادين والرائحين _على قلّتهم_ كأني مِمّن يتحرشون بالبنات أو يتصيدونهن. وتذكرتُ بعضَ شبابِ السبعينيات، يسمونهم "صُرم باره"، يقفون عند مداخل الشوارع والحارات بـ"رأس العقد أو الطرف"، يعني الزقاق، يتصيّدون الرائحات والغاديات، يغازلونهن بصوتٍ مسموعٍ: "هذا اشلون طير زاجل حلو عيني؟ راح أموت من جماله"، يُسمعونَهنَّ كلامًا جميلًا، عسى ولعلهن يلتفتن إليهم، يعانون اللوعة والحرمان والحسرات. كنت أنا أيضًا أتبحر في الجميلات بلا جدوى، كان الرجل وكلبه المرقط يتردد على هذا المسكن القديم. هذه هي الحقيقة، هو رجل مشغول لا وقت له لأناس مثلي، يمضي جولتَه المسائيةَ المعتادةَ.

ألقَى التحية، قال لي بعد أن لاحظ شيئًا ما غير طبيعي على ملامحي، لم تبدُ على وجهه ارتسامة تعبر عن شيء:

_ لا تَخَفْ، إنه لا يعض أحدًا!

قلت له هامسًا مجاملاً:

_ أنا أخاف البشر لا الكلاب.

بانت على شفتيه ابتسامة ساخرة صغيرة، وتغيرت ملامح وجهه. تشجع الرجل الهادئ قليلاً في الحديث قائلاً:

_ يُشاع بأن صاحب الغرفة "المسكونة"، عراقي حاول الانتحار، حسب الأقاويل، كان حانقًا وقلقًا على ما يحدث في بلاد الرافدين ميسوبوتامي، أجل، هكذا كان يسمي العراق، وكان مغرمًا به وحسّاسًا للغاية، مرهف الإحساس حد الجنون. وإنه كان إنسانًا لطيفًا جدًّا، لكنه كان قلقًا أكثر من اللازم، يرهق نفسه، يتسابق مع الريح والزمن والآخرين ليلاقي حتفه.

قال الشيخ عنه وهو يمسحُ وجهه المستطيل العريض بكفِّ يده اليمنى الضخمة، متحدثًا ببطءٍ وبلغةٍ إنجليزيةٍ غنيةٍ بالمفردات، بلكنة إسكندنافية:

_ أخبرني بأنه أَجّلَ وفاتَه أكثر من مرة، لكنه لن يقوم بنفس الأمر إذا ما حانت "اللحظة الشعرية"، كما كان يحلو له أن يكرر.

لاحت ابتسامة حزينة على شفتيه الغليظتين، واستمر في سرد قصته:

_ أجل كان هذا الشاب العراقي المتحرّق، بل الملتهب على مصير بلده ويعيش آلامه ومعاناته يتحدث بهذه الطريقة، يبدو لمن لا يعرفه كالمعتوه، كث الشعر محمومًا، متغضن الوجه، يرمق الآخرين بنظراتٍ حزينةٍ وقلقةٍ تعبر عن الشرود والشك أو الريبة، وحتى العدوانية أحيانًا إن شئت. يعاني من الهيام والخوف في آن واحد، كان يردّد باستمرار

مبتسمًا، لكنه كان ساهمًا بنظراته شاردًا بعيدًا، يبعثر كلماته: "كل شـــيء بوقته حلو، كل شيء بوقته حلو"، وكـأنه يريدُ أن يُقدم على أمرٍ خطَّطَ له مسبقًا.

لم أقلق عليه بهذه الدرجة، بحيث إنه سيقدم على عمل خطير، ولم آخذ كلامه على محمل الجد. مع الأســف، نعم، كنت أعرف أنه يتلقى مساعدة معنوية ونفسانية جيدة من منظمة "أصدقاء اللاجئين"، وأنا أعرف بعضهم مِمّن لا يكرهون الغرباء هنا. ثم قالَ بصوتٍ منخفضٍ يكاد لا يُسمع: "لم يره أحد منتحرًا، على الأقل في الدنمرك، شائعات تنتشر، (طأطأ الرجل رأسَه بين حين وآخر)، الناس يثرثرون".

وتابع متمتمًا بحزنٍ واضحٍ وهو يهم بالمغادرة:

_ النُزلاء الآخرون من طالبيِ اللجوء، ليس كلهم، أغلبهم، غادروا البيت رافضين البقاء فيه احتجاجًا على معاملة بعض سكان القريــة لهم، أيضًا نتيجةً لقصة الانتحار هذه كما ســمعت. أنا لســت موظفًــا هنا، أنا مجرد متعاون مــع لاجئين، طالَ انتظارهم من دون أي نتيجة، وكأنهم ليسوا بشرًا!

كان الشــاب العراقي "المنتحر" انطوائيًّا، يرتاح لشــخص آخر مســالم ومتعَب، أيضًا عراقــي انتحر كما فهمــتُ من قصصٍ أو "أساطيرَ" سمعناها!

وحدَّثَنــي مرّةً عنه قائلًا: إنه شــاعر، وإنهما كانا يقرآن كتاباتهما لبعضهمــا بعضًا، عمومًا لم يكونا مســتقرّين نفســيًّا، يبــدو عليهما الشحوب والشرود وآثار التعب الشديد. وتظهر أعراض التوتّر وعدم التركيز على وجهيهما كأنهما مهووسان ومريضان نفسيًّا يعانيان من الضغط والاضطراب والقلق والكآبة. قد يكون ذلك من فرط الخمر أو الإدمان، الحق يُقال لم أرهما يتعاطيان المخدرات بمختلف أنواعها.

كل مــا في الأمر أنهما قرّرا الاختفاء أو الانتحار أو الهروب أو الرحيل الأبدي، لقد انمحى أثرهما تمامًا ولم يبق لنا غير الشائعات

عنهما. تذكرتُ أمرًا آخرَ، كان هناك شـخص عراقي زارهما بضع مرات، ليسـاعدهما، لا أتذكر بالضبط، أنا مُسِن كما ترى وأنسى، كان أكبر منهما بالسن، يبدو عليه أقدم منهما في البلد هنا ويتكلم عدة لغات، كان مشغولًا بعمله، انقطع عنهما فيما بعد، قالا لي إنه مترجم. هناك شـخص آخر شاب مترجم كما ذكرا لي، أيضًا رأيتُه عندَهم وساعدهم في ترجمة بعض الرسائل الغامضة، حتى أنا لم أكن دائمًا أفهم كل مضمونها.

أجـل، أجل، إنهم يكتبون بلغـة قانونية صعبة. لكن، الآن عليك أن تصغـي، (قالها هامسًـا كأنه يريد أن يخصني بسـرٍّ غير متأكد من صحته)، سمعتُ أنه، أقصد المترجم والكاتب تأثر كثيرًا لانتحار لاجئ آخر شـنقًا، وأنقذ أحد هذين الشـابين من الموت، يقال إنه تمرض نتيجة لذلك، أصيـب بالكآبة، اعتكفَ الناسَ، لم يزرهما، نعم، انقطع عنهما وحزِنا عليه، هذا ما سمعته عنه! عمومًا عليّ أن أقولَ لك: إني لا أعرف بالضبط مدى صحة هذه الوقائع، نعم هناك أسرار نجهلها.

قلت للرجل العجوز بصراحة:

_ أنا سـمعتُ بموضوع الاختفاء أو الانتحار، سـمّه ما شـئت، اشـرح لـي بالضبط ما مـدى صحته؟ حقيقـي أم خيالي؟ سـمعت الكثير من اللغـط عنها، ومن ناحيـةٍ أخرى هناك أنـاس وبالذات الأجانب يتحدثون عنهـا كما لو أنها حقيقة لا غبار عليها، لكن من دون أن يروا شـيئًا، أما الدنمركيون والموظفون منهم بالـذات فيتجنبونها، أو ينفونها، يقولون: "إنهما اختفيا".

_ تذكّـرْ، عندنا في بلدنا الصغير قانون الحفاظ على السـرية والالتزام بالكتمان، الموظفون يخشـون التصريح بأي شيء يخص المواطنين، ولهذا نسمع معلومات متضاربة، لكن، أصغِ، أعتقد فعلًا انتحر أحد اللاجئين، شـنق نفسـه بستائر غرفته

في مركز اللاجئين احتجاجًا على فترة الانتظار الطويلة من دون نتيجة، أما بالنسبة إلى هذين الشابين، فإن أحدهما حاول الانتحار، كما أتذكر في هذا المنزل، وأنقذه شخص ما، قد يكون مساعده، حكيتُ لك عنه، لا أتذكر هل قلتُ لك ذلك؟ واختفى وتمرض، لا أعلم بالضبط، الناس مشغولون، ينسون مثل هذه الأحداث، وعادةً لا يتحدّثون باستمرار عنها.

قاطعتُه قائلاً:

_ بالمناسبة، الرسول محمد قال قبل ألفٍ وأربعمائة سنة تقريبًا: "واستعينوا على قضاء حاجاتكم بالكتمان". تصوّر!

_ حقًّا؟ منطقي ومعقول! المحترمون لا يثرثرون، أنا رجل مسن، لستُ موظفًا، لا أكترث بشيء، وأعاني من الضيق والملل والوحدة، وأحب أن أرفّه عن نفسي بجولاتي مع الكلب ولا أتكلم مع الجميع، أتعاطفُ مع الغرباء، كما قلت لك توًّا، لا أحد يعلم الحقيقة بالضبط، لم يعثر أحد عليهما، سمعت قصصًا تراجيدية عنهما، لم يتحقق أحد مئة بالمئة من صحتها، وبقيت مجرد "أسطورة أو خرافة" أو شائعة، لم يعثر رجال الشرطة على جثته أو جثتيهما، صديقه أيضًا اختفى كما أخبرتك، سكان هذه القرية لا يبالون كثيرًا بالغرباء، ويعتقدون أن هذين اللاجئَين هُرّبا سرًّا إلى بلد آخر عن طريق المهربين، وهو أمر طبيعي أن يطلبا اللجوء في بلدان أخرى إن لم يحصلا عليه هنا في الدنمرك، إنهما ليسا أول من يغادر البلد لهذا الغرض ولا الأخيرين.

حدّثني أحد سكان القرية من كبار السن المتعاطفين مع اللاجئين بأن اللاجئ العراقي الثاني المختفي أو "المنتحر" أيضًا كان يبدو عليه إهمال صحته والهيام والوجد والشغف ببلاد "ما بين النهرين"، ولا جدوى الحياة بعد خرابها على أيدي الأغراب، كما كان يُردّدُ.

أعتقد كان هذا العراقي يحرض صديقَه الساكن في هذه الغرفة علــى ترك هذا العالم ومغادرته بلا عودة، (وتمتم مبتســمًا)، أجل كما فهمــت من صاحبي العجوز "المخرف قليلًا ولا يعي دائمًا ما يقول، بعض المرات، أحيانًا، أحيانًا"، أنه لم يستخدم كلمة الانتحار بل الاختفاء والرحيل الأبدي، وأحيانًا كلمة الخلود أو الراحة.

كان يقول، حسب رواية العجوز، إنه يتمنى لجميع الميسوبوتاميين مغــادرة هذا العالــم أو الانتقال منه غير مأســوف عليــه. الوداعُ خلاصُهم الوحيد من مآسٍ يعانون منها دائمًا وأبدًا، وقبل أن يخرجَ طاغيــة جديد من بين ظَهرَانَيهِمْ يحــرق الأخضر واليابس ويدنّس أرضهــم البابليــة الطاهرة. وحكــى في بعض الحــالات بأن وادي الرافدين لا يستحق أن يعيش فيه هؤلاء البشر الاستهلاكيون، ويحلم بمنقذ يطمرهم جميعًا في حفرة عميقة أو في مستنقعات العراق. مع الأسف الشديد أنه كان يتحدث بهذه الطريقة المحبطة والعدوانية.

توقّفَ الرجل العجوز قليلاً عن الكلام، ثم أردفَ قائلاً ببطء وحزن:

_ أجل اختفيا من الوجود، لا أحد يعلم بالضبط عنهما شــيئًا، أمر غريــب للغايــةِ، لا، في الحقيقة ليس مــن العجيب أن يختفي طالب اللجــوء إذا ما طالت فترة انتظــاره من دون نتيجة أو أمل، لكنهما تركا أثرًا في نفسي، غادرانا في الوقت نفسه ومن دون سابق إنذار ولم يبق لنا غير الإشاعات، سمعتُ أنهما غيّرا كلَّ معلوماتِهما الشــخصية لطلــب لجوء جديد في بلد آخر قد يحصلان فيه على مراميهمــا ويُنهيان معاناتِهما من الانتظار الطويل هنا في معســكر طالبي اللجوء مــن دون نتيجة، في الحقيقــة أن العراقي الآخر لم يســكن هنا دائمًــا في الفترة الأخيرة، أعتقد أنه أصدرَ ديوان شــعر، وقام بعدة أشياء جيدة حســب قوله، أنا لا أعرف بالضبــط، لكنه كان غير راضٍ على

وضعــه، طموحاتُه أعلى بكثير مــن الإمكانيات الموجودة في بلدنا، كان يقول: إنه فيلســوف، شاعر، مفكر، كان عاطلًا عن العمل، يشــعر بالتهميش والملل من فترات التطبيق والتدريب أو التنشــيط الإلزامية، هو يســمّيها "التثبيط" ســاخرًا منها، يرسلونه إلى أماكن عمل لا علاقة له بها، تجبره السلطات هنا عليها كشرط لحصوله على إعانات مادية شهرية، غير مبالين لرغباتــه وهواياته الفنية والأدبية ووضعه مثل الأرق والســهر كل يوم. (ابتســم المُسِن هازًّا رأســه!) هذا هو القانون عندنا ومع الأســف لا يمكن دائمًا تغييره بسهولة حسب خصوصيات النــاس. ثم قرّبَ فمَه إلى أذني ليهمس لي مبتســمًا: تذكّرْ، إني كما قلت لك سابقًا رجل ثمانيني، وإني كصديقي بدأت أعاني من الخرف أيضًا! لكني أستطيع أن أنصحك بأنه من الصعب عندنا أن تعيش من الشعر أو الفلسفة حتى لو كنت عبقريًّا وموهوبًا! بالمقابل يمكن لأي شخص تعلم التنظيف إن أراد كسبَ قوتِه من عمله والتخلص من البلدية.

عندنــا قانون "يَنتَه" الخفي، يعني "لا أحد أحســن من الآخر"! قالها مبتسمًا ومحرّكًا كفّه نحو الأعلى.

ابتســمتُ له كأني لم أســمعْ جملتَه الأخيرةَ، حقًّا، أنا لم أنتبهَ أنه مخرفٌ، لكنه أحيانًا وفي مناسبات أخرى يحكي "شيش بيش"، يخلط الحابل بالنابل، وتضيع الأمــور، ويكررها بروايات مختلفة، أو "يطبــل صفح" قليلًا! على قولة العراقيين، لم أبالِ للأمر مقوّيًا من معنوياته، شجّعته:

_ لا يبــدو عليك ذلك، لكن، أخبرني، نســيت أن أســألك، هل تريدني أن أرحل؟ أيسعد أهل القرية أن أُغادر من هنا؟

أجابني ببرود وبصراحة غير معهودة بالنسبة لي:

_ أعتقد ذلك، جرّب أن تَطلبَ هذا الأمر من إدارة مركز طالبي

اللجوء، قد يجدون لك مكانًا آخر، أنا لا أسكن هنا، ومنطقتنا يقيــم فيها أناس طيبون للغاية لا يفكرون بمثل هده الأمور. الإنســان إنسان مهما كان وأينما كان ومن أين أصله، هكذا أفكر أنا شخصيًّا.

مع الأســف لم أزره قبــل الرحيل والمغادرة والغيــاب، أحتار، ولا أدري ماذا أســمّي الحدث، لكنه جلل بالنســبة لي، اختفى مع صديقه، رحل ولم يعد، لا يمكنني أن أجزم بالطريقة، كان يمكنني مســاعدته لو اتصلتُ به، لقد أسأت التقدير، اتصلْ بي إن احتجت عونًا. اتصل قبل أن تختفي!

كان يرفع إصبعيه الســبّابة والوسطى إشارة إلى "بين قوسين" كلما يذكر مفردة الانتحار، وختم كلامه مازحًا:

_ أرجو ألا تكون أنت أيضًا من جماعة اللحظة الشــعرية! لكن يبدو لي أنك تختلف قليلًا عنهم! لا بدّ أنك أيضًا تعاني من الكآبــة والقلق والأرق وما بعد الصدمة، كما هي الحال عند اللاجئين! وعمومًا إذا جاءتك فأرجو أن تؤجّلها قليلًا، اتّصل بي، قد أعينك بشيء قبل أن تقدم على أمر خطير!

_ لكــن هذا المنزل لم يُغلق آنــذاك، بقي فيه بعض اللاجئين، صحيح؟

_ نعم، نعم، بقي فيه بعضهم، ومنهم من كان فرحًا لأنهم الوحيدون فيــه، ولــم يتواجــدوا كثيــرًا، كانــوا يخرجون إلــى المدارس و"التدريب" كما يقولون! والآن عليّ الذهاب، إلى اللقاء!

ودّعني الشــيخُ بعــد أن ترك لي رقم هاتفــه، متمنيًا لي طيب الإقامة وعارضًا عليّ المســاعدة إن احتجتها، تركني هذا الإنسان المتواضع كأي مسكين أندب حظي.

بقيت جالسًــا لوحدي برهــةً، واضعًا وجهي بيــن راحتي يديّ معانيًا، أشــعر بدمي يغلي. تذكــرتُ أهلي القابعين هناك في ديار

النـــار، فارقتهم منـــذ مدة طويلة أنتظر فيها ســـاعة الفرج، والآن فقدت الأمل في رؤيتهم و"شـــم النمل"، عفوًا أقصد "لم الشـــمل" كما يقولون في قوانينهم هنا.

حاولتُ مُمارسةَ الكتابة في فترة الانتظار اللعينة هذه، رغم أني لم اكتب كثيرًا في ســـنين حياتي الماضية، لا، لا، في الحقيقة أني كتبت وســـجلت ودونت الكثير من مذكراتي وانطباعاتي ومعاناتي شـــعرًا ونثرًا، لكني إنســـان متواضع ومتهيّب أعرف قدري وأعتبر نشرَ ما أكتبه مسألةً كبيرةً وجدية تستحق التفكير مليًّا قبل الإقدام عليها، طبعا لم أدّعِ الشـــعرَ والأدب، لم أنشر ما كتبت، بل لم أفكر بمثـــل هذه الأمور إطلاقًا، اعتبرتها قضيّةً مقدّســـةً وســـأظل عند رأيي. أن تكون أديبًا يعني أن تنطق بالحكمة، وتصبح لســـانَ حال الأمة! كلام رنّان، يذكرني بأيام زمان!

هنـــا أصبح كل شـــيء متاحًا، ولاحظت أنّ هنـــاك لاجئين كُثْرًا ينشرون الكتبَ بعد أن توافرت لهم الظروف، لِمَ لا أبادر أنا أيضًا بممارســـة الإبداع كما يقولون؟ على الأقل أنا لســـت أميًّا ولا شِبه أمّيّ. أنا صحيح متعلم، ولا أقارن نفسي بأصحاب الشهادات العليا والمواهب، لكني أحس بالمعاناة والآلام، أقرأ وأكتب الرســـائل أو المذكرات، درســـت قواعد اللغة وقرأت بعض الروايات وأســـتطيع التعبير عن نفسي وحالتي بطريقة أدبية، لكن لا اعتقد أنها رفيعة المستوى مثل الأعمال الغربية المشبعة بالمعاني والرموز.

في سنوات الانتظار هنا في معسكرات اللاجئين قرأتُ كتبًا لم أتوقع يومًا أن عينيّ "اللتين يأكلهما الدود"، ستقعان عليها.

اطلعتُ على الإنجيل والكتاب المقدس وما جلبه لي المورمونيون وشـــهود يهوه والمســـيحيون الآخرون، وأعدتُ قراءة القرآن الكريم غير مرّةٍ، وازداد تعلقي به وبلغته العربية وانبهاري بســـرديته، بالذات قصة مريم العذراء، وتذكرتُ تعلّقي بقصصه أيام الطفولة. أما الكتب

النفسية فقرأتها لتعينني على تقمص حالة مرضية أمام الأطباء والمحللين النفسانيين، عسى ولعلهم يسرعون في حسم قضية لجوئي.

قرأتُ دوستويفسكي ولم أفهم منه شيئًا في بداية الأمر، إلا أن كل شيء تغير فيما بعد، وبالذات عندما بدأتُ أعاني من الحالات النفسية فعلًا، مثل جنون العظمة وأحيانًا الرُّهاب والهلوسة وتتراءى لي أشياءٌ وأسمع أصواتًا غير موجودة.

عندها صرت أفهم ليس دوستويفسكي فحسب، بل "أباه" كما يقول العامّة ساخرين! وأقرأ ما بين السطور وكل ما يكتبه وما لم يكتبه.

يعني، أعتقد أني تعلمتُ وأتقنتُ بمرور الزمن كتابة هلوساتي كما يرسم الفنانون التشكيليون السُّرياليون لوحاتهم، وقد أنشرها لاحقًا وأصبح كاتبًا مشهورًا. كنت ألتقي اللاجئين المتعلمين من أصحاب الشهادات العليا، هؤلاء كنوز فرطت بهم أُمَمُهم "الطايح حظها"، وبصراحة اكتسبتُ معلوماتٍ كثيرةً منهم، وأحضر جلسات الأطباء النفسانيين وأدمن على أدويتهم وأتبع إرشاداتِهم، وكانوا يؤكدون لي بأني لست مجنونًا ولا معتوهًا، لكني لا يمكن أن أتخلى عن الأدوية وإلا فإن تصرفاتي ستكون غير طبيعية. قد يكون ذلك مجرد مبالغات!

قيل لي فيما بعدُ من قِبَل بعض الناس بأن ما أعاني منه أكثر من الهلوسة وقد يكون لوثة عقلية، كان بعضهم يقول عني: مهووس، تصورتهم واهمين مخطئين، ولم يكن الأمر صحيحًا تمامًا كما يتهيأ لهم، لكن والحكي بيننا، لا يخلو كلامهم من الحقيقة بعض المرات. كل شيء هنا نسبي. فأنا عندما أصبحت مجنونًا بنظرهم صرتُ كما ذكرت سابقًا أفهم دوستويفسكي، وألبير كامو وفوكنر وجويس أحيانًا، لكن عندما كنت في كامل قواي العقلية لم أفهم شيئًا من كتبهم، كانت بنظري مجرد خزعبلات. كل شيء نسبي في الحياة!

وأحب أن أقول هنا في هذه المناسبة إنّ أحد السوريين القدامى من المقيمين في هذا البلد منذ الستينيات، أخبرني قبل

بضعــة أيام بأن هناك العديد من النــاس "الهبلان"، كما يحلو له أن يصفهم، يعني "المخابيل"، يعملون حالهم مرضى نفســيين في هذه البلاد، وبالــذات بين اللاجئيــن والمغتربين ممن يحصلون علــى التقاعد المبكر. وقال إنهم يســتغلون القوانين هنا ليحصلوا علــى مراميهم. رفضتُ فكرتَه وحكمَه المســبق أو "النمطي" على هؤلاء المواطنين المساكين، بررت ســلوكهم بالتأكيد على قساوة طفولتهــم وأوضاعهم الصحيةِ والنفســيةِ المزريــة، حملوها من بلدانهم ومعاناتهــم أثناء الحروب الأهلية، إنهم غير قادرين على العمل ضمن الظروف الأوروبية.

شعرتُ بالضيق من طريقته في الحكم على هؤلاء الناس، كأنه متعــالٍ عليهم، لم أرغب التواصل معه كثيرًا أو توخيتُ الحذرَ منه، همستُ لنفسي: "إنه بالتأكيد لا يمكنه تفهّم حال اللاجئين!".

ردَّ عليّ قائلا: "أنت طيب أكثر من اللازم أو غشــيم، ما تعرف حياة اللاجئين منيح".

عمومًا، أنا لاحظت أن البشر مختلفون، كلٌّ يغني على ليلاه، وكل واحد من هؤلاء اللاجئين هنا في هذه البلاد لديه خططه وأحلامه حسب الفرص وضمن القوانين، منهم من يمارس شعائر دينه بهدوء وبقناعة ومــن دون ضجيج، ومنهم من يبالغ وينخرط في التدين واللاهوت ويربي ذقنه وشاربيه كنتيجة حتمية لإقامته في الغربة بعيدًا عــن دياره الأصلية أو بلده الأم، كما هــي حال الدنمركيين المهاجرين الأوائل إلى أميركا في منتصف القرن التاســع عشــر، كانــوا ولايزالون متمســكين بعاداتهم وديانتهــم وتقاليدهم حتى الوقت الحاضر، يســكنون في مســتوطناتهم مثل"ســولفانج" في كاليفورنيا ونيكوشــيا_تانديل أررّويس فــي بوينس آيرس عاصمة الأرجنتين. هذه الأمور عرفتها فيما بعد.

أجــل، الأمر نفســه ينطبق على بعــض اللاجئيــن والمغتربين

مسـلمين ومسـيحيين وصابئة، وحتى يهودًا مخفييـن. منهم من يطلـق اللحية ويقـرأ الكتب الدينية حتى وهـو جالس في الباص، ومنهم من يتظاهر بالعبادات ليكسـب احترام الآخرين أو يحصل على صكوك الغفران من الأشـخاص المسيطرين والمؤثرين على أحيائهم السـكنية، أو يقومون بكل ذلـك خوفًا من تفتت الأواصر الأسـرية وضياع أطفالهـم، منهم من يندمج فـي دورة المجتمع، وآخرون يذوبون ويتوائمون مع أهل البلد لا يختلفون عنهم، ومنهم لا يسـتطيعون العمـل لمرضهم ويتقاضون الإعانـات الاجتماعية، غيرهم ينصرفون للعمل في الأعمال الحرفية والمطاعم ليلًا ونهارًا.

هـذا الصنف مـن الحرفييـن _عمـال، نجارون، حـدادون وميكانيكيون، منظفون وطباخون_ تعودوا على مزاولة الأعمال في بلدانهم، وأن لهـم حياتهم الخاصة، لهم دخلهم اليومي ويعرفون مـا يريدون، جاؤوا إلى هنا للعمل، يعرفون أنهم مطلوبون، الناس الآخـرون كلهـم يحتاجون إليهـم، لا يبالون لأحـد، ولا تزعجهم الصحافـة، هم أصلًا لا يقرؤونها، ولا لومة لائم ولا تأنيب ضمير، يكسبون مما تقدمه أياديهم بسعر أرخص من عمال أهل البلد! على عينـك يا تاجر! ما هو الخطأ فـي هذا التصرف بنظرهم؟ حالهم حـال أقرانهم من أهل البلـد الأصليين، هكذا يبـررون وضعهم. الإعلام يسلط الأضواء بالذات على المسلمين! انتهى الأمر!

ولا بد لي يا سـيدي رئيس التحرير مـن الاختصار كيلا تزهق روحك مني، وترمي الرسالة في "مهملة السلّات"، عفوًا أقصد في "سـلة المهمـلات"، دعني أدخل في صلب الموضـوع، وأقول لك المهم في هذه "السالفة".

في إحدى الليالي دخلت الغرفة "المسـكونة"، اتجهتُ نحو أحد صناديقها، وجدت فيه أوراقًا مطبوعةً، وأخرى مكتوبة بخط اليد، جُمعـت كلها ووُضعـت في ملف كُتب عليه عنـوانٌ بحروف كبيرة

"يوميات لاجئ عراقي"، لكن شُــطبَ عليه بقلم أحمر اللون، وكُتب بدلًا عنه: "رسائل من زمن الحصار".

قرأتُ قسمًا منها، أضحكتني قليلًا في بعض مقاطعها، غمرتني البهجة، جعلتني أشــتاق إلى صاحبهــا العراقي الحبيب، من دمي ولحمي وروحي وأصلي وفصلي ووطني وناسي وكياني و"طوايفي وتنَكات" أهالينا.

واصلتُ القراءة، أحسستُ أنها تعود إلى روح هذا الشخص العراقي "المنتحــر"، ولا أدري إن كنــتُ محقًّا في ذلك أم لا، أو لأنها مكتوبة بخط اليد وفيها هوامش وملاحظات بعدة ألوان، لدرجة أني ضحكت بصوت عالٍ عندما قرأت هامشًــا في آخر ســطر إحدى الصفحات: "وخّر الصفحة"، يعني اقلبْ الصفحة، واعتبرته مزاحًا طريفًا.

وبدا لي بعض المرات أن الهوامش والتعليقات مكتوبة من قِبَل عدة أشخاص؛ لاختلاف خط اليد والألوان وحِدّة الآراء في مقاطع أخرى.

لم أكن في الســابق أتبخر، عفوا أقصــد أتبحّر كثيرًا في هذا النــوع من الكتابــات، حيث يختلط فيها الجد بالهزل، وأنا لســت أديبًا محترفًا كما قلت لحضرة جنابكم، بل أنا إنسان رمى حاله في التهلكة بنفســه، تقمصتُ حالةَ المكتئب حتى صرتُ مجنونًا بنظر النــاس، لكني تفوقت فيما بعد على الأســوياء في فهم معاناتِهم، ومــن هنا ينبع اهتمامي بحياة المرحوم "خرج ولم يعد" وبكتاباته وأوراقه، إنها في حقيقة الأمر لا تعود إليه وليســت ملكًا له لوحده فحسب، بل للجميع، وجعلتني أشعر بمسؤولية كبيرة تجاهها، وكأني اكتشفت كنزًا لا يقدر بثمن.

ومنذ ذلك الحيــن بدأتُ أحس كأن روحــي تغادرني صوب طائر الســلام الغريب، الغائب الحاضر، وأرى صورته أمام ناظري في كل مرة أشاهدُ لقطات الرعب وصور الدمار من محارق الحروب العراقية على شاشــة "سي. أن. أن" "CNN". باختصار كنت أعتبر هذا الكائن

رمــزًا ذا بعد نوراني مقدس إلى أبعد الحــدود غير مرتبط بجغرافية العراق فحسب، بل بكل كيانه وروحه وحضاراته وتاريخه المعاصر.

أرســلتُ هذه اليوميات إلــى "منتدى القصة" هنــا عبر البريد الإلكتروني، لتصحيحها وتحسينها وتدقيقها، إنها مصاغةٌ بطريقةٍ لم أعتد عليها، يبدو أن كاتبها كان فاقد الوعي _ مثل حالتي العاطفية الآن_ ويعيــش حالةَ وجدٍ مثل فان كوخ، ويبدو أنه عانى الكثير قبل أن يقــرر الغيابَ عن العالم ومغادرتَنا، بعد أن ترك لوحاتٍ وأوراقًا وكتاباتٍ كثيرةً سأبعثها فيما بعد تباعًا لكم أو إلى دور النشر.

أخيــرًا قررتُ جمعَ بعض هذه الرســائل أو اليوميات المتنوعة المطبوعــة والمكتوبة بخط اليد، الإيجابيــة والمتفائلة والواضحة وأختصرُ المتشــائمة و"المتشــائلة" والسُّــريالية وأُهمل الغامضة، المليئــة بتصويبات وتنقيحــات وإضافات وملحوظــات وعبارات تلقائيــة كما يبــدو، وأبعثها إلى صحيفتكم "اليأس" لنشــرها، إنها تسخر من مظاهر حياتنا، وتعكس حالة إنسان أنهكه الدهر، ويبدو أنه كان عميقًا ومليئًا، معانيًا ويحمل همومَ مجتمعه على كتفيه.

****

عزيزي رئيس التحرير

بعثتُ لــك هذه الأوراق قبــل الاحتلال، التغيير، ســقوط الصنم، الســطو الكاوبوَي، إلى صحيفةٍ حكوميــةٍ، كنتَ تعملَ فيها، رغم قلقي عليك وخوفي من أن تجلب لك المتاعب والمشاكل، قد تؤدي بك إلى التهلكة والسجن، رغم أني شطبتُ منها العبارات والآراء غير الصالحة للنشــر. ولا أدري هل تســلَّمتها أم لا، لكني قرّرتُ إعادةَ إرسالها إلى صحيفتك في العــراق "الجديد"، بعدما اطلعــتُ عليها في الإنترنت، وفرحــتُ بك، أنك _كما فهمتُ_ تركت النظام وانشــققتَ عنه وكتبتَ ضده قبل سقوطه، وبقيت شريفًا وصامدًا رغم القتل والدمار، والناس من أمثالك انقرضوا وأصبحوا عملةً نادرةً، بكل معنى الكلمة.

أعدكَ بأني ســأبحث عن صاحب هذه الرسائل، ولا أعرف لِمَ أصبحَ هاجســي وأضحى وباتَ وصارَ الأمرُ مهمًّا بالنسبة لي بقدر ما هو شــهادة تاريخية وأدبية على بعض اللاجئين العراقيين في التســعينيات، وأنا كنت ولا أزال واحــدًا منهم وأنتظر اللجوء حتى بعد سقوط النظام! يقولون لي إن العراق أصبح ديمقراطيًّا وعليّ العودة إليه! فتصوّر!

والآن، أتركك عزيزي رئيس التحرير، وأيها القارئ، مع "رسائل من زمن الحصار" لتعيش لحظاتٍ جميلةً مع كاتبها المجهول. وأنا لا أعلم علم اليقين فيما إذا كانت هذه النصوص لصاحبنا اللاجئ المختفي طيب الذكر أم لكاتب آخر، زاره مرة أو مرتين ليســاعده هــو وصديقه الآخر، كما ذكر لــي الرجل الثمانيني صاحب الكلب المرقّط، الذي كان "يطبّق" اللغة الإنجليزية براســي، كما قال عنه أحد طالبي اللجوء المخضرمين السوداويين المتشائمين العباقرة المشــككين بأن هذا العجوز يأتي إلى هنا ليس حبًّا في اللاجئين، بل رغبة في التكلم بالإنجليزية. أذكر أني وقتها قلت في نفســي: "هَذول جماعتنا المشــككون، كل شيء لازم يخلّون فيه إنّ، عَبالك آني فلتة الزمان بالإنجليزية!".

وأنــا أيضًا كنت فرحًا لهذا الأمر، تعمقت معرفتي بالإنجليزية. في البداية كنت "ألعب طوبه (كرة قدم) بشفايفي وحلقي"، عندما ألفظ الكلمــات الإنجليزية فتظهر كعينيــن حولاوين "مخاصمين بعض" كما يقول المصريون، لكن بمرور الزمن صرت أتكلم بشكل طبيعي ولا أتكلف اللفظ. وحرصت على نقل حديث الرجل العجوز، وليس ترجمته إلى العربية، مع بعض بهاراتي المعروف بها بالطبع. هكذا يقول عني أصحابي!

المهم ما في الأمر أنها رسائل عراقي يقلق على إخوانه المعانين من التهميش والفقر والتشرد والحنين والبكاء والانتظار، وقد يكونون

في أوضـــاع مزرية، يطلبون اللجوء في بلدان أخرى شـــمالية نائية تعاني من البرد والأمراض النفســـية، بينمـــا بلدهم من أغنى بلدان العالم، يُقال إنَّ آخر قطرة دم، عفوًا أقصد نفط ستكون عراقية!

مـــع ذلك يعاني أهله من ويلات الحـــروب ومحارقها والحرمان والجهل والفقر والمرض والأمية. وصرت أدندن بين نفســـي أغنية: عراقية! عراقية! آخر قطرة دم! عراقية! عراقية! عراقية! آخر قطرة نفط عراقية! والشعب عايش بحرمان وجهل وأميّة! عراقية! عراقية!

من أين جاءتنا هذه المصائب؟ أنا أيضًا "زميل" له، مجهول، أســـكن حاليًّا مؤقتًا في منزل تابع لمعسكر طالبي اللجوء، أنتظر الفرج، هارب مـــن عالم الهمج، بعيدًا عن بغداد وســـوق الهرج. وقـــد ضاع مني كل شـــيء، اسمي واصل كما هو مسجل حاليًّا في جواز سفر مزور، وأهلي حصّنَتهم الذكريات في عقلي وقلبي، لكنهم نســـوني، ومواطنيّ لا أزالُ أرتبط بهم بعلاقات روحية عميقة، لم يعد البشـــر دومًا يفتخرون بهم، لكني أحبّهم مهما بدر منهم من ســـلوكيات، وأنتمي لهم. ووطني مقسّم ومقســـوم، مجزّأ ومجتزأ من خريطـــة العالم ومن الذاكـــرة الجمعية، ومقطّـــع الأوصال، ومدينتي بغداد، كنـــت أعتبرها الأجمل، صارت وكما ســـمعت وشـــاهدتُ من خلال القنوات التلفزيونية مرتعَ أشباحٍ متشحةٍ بالسواد، مليئةً بأنواعِ القمامةِ غارقة بالمياه الآسنة، رغم سقوط صنم، كنا نعلق عليه كلَّ مآســـينا ومســـاوئ حياتنا، فبماذا إذن سنتحجج الآن وقد اختفى هذا الغول؟ اســـتخدمنا كل الذرائع وتبجحنا وتقحبنّا، عفوًا أقصد وتقبّحنا، ولو هي في الحقيقة كلها تعطي نفس المفهوم والمعنى، فهل فعلًا يجب دفن كل هؤلاء المقيمين في بلاد الرافدين وردم المياه الآسنة بهم كما كان ثائر السومري يردد؟ وهل علينا أن ننتحر أو نختفى عـــن الأنظـــار من دون أن نتـــرك لنا أثرًا كما فعل هـــو؟ هل أرادنا أن نتخذه قـــدوة لنا؟ إنها بالتأكيد قســـوة غير حقيقيـــة، مجرد تعبير عن الألم ونار الحرقة، يعني من "حرقة قلبه" وحبه لشعبه، وأراد أن "يفش

خلقــه" على قولــة اللبنانيين، أو"يفوّخ قلبه" بهــذا الكلام. إي نعم، كل شيء نسبي في هذه الحياة! أخيرًا وليس آخِرًا كان هذا العراقي يتمنى الرحيل الطوعــي لمواطنيه. خلاصُهم الوحيد يكمــن في هذا الغياب، وعليهم اغتنام الفرصة، فلا أمل لهم في الحياة بعد الذي لاقَوه.

وأنا شــخصيًّا وفي حالات اليأس الرهيب، وبالذات في مساءات الكانونين الأول والثاني الشتوية الحزينة، حيث تغطي الثلوجُ الطبيعةَ، أســمع دومًا عصفَ هبوب الرياح قابعًــا "كارصًا" في حجرتي مفكرًا بالعراق "الجديد"، أو أوقات المغيب متأمّلًا هذه الأمنية العصيّة أثناء مشاهدَةِ شاشاتِ التلفاز تبثُّ مقاطعَ قديمةً تُظهر الحرائق والدخان المتصاعــد ونخيله المحترق الرؤوس وحشــود الناس تهتف لقائدها صارخــةً: بالروح! بالــدم نفديــك...أو الجثث المقطوعــة الرؤوس والأخرى المتناثرة هنا وهناك بأعداد هائلة حتى بعد سقوطه، وأقول لنفســي: إلى متى يبقى العراق الغني العظيم بهذه العذابات والفقر؟ هؤلاء مســاكين، ومن الأفضل لهم الخلاص مــن هذا الوجود، إنهم يستحقون حياةً أفضل. ليس لدي تفسيرات، كنت أشعر بهذا الإحساس.

مع تحياتــي وتمنياتي لقراء صحيفتكم "اليــأس"، فلا أمل ولا حياة بلا يأس..

أخوكم واصل

منتظر الفرج في عالم الهمج بعيدًا عن بغداد وسوق الهرج العراقي الرافديني مجهول بن يائس بن متعب

2 كانون الثاني 2007م، من أحد مراكز اللاجئين في الجزر الإسكندنافية

***

رد رئيس تحرير صحيفة "الأمل"!

عزيزي القارئ..

فــي أحد الأيــام، بينما كنت أجلــس في مكتبــي القديم زمن النظام الســابق وصلني ظرفان بريديّان، عندما فتحتهما وقرأت

مخطوطاتٍ بداخلهما، شـعرت بالخوف والحذر، قررت الاحتفاظ بهـا في مكان خفي إلى أن تحين فرصة نشـرها عندما تتحسـن الأوضاع ليطلع عليها القراء.

واليوم وأنـا أجلس في مكتبي الجديد "الأمـل"، لفت انتباهي مغلّـفٌ كبيرٌ كُتبَ عليه العنوان بخط كبير: الأسـتاذ أنيس النقاش، رئيـس تحرير صحيفة "اليـأس". عندما وقعتْ عيناي على اسـم الجريـدة، تحوّل من "الأمل" إلى "اليأس" خفـتُ في البداية، ثم ابتسـمت، بل فرحت لهذه الدعابة المتهكمـة واعتبرتها أكثر من عادية وذات مدلول وإحساس أدبيين. اخترتُ هذا المغلف بالذات من بين كومة كبيرة من الرسائل.

قـرأت رسـالة القارئ مجهول بـن يائس بن متعب، وهو اسـم مستعار لصاحب الرسالة الأولى في العهد البائد، مضاف إليه اسمه الحقيقي (واصل)، كما يتضح في رسالته الحالية إلينا. تشوقتُ بحذر لقـراءة النص الأصلي "رسـائل من زمن الحصـار" العفوية. أعدت القراءة وبدأت أصحح وأختصر وأشطب بعض الأسماء والعبارات غير المقبولة اجتماعيًّا والمرفوضة سياسـيًّا، والسخرية الحادة قد تبدو غيـر مرغوبة وتؤدي إلى إغلاق صحيفتكم ولسـان حالكم "الأمل"، عندها تأكد لي صدق إحساسه عندما غير اسمها إلى "اليأس".

شـعرتُ باليـأس والإحباط، أنا أيضًـا، لا يمكنني نشـرها بلا اختصارات، والتصـرف بحريةٍ، وأن جريدة "الأمل" ملكٌ لكم قبل أن تكون لي، وهي رهن مختلف الأوضاع، تألمت كثيرًا لوجود آلاف العراقييـن يطلبون اللجوء في بلاد الغربة رغم سـقوط الطاغية، بلادهم بأمسّ الحاجة إليهم.

قسـم من هؤلاء اللاجئين العراقيين مثقفون وأصحاب شهادات عليا عانـوا ويعانون من الغربة والتهميش وعدم الاعتراف بكفاءاتهم، عوملوا على طريقة "من طلع من داره، نقصَ مقداره"، فلا تسـتغرب إن وجدت

دكتــورًا في الكيميــاء أو الرياضيــات يعمل في مطعم، ووقعوا فريســة الأمراض النفسية، مثل الكآبة والرهاب وجنون العظمة، وأنا أدعو في هذه المناسبة مؤسساتنا الوطنية والثقافية للاهتمام بهم وإعادتهم إلى بلدهم الأم. لكن، على الأقل لم أشــعر اليوم بنفس الخــوف القديم كما حصل معي في العهد الســابق عندما رن هاتف مكتبي في صحيفة الجمهورية في أحد الأيام، قالت ســكرتيرتي بأن أحــدًا يبدو أنه غير طبيعي، يتصل من الخارج ويريد أن يكلمني. سمعت من السماعة الأخرى صوتًا كسيرًا، حزينًا، مخنوقًا، تنافسه حشرجات صدر يبدو أن الدخان أتلفه تمامًا:

_ ها أســتاذ أنيس، استلمت الرســائل؟ راح تنشرها في صحيفتكم "الملكية"؟ عفوًا على هذا المزاح، أنا يائس من إمكانية نشرها كلها كما هي ومن دون تغيير أو تحوير.

قال جملته الأخيرة غاصًّا في ضحكات ســخرية وســعال شديد لم يســتطع إيقافه حتى انقطع الخط. اختفى هذا الرجل اليائس المتعب، ولم أســمع منه شــيئًا، وبقيت لوحدي أجلس مع ســكرتيرتي في غرفة واحدة فريســةَ الخــوف والوســاوس، بينما كانت تحيطنــي بنظراتها المستفســرة والخائفة من مصائب الدهر. كان هذا كما يبدو هو نفسه قارئنا الســيد متعب، صاحب مخطوط "رســائل من زمــن الحصار"، لاحظتُ تغييراتٍ أُجريت عليها، أضحــت أكثر عقلانية ومقبولية. حان الوقت الآن، بعد التغيير بأربع ســنين، لنشــرها من دون علمي من هو كاتبهــا الحقيقي وما هو مصيره، فهل هو على قيد الحياة أم ذهب مع الريــح كحال العراقيين، قد يكون عاد إلى العراق الجديد أو قُتل على الهوية أو لايزال يطلب اللجوء في هذه البلدان الأوروبية رغم السقوط.

أنيس النقاش، رئيس تحرير صحيفة الأمل، آذار 2007

_ نُشر هذا الفصل بعنوان: من يوميات لاجئ عراقي "منتظر الفرج، الهارب من عالم الهمج". جريدة الزمان 17 أيلول 2013 العدد 4611

****

الفصل الثاني

رسائل من زمن الحصار

لكاتبٍ مجهول

1994

الإهداء:

إلى الحالمين، أصحاب المشاريع الكبيرة!

رسائل من زمن الحصار لكاتب مجهول

الرسالة الأولى:

هلوسات الليل! (1992)

عزيزي يونس..

أنتم تئنون تحت الحصار، وأنا بعيد عنكم أعاني من تأنيب الضمير! كلٌّ منا له معاناته الخاصة، أنتم تتضورون جوعًا وتمرضون، لا غذاء، لا دواء، وأنا هائم، غائم، عائم، نائم، متشائم، لا تشتهي نفسي تناولهما مهما جعت ومرضت أو هلوستُ في حالات الحمى وارتفاع الحرارة!

أعاني المرارة والآلام،

"بلكي بيصحى الضمير"!

أتشوق إليكم ولا أملك غير الشعر والهيام،

أعلم أن الشعر لا يغني ولا يسمن،

لا أتشدق بالقصيدة، الناس يُدْبرون عن الشِّعر، ويقبلون على الشعير وعصيره!

لكن ليس بالخبز وحده يحيى الإنسان، هراء ونفاق!

أمنّي النفس بالكتابة إليكم في زمن البؤس وحقد اللئام،

والبعد والفراق،

والجرح الجرح النازف في العراق،

والشوق إلى الرافدين الغارقين في الخراب والدم المراق،

والمحافل تحتفي، والتكشيرات والكؤوس،

والهلوسات والخواء والحرث في الأرض البوار،

والعراء العراء، في البوادي والأنهار والبحار،

والمحيطات الهادئة العصبية المائجة الهائجة،

حان قطاف الرؤوس،

هل أرمي هذه القصيدة الجهنمية في سلة المهملات؟ أم أُلقي بنفسي فيها،

أكتب هذه "المعلقة"، وأراقب من نافذتي سيدة كبيرة السن، متزينة، مُمَكيَجَة، متأنقة، متألقة تمشي "الهوينا"، معتمرة قبعتها الحمراء، متهندمة بأجمل الملابس الأنيقة الزاهية الألوان، محتضنة قطتين صغيرتين، كأنها تغني لهما "قطتي صغيرة، قطتي صغيرة، اسمها نميرة.."

لو رأتها أمي لقالت عنها:

"شوف هاي أم عقلين، داخله بالعمرين، وشايله بزّونتين"!

"عرب وين! طمبوره وين"!

والجرو الساقط في الوحل هناك بعيدًا عني، ينبح وينبح،

جاثم على الصدور، ونقاط العبور،

تلتقطه الكامِرات، تبث صورَه المحطات،

يتبجح ويتبجح،

عناق، عناق، باسمك يا عراق!

بندقيةٌ تُشهَر نحو السماء،

لعلّه ينجح!

أكاد أجن، أموووت، اختناق، اختناق!

صراخ، صراخ، يا عراق، يا عراق!!

إلى بغداد الواسعة،

الفارهة الأنيقة،

إلى بغداد العتيقة،

تشتاقُ، تشتاقُ نفسي إليكم، إلى الدروب،

زقاق خلف زقاق،
إلى الأزقة دهورًا نشتاقُ،
"رَقّيَّة" حمراء عراقية باردة في الظهيرة،
تحلق الروح إليكم في الغروب،
تكتب رسالةً، أنشودة الحب في الحرب،
شمال وجنوب، شمال وجنوب،
تتلمس حروفها الجدران،
والعيون ترنو نحو الحبيسة الأميرة،
والأخ الأكبر "الأبُ"، جروٌ متوحلٌ جاثمٌ على الصدور،
متسلط، بيده كل الأمور،
مهووس منحوس،
شَكّاك حكّاك،
يبحث عن آباء اللقطاء،
غسل العار، غسل العار،
دماء تسيل في المساءات الحزينة، في الحروب،
في بلاد عشتار،
استضعفوك فذبحوك، هلاّ ذبحوا شبل الأسد،
شبّوا فيها النار،
تجري الدماء في الدروب، تسري في العروق،
ميسوبوتاميا، ميسوبوتاميا،
محرقة البشر والشجر والحجر،
حياة لا وقت فيها للضجر،
الدولي يتشدق بالحصار،
قد أكتب قصيدة عن الضحالة والتَّتار،
الكلب الساقط في الوحل،

يكذب دون خوف أو وجل،
ويتبجح، نبوخذ نصر! نبوخذ نصر!
صلاح الدين، قد ظهر، يشهر السيوف والفؤوس،
حمّامات الدم في بغداد،
حمّامات بغداد القديمة، حَماماتُ بغداد وفخاتيها،
أشم هنا رائحة المواقد والمداخن أيام الآحاد،
الشوارع نظيفة أنيقة خالية من حركة النفوس،
يستأنسون في منازلهم الدافئة،
لا نبوخذ نصر ولا صلاح الدين، بل شموع وكؤوس،
بغداد! بغداد! حيث تُجدع الأنوف!
وأنا أبكي، حزين، رأسي منكوس، منحوس، منفوس،
عبقك يكتسح الوحل يا بلاد الرافدين،
تُرى هل سيصيبهم الصداع من هذا الهراء؟
من هلوسات الإبداع، وإبداع الهلوسات،
أوباش في العراء، العراء،
وحوش ضارية، كلاب ضالة،
زئير وعواء! أمراضٌ مستشريةٌ
تلك رسالة العذابات!
لا بأس من رميها في سلة المهملات،
أم أَن رؤوسهم من حديد؟ أَم سيئنّون من الآهات؟
ويحلمون أنهم يفقأون العيون
ويثقبون الآذان ويقطعون الهامات،
"إني أرى رؤوسًا قد أينعت" رافعيها شامخين وشامخات،
برافو، برافو! اقطعوا دابرهم، برافو، برافو عليكم!

****

رسائل من زمن الحصار لكاتب مجهول

الرسالة الثانية:

الرسالة الجَلجَلوتية!

(آب/ أغسطس 1992)

إلى صديقي يونس..

ملحوظــة: أيام معدودة كمــا ترى، مرّت علــى "إبداع" هذه الرســالة العصماء الجَلجَلوتيه! أو الجنجلوتية، لا أدري لِمَ أطلقت عليها هذه التســمية عفويًّا ومن دون ســابق تفكيــر أو تخطيط. بالتأكيد هي ليســت دعاءً ولا "عملًا" لإبطال الســحر، بل رســالة هجين من الفوضى! فيها الألم والوجع والحنين والصراخ والأنين وأنتــم قابعون تحت الحصــار! بدأت بكتابتها يــا صديقي يونس ولــم أبعثها حتى الآن! كنت ولا أزال متحفظًا مترددًا في إرســالها إليك أو رميها في سلة المهملات. أجل لا أستطيع أن أتخذ قراري المصيري هذا بكامل حريتي، أشــعر بأني مســلوب الإرادة، مقيّد مثقل مهموم كأني مدان مهان، محدد بالممنوعات، أقلّها أخشــى سوءَ فهم العوام واللغط وسوء العاقبة، وسطوة الأخ الأكبر عليكم، وأنا "ما أقدر على فراقكم ولا زعلكم"، أخشى أن تفهموني غلط!

أرجــوك يونس لا تحمّل الأمور أكثر مــن حجمها وطاقتها، كن طبيعيًّا كما كنا ســابقًا أيام الشــباب ولا تؤوّل الأشياء، راجيًا عدم إساءة الظن، كل شيء هنا في هذه المقطوعة "إلهام" على السليقة!

أنا أتفهّم وضعكم النفســي والمثل يقول: "**اللي يعد العصي مو مثل اللي يأكلها**"!

لكنها، أقصد هذه المقدمة "الشعرية"، هلوسات الليل الجنونية،

نابعــة هذه المرة ليس مــن وحي ضميري وحــدي، بل أيضًا من ضمائــر أصدقائنا الحيــة القلقين عليكم، كانوا يســهرون عندي في بعض الأمســيات، كلهم أحباؤنا يخصونــك والآخرين جميعهم بالســلام من دون ذكر أســماء، وهُم يعرفونكم جيدًا، ويبدو أنهم ساهموا في كتابة هذه "المعلقة" من دون علمي!

عباقــرة هم، "فلتــات" زمانهم مثل جماعــة "الوقت الضائع"، فنانون تســلطنوا عند ساعة السَّحر في ليالٍ بيضاء نعيشُ بقاياها الآن، أضافوا عليها ما تفتقت به قرائحهم.

إنها على أية حال قصيدة ليست بهذا السوء! ألا ترى ذلك أيها الشــقي؟ ولا أستغرب إن وجدتها منشورةً في إحدى الصحف! من يدري؟ قد يرســلها أحد هؤلاء الأصدقــاء الصعاليك إلى صحيفة أدبية من باب السخرية!

هي ليســت قصيدةً بالنسبة لي، لكن بصراحة إذا ترجمتها إلى اللغــات الأوروبية وحورتها قليــلًا، فســيعتبرها بعضُهم فتحًا في السُّريالية!

واعذرني مرةً ثانيةً وثالثةً على هلوســةٍ أعــدتُ قراءتها اليوم صباحًــا، بعد كم يوم مــن كتابتها، وابتســمت وضحكت وقهقهت وســخرت منهــا لما فيهــا من مــزاح وكلام بــكلام وغموض، قد تتصورني مختل العقــل، أتهكّم متنقلًا من هذه الفكرة إلى أختها، وكلهن _أقصد الأخوات والأفكار أو الفكرات_ جميلات.

قصّت يد "الرقيب" وشــطبت ومسحت وحوّرت وغيّرت وبدّلت وشــذّبت وهذّبت وذَهّبت وســع ما اســتطاعت، لتكون الهلوســة والرسالة الجلجلوتية "صالحتين للنشر". بالتأكيد ستقول عني إني "مشتهي ومستحي" كما يقول المثل العراقي، أريد أن أصير شاعرًا لكني متحفّظ ومتردّد! لِمَ لا؟ لســتُ "النابغة الذبياني" الوحيد في هذه الأيام!

لكن، بصراحة هكذا تُكتب الرسائل بعفوية وتلقائية، أما إبداع الشعر وليس كتابته أو نظمه، هذا يحتاج إلى الحرية، وأنا لست حرًّا على أية حال! صدّقني، إني تيتمتُ منذ خرجتُ من العراق، وأصبحت أسيرًا له! وهذا الأمر يقلقني ويزعجني ويغيظني ويؤلمني ويضعف شخصيتي وثقتي بنفسي، ويشكك بقيمتي الحقيقية، لماذا لا أكون أنا أنا، وأقول ما أشاء؟ لماذا؟ لا أشعر بحريتي بطريقتي بالمزاح حتى مع أقرب صديق لي عرفته منذ الطفولة، لماذا يا صديقي يونس كل هذا الحرج والتفكير والتردّد؟ هل هذا جرّاء تربيةٍ عراقيةٍ ورثناها عن آبائنا؟ نفكر مليًّا قبل أن نصرح بما يقلقنا خوفًا من الوقوع في المحظور، إذن كيف سنتعلم إذا لم نمارس الأخطاء؟ ألم يقولوا إن الأطفال يجب أن يتعلموا من أخطائهم؟ حكي بحكي! ما أشطرنا بالتنظير والكلام المرتّب "المسفّط"!

إذن كيف ستصبو نفسي، تسمو وترتفع إلى الأعالي؟ كيف سأكون قردًا، عفوًا أعني فردًا صالحًا نافعًا في المجتمع، بحيث أستطيع أن أنقذ بلادي من المحن وأكون قائدًا لها في البناء وإطفاء الحرائق؟ ألا تزال تفكر بهذه الأمور يا صديقي يونس؟ أم أن الحصار لطمك كما "كفخنا" كلّنا عمليًّا ونفسيًّا، والدنيا شغلتك بألاعيبها؟

المهم، لا أطيل عليك، أقول لك مرة أخرى بإيجاز، وأنا المهذار المهدار المدرار المنهار، شديد العداوة مع الاختصار: يا سيدي، أردتُ أن أرمي هذه الرسالة، أو بالأحرى "مشروع الرسالة"، في سلة المهملات خجلًا من هلوسةٍ تدّعي الشعرَ أو تحاكيه، وأكتب لك بدلًا عنها بطاقةً بريديةً رسمية شكلية تقليدية من قبيل: حضرة الأخ العزيز يونس، أرجو أن تكون بخير، و و و و... إلخ وأختمها بالسلام والتوقيع، و"أبوك الله يرحمه" كما يقولون! وأبعثها إليك راضيًا مرضيًّا وبكل امتنان وافتنان وحنان وحبور وسرور، لكني

أخيرًا حسمتها وقلت لنفسي: لِمَ كل هذه التعقيدات يا رجل؟ اعقِلْها وتوكّلْ! أجل، يعني ابعثها كما هي، على علاّتها إن كانت فيها علّات _لا قَـدّرَ الله_ ولا تبالِ، لا تبالِ يا رجل، لا سـيما ونحن أصدقاء الطفولة، وطبعًـا أنت أكيد من جماعة "أعطونـا الطفولة"، أليس كذلك يا صديقي؟ وريمي بندلي؟ هـل لا تزال تتذكرها؟ تعرفها؟ أحـسُّ بك تقول "أكيد" بصوت خافت، شـنو أكيد؟ طبعا أكيييييد تعرفهـا، قُلْها بفمٍ ملآن وصوتٍ عـالٍ: بحبك يا لبنان! فهل هناك نحيـب في العالم لا تعرفه، هل تتذكر كم بكينا عندما كنا نسـمع هذه الأغنية، لكنها لم تحرك ضمائرَ رؤسـاء دول العالم ولوردات حروب قساة ومتآمرين على بلاد الأرز الحبيبة! بحبك يا لبنان! يا وطططني بحبك!

"عشـان هيك خيـو" كما يقول الإخوة الشـوام، كثّـر الله من أمثالهم وأمثال كل النشامى، قلت لنفسي: لا بأس من إرسال هذه الرسـالة بعفويتها الصادقة، رغم تعرضها إلى "سـطوات" جلساء السـمر و"غاراتهـم"، نحن نعيش زمـن الغـزو، زادوا عليها من تداعيـات الأفكار، من دون اختصـار كبير، وقتي قليل، ولا أتذكر مَنْ مِن الكتّاب قال: أكرّرُ نفسي كثيرًا لأن وقتي قليل.

وبمناسـبة "أعطونـا الطفولة"، قال لي ثائر السـومري، يجب أن تكـون "الطفولة" شـعارنا الأول والأخير، نعم، ليس هناك غير البراعم من ينقذ الميسوبوتاميين. صاحبنا الشاعر السومري هذا، نسـميه أبو الدفن، يردد دائمًا "لو كانت الأمور بيدي، لطمرت كلَّ الكبـار في النهريـن، وأبقيت الصغار في أفضـل رياض أطفال، أعيدُ دمجهم بحضارات سـومر القديمة". أنا شخصيًّا، وفي بعض الحـالات واللحظات الشـعرية الثورية الخلاقة أشـاطره الفكرة نفسـها، لكني عقلاني وألْيَنُ منه، لسـت مهووسًـا لا بـ"الطَّمّ ولا بالردمِ ولا بالطمر كما هو الحال عند زميله البابلي!

انتهت الملحوظة وبدأ "متن" الرسالة العظيمة، وأنا طمعان في سعة صدرك وصبرك، وعشان كدا باتعشّم بك أن تسامحني على فوضاي وتلقائيّتي، هي مجرد رسائل شخصية عفوية، ليست روايةً ولا قصصًا أدبية سردية تقليدية رفيعة المستوى على النمط القديم.

قد تكون هذه مبالغة، ليس الأمر بهذه الدرجة من الفظاعة، على أية حال سأحاول أن أخفّفَ الأمورَ وألطّفها وأرطب الأجواء وأطيّبها بأعطر الرياحين، من خلال الكتابة إليك عن القضايا الإيجابية وليس السلبية! أعرف أنكم لا تحبّون سماع النصائح والحقائق المرّة، لستم أفضل من ملك يشنق مستشاريه العسكريين إذا أخبروه بهزائم جيوشه، بينما يضع النياشين على صدور المنافقين الكذّابين المتزلفين، يخدعونه غير مبالين بسقوط جبهات القتال! "يطوّف على ميّة الباچه"! كما يقول العراقيون.

على ذِكر "الباچه"، إنها كلمة فارسية، أليس كذلك؟ ومن يدري قد تكون كُرديه، على أية حال قال لي أحد الإيرانيين إنهم يسمونها "باچه كَلّه"، يعني راس باچه، والعراقيون يقولون كَلّه يعني ضربة رأسية، العرب يسمونها بمسميات مختلفة: نيفا في لبنان! وسوريا إلى حدّ ما، لكنها معروفه في هذا البلد "شختوره" أو المقادم أو "إشّه_ قِشّه"، كما أخبرني طالب لجوء سوري، معتّق، ينتظر إقامتَه منذ عصور! أشقاؤنا الـ"كنانيون" يقولون: كوارع، يا لها من زخرفةٍ لغويةٍ! فوضى عارمة!

عزيزي يونس! والآن بدأ الجد، نحن قلقون للغاية عليكم لما تعانونه من الحصار، قد يتصور بعضهم أنه من الصعب عليّ استيعاب معاناة الآخرين وأنا جالس في غرفتي في الطابق الثالث، هنا تقع شقتي، يُطلُّ شبّاكُها على ساحة خضراء جميلة تحيط بها أشجار باسقة تصل قممها إلى سطح بنايتنا ذات الطوابق الأربعة، من ضمنها الأرضي. نشمّ عطر ورودها لمجرد فتح النوافذ، تصور

أي جنة نسكن فيها! لكن هذا لا طعم له من دونكم!

نحن الآن في الصيف. لا يمكنك أن تتخيل يا عزيزي ماذا يعني شــروق الشــمس هنا، لا أتصور أنّ هناك أجمل من هذه الطبيعة الخلابة المحاطة بالخضرة والمياه والوجوه الحسنة أينما تحركتَ وتجولتَ وســافرتَ وحيثما أقمتَ وحللتَ ومكثتَ، إلا أننا لا نحس بــكل هذا الجمال والكمال ولا نســتمتع به، نعــم، عقولُنا وكياناتُنا وأرواحنا معكم ومع العراق الجريح الذبيح. نلهجُ باسمك يا عراق: عراق! عراق! عراق!

لا تتصور مدى تعلق العراقيين هنا ببلادهم، حتى أولئك الذين هُجّروا وتم رميهم على الحدود لقمةً ســائغةً للكلاب والذئاب، لم يستوطنوا بلدان اللجوء الجديدة، بصراحة، قسم من الجيل الأول أو حتى الثاني من يهود العراق متعلقون به إلى الآن، لكن ولاءهم لبلادهــم الجديدة أرض الميعاد كما يتصــوّرون ويقولون، وأقول لك بالمناسبة إن أردت التعرف على أفضل أغاني العراق فيمكنك سماعها في حي من أحيائهم، عفوًا أقصد الأرض المحتلة. تصور! أجــل يا عزيزي، "بــلادي وإن جارت عليّ عزيــزةٌ ... وأهلي وإن ضنّوا عليّ كرامُ!".

أحد أصدقائي قال لي قبل يومين: "أنا شــخصيًّا أشعر بتأنيب الضمير على (فرهود اليهود)، وســوء التعامل معهم واضطرارهم للرحيل من ديار عاشــوا فيها قرونًا، لو كان الأمر بيدي لأعدتهم إلى بيوتهم وسلّمتهم مستمســكاتهم، أجل، لا بدّ من الاعتذار لهم بغض النظر عــن كل الحيثيات، من هنا يبدأ التغيير. لا يمكننا أن نطالب بحقوق الفلســطينيين من دون أن نعدل معاملة العراقيين أيًّا كانوا". قلتُ له: سمعت أن أحدَ العراقيين المهجّرين، سمّى ابنه "عراق"، رغم ولادته في ســنة ترحيله، أو الهروب بجلده من بلده! وهنا يوجد أطفال كُثُر يحملون اسم عراق!

أفرحُ لهذا الأمر ولا أشــجعه، أخشى عليه من التلوث، ماذا إذا كان "عراق" ســيئ السمعة؟ سيقولون عنه: "هذا التافه ابن التافه عراق"، سامحني الله يخلّيك!

أيام زمان، في السبعينيات كنا نتعجب مِمّن يتركون أوطانهم للعمل ما عدا المدرســين، بل إن منهم كانوا ينظــرون نظرةً دونية إلى أي عراقي يغادر بلدَه بحثًا عن قوته أو المال في بلدان أخرى، لا أعمّم، هذا ما ســمعته من الآخرين، أتذكر أن جيراننا فعلوا كلَّ ما بوسعهم لثني أحد الشباب عن السفر للعمل في الكويت، حتى أقنعوه! تصوّر!

وكنت دائمًا أندهش طارحًا هذا الســؤال على أحبابي وأشقّائي الشباب الشــمال أفريقيين المنتشرين في شوارع إيطاليا وأوروبا وأزقتها مفترشــين الأرصفــة طلبًا للرزق وهربًا مــن الفقر، كانوا يجيبوني بــأن: العرااااق قوووووي وغني بـ"البتــرووول"، وأني لم أعانِ من الفاقــة والحرمان مثلهم، ولا أفهم حالهم. وهناك اليوم مــن وصل إلى قناعــات مثل "نظرية المؤامــرة" وأن أميركا تريد تأديــب العراقيين وتدجينهم وتجهيلهــم، وهذا هو ما يحدث الآن، لكنهــم يقترفون غلطةً، العراق كان مدنيًّا منذ الســومريين، والآن منفتح على الثقافة الأوروبية، وسيكون ردّ الفعل قويًّا وخطرًا عليهم.

أحد العراقيين المتشــائمين الهاربين من لوعة الحصار ســمع هــذه الأقــوال، أو الادعــاءات كما يصفهــا، بالذات عــن مدنية الســومريين، ضحك ســاخرًا منها وهو يدردم هامسًــا بين نفسه بلهجة الجنوب: "خايب تَــوَلْ، يعني انصرفْ! هيه هيه يا أالله! من أين لكم كل هذا الحكي؟ كله نفخ بنفخ"!

بــل إن أحد أحبّائــي المغاربة قال لي بمزيــج من المغربية والفصيحة:

_ لعنة الله عليهم! هؤلاء أولاد "حَغاام" (حرام) يريدون شَرذمةَ العراقيين!

كان هــذا الشــاب المغربي البطل الأســمر يقــول ذلك لاعنًا الجميع، من دون أن يســميهم بالاســم، متحدثًا عــن بغداد مركز الخلافة والحضارة.

سألته ممازحًا ملاشيًا، تارةً بدارجتهم وأخرى بالفصيحة، وكأني أمثّلُ دورًا في مسرحيةٍ تاريخيةٍ:

_ ويحك يــا رجل! ماذا تقول يا هذا؟ إيــاك واللعن، فيه داء الحقــد! من هُم هــؤلاء أصحاب "الشــرذمة"؟ وماذا تعني بذلك؟

ثم بادرتُه بلهجته المغربية الرائعة:

_ أش كتهدر أنت يا صاحبي المارروكي؟ أفصح يا رجل!

أجابني وشــفتاه الغليظتان ترسلان ابتسامةً ســاخرةً، متحدثًا بالعراقية والمغربية محركًا كفّيه:

_ آههها، أنت شــنوعيني ما تعرف القصة يا العراقي آهها؟ ما تعرف شنو يعني سياسة "الشرذمة" الأميركية ضد العراقيين؟ هذول الأميركان أولاد حَغاااام (حرام) يبغون يخلوا الشباب العراقــي والعلماء العراقيين يحوّســوا، يتســكّعوا بكل دول العالم، أنت شــفت عراقي قبل كان يجي هنا يطلب لجوء؟ والوا، أبدًا، مستحيل! أنا عمري ما كنت نشوف إلا العراقيين الأساتذذذة، الأساتذذذة، أما دَابَه، يعني الآن، صارت أوروبا مليانــة بالــزّاف بِهــم لاجئيــن، كلهم متعلمــون وأصحاب شــهادات عليا مش بحالنا إحنه عمال، الأســاتذة ديالنا ما تلقاهمش هنا لاجئين بحال العراقيين وعاطلين عن العمل، كلهم في الجامعات، الحكومة ديالنا ملكية محترمة، معلوم! حوّلوا العلماء العراقيين إلى لاجئين! هذه مؤامرة! مؤامرة! عقوبة! هاي هي سياسة أميركا! إيه معلوم! أنت أكيد تعرف أحسن مني، ياك يا السيد؟ وصار يضحك بهستيريا، هههاها،

لكن يمهل ولا يهمل، الحرب سجال! الله ينتقم منهم، هذوله الأميركان واليهود، اليهود، ما إلهم أمان! {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملّتَهم}!

تألمتُ كثيـرًا لكلام هـذا المغربي الطيّب، ينذر بشـؤم الثأر والانتقـام في المسـتقبل، وأن هـذا الفتى اليافـع الفقير يكدح هنا ليرتّب أمـوره ويحصل على إقامة هنـا، وبالتأكيد أنه وأغلب الشباب العرب سـيرقصون فرحًا وسيغنّون ويُطربون الآخرين لو حصلوا على تأشيرات دخول إلى أميركا من دون التخلّى عن حبِّ أوطانهم طبعًا، أجل سيبقون يسبّونها ويضمرون لها الكراهية وفاءً لفلسطين وشهامتهم وانتماءاتهم!

لا بدّ أن هذا الفتى المغربي الشـهم هُـرّب إلى أوروبا بجلده كأي شاب ممّن يسمّونهم هناك بـ"الحرّاقة"، لا أعرف من أين هذا "المصطلح"، قد يكون لأنهم يحرقون كلَّ شـيء ويتركونه وراءهم في بلادهم الجميلـة، يمخرون عبابَ البحر فـي مراكب متهرّئة عسـى أن توصلهم إلى بر الأمان الأوروبي. نعم، إنهم أيضًا أولئك الشـباب أصحاب القلوب المتوهجة والنفـوس الملتهبة، يغامرون بحياتهم مثل هَنيبعل، يحرقون الحدود ليهاجروا بعيدًا عن بلدهم من حرقة قلوبهم وألمها ومعاناتها.

يا له من أمر غريب وعجيب! طوابير الناس، وبالذات الشباب تراهم يقفون أمام السـفارات الأميركية للحصول على التأشـيرة، ومع ذلك تتعاظم مشـاعرُ العداء لهـذه القارة "الحلم"، والتعصب والصراع والانتقام يزداد بأسًـا وبؤسًـا، وهنا يتم استغلال الدين، يا سـاتر! يا ساتر! الله يسـتر من قادم السنين، بل الشهور، لا بل الأيام، و"الّا أقول لك: الساعات!"، أجل الساعات والدقائق! لست متشائمًا، بل هكذا تبدو الأمور.

حدثَنـي أحد أصدقائي، قال: في إحدى المرات عندما كنا في

بداية التسعينيات ننتظر في معسكرات اللاجئين الحصولَ على الإقامة، فوجئت بشاب طويل القامة ضخم الجثة يأكل فيها السبع كما يقال، والله أتذكر أنه كان على جَمالٍ رجوليّ يجلب انتباه حتى الرجال، فيه العينان الواسعتان الكحيلتان اللامعتان السوداوان، والسن الباسم والشعر الكثّ، والطول والرشاقة، والشياكة والأناقة والقيافة، والله العظيم لو كنت مخرجًا مسرحيًّا لأعطيته دور جنرال، خالد بن الوليد! قائد عسكري! فارس مقدام! ورجل ملهم روحي، كأنه عروة بن الورد! يعطي ولا يأخذ، يقود الجماهير، لكنه ويا للأسف لم يكن كذلك، سبحان الله! كاد أن يطير فرحًا، لم يستوعب "صدمةَ" الخبر المفرح، صار يتراكض ويتراقص ويدبك ويهز وسطه، ويدور هنا وهناك جذلًا فاقدًا السيطرة على جسده، يهذي ويجمجم بكلمات غير مترابطة كأنه يعاني من نوبة فرح جنوني، لا يدرك ماذا يفعل وكيف يسيطر على مشاعره كأنه نشوان سكران جذلان يتهاوى، أصيب بهيستيريا، سألت الآخرين بهدوء وثقة بالنفس كأني مديرهم أو مسؤول نزلتُ عليهم مشرفًا "من فوق"، أو من كوكب آخر لا يعلم ماذا يجري هنا: يا جماعة الخير، اشصار بيه، هذا الشاب؟ ربح مليون؟ قالوا لي إنه حصل على إقامة، "هَلّا وصلت إقامته"، هَمهَمتُ مستفسرًا: "وصلت إقامته؟ بالسيّارة؟ شر البلية ما يُضحك! لله في الخلق شؤون، وشنو يعني إقامة؟ بينما كانت عيناي تتطلعان بسخريةٍ إليه وهو يتابع دبكاتِه ورقصاتِه، والآخرون يضحكون.

تَمتَمَ أحد كبار السن من طالبي اللجوء الفلسطينيين، كان جالسًا إلى جانبي، يبتسم: "حقّه! من حقّه يفرح، ويرقص كمان، ما هُوْ أردني، المفروض يزغرد لأن الأردنيين ما بيحصلوا على الإقامة هنا بسهولة زيكم العُراقيين، أنت مش عارف؟ وإلا؟ إحنه الفلسطينية قبل كانوا بيعطونا الإقامة بنص ساعة، هسّاع صاروا

يأخّرونا، أكثريتنا هنا صار لنا ثلاث سنين ننتظر، عشان هيك هُوْو فرحان، أصلًا ما كان بيتوقع ياخذها، لأنّه أردني، وزي ما خبرتك ما بيعطوش للأردنيين إقامة عشـــان بلدهم آمن، وفيه ديمقراطية واحتـــرام لحقوق الإنســـان، هُوو صار له أربع ســـنين ينتظر، لكن هُوو ما كان ســـائل عليها، يشـــتغل هنا وهنـــاك، جزار وخضرجي، يجي هون للمعسكر بس يستلم الإعانة الشهرية ويروّح، إيه شو بدّه يعمل؟ يروّح على بلاده؟ مش معقول يترك هالبلاد الخضراء الحلوة والشغل والرفاهية ويروح، لا عنده شهادة ولا شغل ولا عمل هناك، ما تقول لي وطن! لا وطن ولا بطيخ، شـــو فائدة الوطن إذا ما فيه لقمة الواحد يأكلها؟ مستحيل! مضبوط كلامي والّا، يا باشا؟".

وَجّه ســـؤاله الأخير متطلّعًا إليّ بعينين حزينتين مستفسرتين، بينما أخرج ســـيجارتين من علبته، قدّمَ واحدة لي وأخرى وضعها بين شفتيه الذاويتين ليدخنها، وصدره يخرخش ويسعل وهو يتمتم بين نفسه كأنه يشك بما يقول: "أنا عارف! والله الواحد يحتار شو بيحكي، الوطن عزيز، لكن الظروف تحكم الناس، والّا شـــو يخلّي واحد شاب مثل هذا يترك أهله وديرته؟".

تناولتُ الســـيجارة شـــاكرًا، وأنا أتطلعُ إلى تضاريس الجغرافية والتاريخ والرحيل والقدوم والمغادرة والوصول والسفر البادية في ملامح وجه هذا الفلسطيني المبتسم الهادئ، وكأن المثل العراقي "المبلّل ما يخاف من المطر" ينطبق عليه، هو بالأساس لاجئ في لبنان ليســـت له حقوق. واســـتمرَّ يتكلم بصوتٍ خافتٍ كأنه يعاتب نفسه: "شوف كانت هناك بناية قديمة عالية، هي مش كثير تعبانة، بس هم درســـوا الموضوع وقرروا يهدّموهـــا ويبنوا مكانها عمارة جديدة، حاطّين صوره كبيرة تورجيك كيف راح يصير شـــكلها في المســـتقبل، ما شفتها؟ في شـــارع الكومونة، وفعلًا هدموها، على أســـاس خرابة! ههه! وراح يبنوا سوبر ماركت جديد وشقق سكنية

ولا أحلى منها! واحنه؟ خراب وسراب وشتائم!

عندنا يعاملون البشـــر مثل البهايم، هذا هيك عمل وهذه هيك عملت! وعلى أقل حاجة تبدأ اتهاماتهم وتخوينهم وتكفيرهم! شو بدّي أقول؟ أنا عارف؟ والله مش عارف شـــو أحكي؟ هَيْهم الناس إهنِي عايشـــين أحســـن حياة ومرتاحين! ليش احنه هيك وضعنا؟ ليش ما نصير مثلهم؟ نبني ونعمّر بلادنا وبيوتنا؟ شـــوف يا مَحلى شـــوارعهم وبيوتهم، واحنه خراب وتراب، نكـــد بنكد، حروب إلها أول مـــا إلها آخـــر من داحس والغبراء حتى يومنـــا هذا، وأطفالنا وشـــبابنا يُقتلون قدّام أعين كل البشر، لكن لا مهزوز ولا محزوز، ولا نعـــرف شـــو راح يحصل بالباقين، تهجير قســـري أم (تحرير) أمري! وإلى متى نبقى بهالحال! الله أعلم!".

كادت عينـــاي تدمعـــان، لـــو كان الأمـــر بيدي لفضّلـــتُ هذا الفلســـطيني على نفســـي وأعطيته الإقامة بدلًا عني، هذا طبعًا إن منحوني إيّاها بسرعة باعتباري عُراقيا كما يقول. أفكّر في كلامه وأقول لنفســـي: لا وطن بلا عمـــل ورعاية وحماية، ولا اندماج في مجتمع يدير للإنسان ظهره!

دعنا في المهم يا حبيبي يونس، نتذكركم في كل مناسبة وغير مناســـبة، في كل لقمـــة نضعها في أفواهنـــا متردّدين بمضغها أو لوكها، وفي كل مرة نضحك قليلًا، نقطعها ونتوقف عن الابتســـام خوفًا من لومة لائم أو تأنيب الضمير.

الطبيعـــة والمرابع الخضراء والســـواقي والأنهـــار والأهوار لم نرها في بـــلاد الرافدين إلا في دروس الجغرافيـــة والتعبير، هل تتذكر معلّم اللغة العربية عبد الحســـين الحمداني؟ الطويل القامة ذا الشـــفتين المتدليتين والنظارة السوداء، كان بارعًا في تدريس العربيـــة، علّمنا عبارات لم نكن نشـــعر بها، نصحنا أن نســـتعملها فـــي موضوعات مثل: "صِفْ رحلةً"، كنا نســـميها كلائش: ولبسَـــت

الأرض حلتها الخضراء متشـحة بأحلى الألـوان الزاهية، مرتدية أجمـل الأزياء، أو: أخذت السـيارة تنهب بنا الأرض نهبًا، بينما كنا نتطلع من نافذتها إلـى الأبقار والأغنام والخيول والدجاج والبط والنـوارس والطيـور الأخرى وعصافيـر الدوري فـي المراعي والمروج والبسـاتين العامرة بالنخيل المتفاخرة بأعذاقها، نشـم عبق الروائح الطيبة العطرة مع مهب الرياح الدافئة بشمس الربيع الساطعة، ووجوه الفلاّحات مبتسمة.

حلووو! هلو عيني! هلو داد، هذا شـلون نفخ! كنّا في الصف السـادس الابتدائي، وكان علينا أن نصف مناظرَ طبيعيةً لم نطلع عليها يومًا، بأجمل العبارات والألفاظ والصفات الجميلة الجاهزة!

بشـرفك انت شـفت مثل هـذه الطبيعة في بغـداد بحياتك؟ أنا شـخصيًّا لم أرَ أرضًـا خضراءَ، أقصد بسـاتين وغابات غنّاءة وأشجارًا باسقة في بغداد إلا ما ندر، مثلاً في منطقة صدر القناة ومقبـرة الإنجليز أو الأتراك، لم أعد أتذكر، كنا، المفروض ندرس فيها، وأشجار الكاليبتوس في شوارع بغداد القديمة، مثل الوزيرية والصرّافية وراغبة خاتون، وطبعًا كورنيش الأعظمية وبيت المميّز على الشط، كنا نسبح فيه وكاد يغرق فيه أحد زملائنا نوري النحيف الصُغيّر "الزعيجون"، لولا أن أنقذه صاحبه صباح، هل تتذكر تلك الحادثـة؟ والعطيفيـة، الله ما أجمل تلك الظـلال في الظهيرات القائظة، وفي حدائق منازل يسكنها ناس محظوظون!

ولا أزال أتذكـر مدى فرحـي عندما زرعـوا "الثيّل" الأميركي الأخضر في السـبعينيات على "سفحِ" سـدّة ترابية كان يمر عليها القطار ما بين أكاديمية الفنون الجميلة والجسر الصغير قرب كلية التربية ودار الكتب في بغداد، تحول لون التراب إلى أخضر جميل زاهٍ غمرني بالسعادة.

يا ترى هل لاتزال سدّة القطار خضراء؟ عشرون سنة تفصلني

عنها، منها ثماني سنوات حرب مع الجارة إيران!
لا أزال أتذكر هذه السدّة الخضراء، أحنُّ إليها كلما أشتاق إلى أمّي.

****

عزيزي يونس!

نخلة چاسبية بائعة قيمر العرب (القشطة)!

لا يمكــن مقارنة الطبيعة هنــا بما هو موجود عندنا في بغداد، يؤســفني أن أقول لــك إني ومثلي آلاف الشــباب، لم ننعم برؤية بســاتين ديالى الجميلــة ولا الموصل الحدبــاء أم الربيعين، ولا مصايف صلاح الدين، ولا جبالٍ في كردســتان، مشهورة بجمالها، ولا بادية السماوة، سمعنا عن الصيد فيها من الآخرين صدفةً، ولا أهوار الجنوب العامرة بالأســماك وطيور الخضيري المهاجرة من أطراف الدنيا، لكن الحمد لله لم أرَ أراضيَ قاحلةً جرداءَ ســبخةً أهلكت أصحابَها الطيبين كالحــي الوجوه وحولتهم إلى "لاجئين" فــي بغداد، لكنها لا أعتقد تختلف كثيرًا عــن عاصمتنا، المحترقة بشمســها، بل "شوتها شــويًا" والحرارة تنبعث من أسفلتها وترابها، ولــم تبقِ لا على ماء ولا خضراء ولا وجه حســن ولا هم يحزنون. لكني أعشقها وسأبقى أصرخ بغداااد، بغداااد!

****

يوم أمس التقيتُ بشــاعر عراقي شــاب، لكنه "آيل" للسقوط، طالَــت فترة انتظاره هنا مــن دون أن يحصل على الإقامة، متعب نفســيًّا، إنه مناضل البابلي، اسم على غير مسمّى، حزين ويائس، غســلَ يديه من العراق وحكّامه، كان يســخر مــن أحد العراقيين المتحمســين، قال لمناضل: "آه لو كانــت الأمور بيدي لخصصت مكافأة أو أجرة شــهرية لكل مَن يزرع شجرة فيها ويسمّيها باسمه ونصدر لها بطاقة خاصة بها ويسقيها بنفسه، مثلا كاليبتوسة دحّام

وعبّودي!، نخلة چاســبية أُم اللبن! أو نخلة چاسبيّة المعيدية بائعة قيمر العرب (القشــطة)، تَصوّرْ، هل يبدو الأمــر مضحكًا؟ "والله شــوف عينك" إذا مو كل بغداد صارت خضراء؟ ستحصل منافسة شديدة بينهم ويحمى الوطيس!" ويبدو أنه طاب له أن يراني أيضًا أتطلــع إليه، أصغي إليــه بصمتٍ واحترامٍ وعينــاي مبحلقتان به، استمر يقول:

"آخ لــو أصير أمين العاصمة، "أسَــرفُن" رداني أو أشــمّر عن ساعديّ وأمشي بملابس العمال"، أجمع القمامة بيدي، عمل شعبي مرة في الأســبوع، نعم، اسمه عمل شعبي بس أسوّيه إلزامي، اللي يعجبه أهلًا وسهلًا وأعطيه مكافأة، واللي ما يعجبه ما نسمّي باسمه ولا حتى شجرة قَوَغ! لو تشتغلون لو ماكو! أخلّي بغداد تزهي، أبني مترو، وأفتح شــوارع عريضة محاطة بالنخيل والأشــجار الباسقة و"داير مدايرها" نافورات أحلى من الشــانزليزيه الفرنسي! هاآآ، لعَد احنَه وحّد؟! اشناقصنا؟ اشمالنه يا خويه؟".

كلام جميــل وصحيح ورومانســي! وأنا أيضًــا كانت لديّ هذه الأمنية منذ الصغر، لكن يا خســارة ما عمّرت الحارة! والدي كان أيضًا يتمنّى الأمر نفسه، لكن هيهات! مجرد أحلام وردية في عالم الصراعات!

ألا يبدو كل هذا الحر على ملامح وجوه العراقيات والعراقيين؟ ألا تلاحــظ أن بشــراتنا تفتقر إلــى النضارة ونحــن كنا في عز الشباب؟ "أنت لِسّه شاب صُغَيّر!" كما يقول يوسف وهبي أو نجيب الريحاني، هل أنا قاسٍ يا يونس؟ هل أنا حانق أو غضبان؟ أبدًا أنا منفعل ومشتاق لبلادي وحزين عليها، لماذا لا تتطور؟ كل الشعوب صار براسها خير إلا نحن! "إلا أنت، إلا أنت! إلا أنت!"، أعتقد هذه أغنيــة قديمة لمحبوبتك نجاة الصغيــرة: "إلا أنت، فيها إيه الدنيا غيرك؟"، لا أدري إن كان هذا صحيحًا أم أني صرت أخلط الأمور

كعادتي، سامحني! ســامحني! "إلا أنت، فيها إيه الدنيا دِيّه...فيها إيــه الدنيا دِيّه...إلا أنــت؟ كل غالي يهون علــيّ إلا أنت..."، أيها العراق الحبيب، إلا أنت! إلا أنت!

هل تتذكر أحد أصدقائنــا من رفاق الدرب "نعمة"، حينما قال لــك: إنكم في رغد ونعيم تعيشــون، عندكــم حديقة وبيت محاط بالكاليبتوس، بينما أنا أســكن في غريفــة واحدة وصغيرة مع كل عائلتي، نحن نســتيقظ في الصباح يوميًّا على روائح المياه الآسنة مقابــل بيتنا، تزكم أنفاســنا في الليل ونفتح عيوننــا على مناظر بائســة وكالحة متشحة بالسواد، يا عزيزي أنت في حقيقة الأمر لا أخي ولا زميلي ولا رفيقي، أنت عدوي الطبقي!

والله حَقّه، لولا تنكره لِصدقاتٍ تقبّلها من زملائه البرجوازيين أعدائــه الطبقيين عندما مرّ في أحلــك الظروف! ومع ذلك نَطقَ كلمتــه الأخيرة وبدا الحقــد على نظراته رغــم محاولته إخفاءها بابتسامة باهتة بلهاء وشفتاه ترتجفان على أنياب كأنه ضبع سائب في البراري، بل وحش كاســر، شــرس من الضواري، قال مُداريًا الموقف: "نعــم، أنت رفيقي، لكن لازم نتعلــم فن الحقد الطبقي ونتأكد من انســلاخكم مــن طبقاتكم! وهذا ليس لــه علاقة بكم كأشــخاص"، يا له من جاحد! هل تتذكره، نعمة هذا كان يســاريًّا متزمّتًا بامتياز لدرجة أنك بالذات كنت تســميه "نقمة"، لا يختلف عن الكثيــر مِمّن يطلقون عليهم اليوم تســميات مثل المتطرفين والأصوليين والمتشــددين والسلفيين، كان يمكن أن يكون جهاديًّا، كان ينــادي أيضًا بالجيفاريــة ونظرية خلق البــؤر الثورية، أفلح هذا الخط فــي كوبا بينما وُئدت حركتُه وقُتــل قائدُه جيفارا في بوليفيــا بعد أن خانه فقراء جاء ليحرّرهــم! ما الفرق بين هذين النهجين؟ اليســاريون ذهبوا إلى إســبانيا دفاعًا عن الجمهورية، والجيفاريون إلى بوليفيا لتصدير الثورة، والجهاديون اتجهوا إلى

أفغانستان ليســاندوا فئة ضد أخرى ولينصروا إخوتَهم في الدين ضــد الملحدين الروس. يعنــي إذا كل واحد يعطي الحق لنفســه سيصبح العالم غابةً! كلّهم مناضلون!

أجل، هكذا كان صديقنا المسكين نقمة، عفوًا أقصد نعمة، فقيرًا متحمسًــا ولبقًا ومحدّثًا، مقنعًا في حواراتِــه ولديه كاريزما، لكنه كان مثل بعــض رجال الدين "الموامنة" منظّرًا اتكاليًّا، "عِشــتي" يعيش على الآخرين، بل "عَلَقة" يعتاش عليهم، يشكو الفقر والعوز، لم يجرب مرّةً أن يمسك المعوَل بيديه ليكسب خبزه بعرق جبينه.

أتذكّرُ أني أجبتُه بأنك زرعتَ الأشجار بيديك هاتين النحيفتين يا رفيقي، لِمَ لَمْ تَقُمْ الشــيء نفســه أمــام بيتكم؟ من يمنعك من القيام بذلك؟ لم يجبني ولم ينبس ببنت شفة، بل اكتفى بالنظر إليّ محركًا يديه حائرًا ماذا يقول، وابتسامة صفراء ترتسمُ على شفتيه! وســبحان الله كان نعمه اسمًا على غير مســمى، أول المنسحبين المنبطحين المتطوعين للخِسّــة والحِطّة والنذالة والعار والتعاون مع الأجهزة، من دون أن يجبره أو يضغط عليه أحد. نقمة!

أصلًا، لم يكن لدى هذا المســخ ما يبيعه غير الغدر، ولم نكن لنغضب عليه لو تعرض للتهديــد أو الوعيد والترهيب، ناهيك عن التعذيــب، لكن أبدًا لم يحدث مثل هــذا الأمر لصاحبنا "الهمام"، كان يتبجح بالبطولات ويدّعي ما ليس به، ويزايد علينا بتنظيراته.

نعــم، لم نكــن لنغضب ولا نحقد عليه لــو اكتفى هذا المأجور الوصولي المسكين بتغيير فكره وموقفه منا، لكنه تطوع، بل تمادى وتفنــن ليلحق الضــرر والأذى بالآخرين مــن دون أن يطلب منه أحــد ذلك. أجل هذا هو نعمة المزايد، يتميز بأســوأ مفردات تبدأ بالخاء: أول الخاسرين وأسوء الخاسئين وأذل الخانعين والخائبين والخائنيــن لقضيتنــا، كوفِئ فيما بعد وفجأة بزمالةٍ دراســيةٍ إلى بريطانيا، بينما كان الآخرون يتعرضون للضرب والحبس والإهانة،

ومــع ذلك لم يتردّدوا في النضال من أجــل أهله الفقراء، لطالما ادّعى نعمة الانتماء لهم. هل هذا ميســوبوتامي كما كان يتمنطق ويزايد ويتبجح؟ هل ينتمي هذا التافه الدَّعِيّ إلى ما بين النهرين؟ أي مفارقة هذه؟ هل تتذكر كيف أهنّاه واحتقرناه وهشّمناه، عفوًا أقصد همّشناه، عندما عاد من بريطانيا إلى العراق؟

كان يتصور أننا سنســتقبله بالورود، أو سننسى فعلتَه السوداء، لكننا لــم نحقد عليه في دواخلنــا بل أهملناه، والله أنا شــخصيًّا كنت أعطف عليه، ركنته في زاوية "الكراكيب"، بل شــطبت اســمه ومسحته ومحوته من ذاكرتي، اجتثثته، تمنيتُ له أن يحقق سعادته الشــخصية كما يريد، لكــن بالتأكيد ليس على حســاب الآخرين! الكلاب تنبح والقافلة تسير!

سَوْرري! سَوْرري! آسف عيني آسف! آسف على هذا الاستطراد المتشائم! لكن الثوري المبدئي، آسف حبيبي آسف، أزعجتك بهذه القصة السلبية!

****

باص "الأمانة" الأحمر، "أبو الطابقين"!

اليــوم كنت في البريد. أرســلتُ لكم طردًا وزنه عشــرون كيلو "فقط لا غير"! إن شاء الله يصلكم سالمًا غانمًا منعمًا من دون أي غارة. وأنا في الحقيقة ممتن لموظفي البريد العراقي، يوصلون كل شيء مضمونًا ويسلمونه كاملًا، كما أخبرتموني. هذه فعلًا خصلة لا نجدها إلا عند أغنياء النفس الميسوبوتاميين الأصيلين الغيارى. أنا حقًّا فخور بسعاة بريد العراق، يجوبون الشوارع بدرّاجاتهم ليسلّموا الأماناتِ إلى أهلها، أعتقد أن هؤلاء بقايا الرافدينيين النَّشامى.

بالمناســبة أنا وأصدقائي دائمًا نتذكر هذه المؤسسة بإيجابيةٍ، كانــت تقدم خدمــاتٍ بريديةً ممتازةً، حدّثني هنــا أحد موظفيها القدامى بفخر واعتزاز عن نظامها وأسلوب عملها، أتذكر رسائلي

وطرودي البريدية، كنت أبعثها لكم أيام الدراسة من خارج العراق، كانت تصلكم كاملةً.

أمـــا أمانة مصلحة نقل الركاب فحدّثْ ولا حرج، آه كم أشـــتاق لبـــاص الأمانة الأحمـــر، بالذات "أبو طابقيـــن"، تميزت بها بغداد في الشرق الأوســـط. مؤسسة مدنية عريقة ســـاهمت في تطوير العراقيين وحققت مبدأ "المدينةُ تُطوّرُ الإنســـانَ"، شـــبكة خطوط ومواصلات لم أجدها في البلـــدان العربية الأخرى. علامة بارزة في تطور العراق المدني وظفت آلاف العمال والمســـتخدمين من كل أنحاء بلاد الرافدين.

أرفق لكم مع هذه الرســـالة قائمة بمحتويات الطرد، سيصلكم قريبًـــا، وهي علـــى العموم ملابـــس و"فيتناميات"، عفـــوًا أقصد فيتامينات، وأدوية و... إلخ من "تفاتيش" القلوب، كما كانت جدتك تقول. إنسانةٌ رائعةٌ!

هل تتذكّر كيف كانت جدتك تسمي اليمن؟ "أمن"، عندما سافر أحـــد جيراننا إلى اليمن للعمل كمدرس، كانت تقول: "راح للأمن"، ونحن نلاشـــيها ونضحـــك! وبالمناســـبة كانت هي أيضًا ســـعيدةً بمزاحنا معها، أليس كذلك؟ أجمل شـــيء أتذكره عنها أني ســـألتها في إحدى المرات:

_ بيبي اشـــلون كنتم انت وجدّو الله يرحمه؟ كنتم مثل الشباب بالأفلام؟ يعني هَمْ...؟

ردّت على الفور تلوك بالكلمات:

_ اسكت لَك، عيب!

ثم أردفت مبتسمةً:

_ ليش احنه وَحّد؟ كلّه شـــيل وبطح على الســـطح! وغرقت في ضحكتهـــا، بس مو مثل الأفلام يقعدون من الصبح... بلا ما يفرّشون أسنانَهم!

وأطلقت العنان لضحكاتها وصدرها يخرخش، عقبت متنهدةً ماطّةً شفتيها السمراوين:

ـ ربي ضحكة خير، راحت الأيام الحلوة، سـودَه عليَّ، راح عند ربه!

لـم نكن نتحدث عـن مثل هـذه المحرّمات إلا مـع العجائز وبالصدف، شـويّه، شـويّه، مثـل ناقوط الحِبّ! هـل تتذكر كيف كنـا نتحيّن الفرص ونتلقّفها؟ أنت كنت تجلب سـجاير اللّف لهن، وأنا كنت متخصصًا بالبسـكويت! كلها "رشوات" لسماع قصصهن ومغامراتهن عن الحُب بالأقسـاط، بينما هنا كل شيء مسموح به، طبعًا هناك حدود أيضًا.

****

الصيف هنا جميل كما أسلفتُ، بالذات عطلة نهاية "الإزبووع"، مثلما يقـول المصريون، أو الويك إند، تـرى الناس هنا يقودون دراجاتِهم شـبابًا وشيبًا، نسـاءً ورجالًا مرتدين أزياءهم الجميلة: النسـاء يلبسـن السـراويل، و"الجِماشـة" أو الفيزون الملتصقة بالجسـد المثير، تبرز مفاتنـه، والتنانير القصيـرة، ألوان زاهية كالأحمـر والأبيض والأرجواني، مسـكينة المرأة العراقية، سـواد بسـواد، باستثناء الجامعات، كانت أفضل مكان لعرض الأزياء في السـبعينيات! لكن محافظ بغداد آنئذ وشـرطة الآداب كانوا لهن بالمرصاد، حتى الشباب الخنافس لم يسلموا منهم!

ماعـدا ذلك فالدنيا عندنا كلها سـوداء، ومع ذلـك أتذكر أن سائقي سـيارات بغداد كانوا يلصقون على مركباتهم قطعًا صغيرةً مكتوبًا عليها "الله جميل يحب الجمال"، و"القلب يعشق كلَّ جميل" و...إلخ.

لكن، انتبه، "مو كل أصابعك سـوه"! المسيحيون المورمونيون وشـهود يهوه الأصوليون هنا يختلفون قليلًا عن الناس العاديين،

إنهم يؤمنون بالحشـــمة، يلتزمون بالتقاليـــد الدينية، لكنهم أقليّة. وهل هناك أجمل من العباءة العراقية الســـوداء؟ الســـواد يســـبي العبـــاد! إنها حقًّا جميلة، لكنها تحتـــاج إلى بعض "التنقيحات"! أنا أحب العباءة، تراث جميل بس عايزها شـــوية رتوش، خلّني ساكت أحسن! وأتذكر أغنية "يا أم العبايه لِبسي عباتك!".

إذا تطلعـــتَ إلى وجـــوه الدنمركيين هنا يوم الجمعة فستشـــعر بها فَرِحَةً مســـتعدة لعطلة نهاية الأسبوع، يســـرعون إلى منازلهم مشـــيًا وبدَرّاجاتهم وسياراتهم، مشغولين بحياتهم اليومية السلمية الســـليمة، إلا أن بعـــض العاطليـــن بمن فيهم بعـــض اللاجئين أو الأجانب القادمين الجدد إلى هذه البلاد من "البلدان الدافئة" أو "البلدان غير الغربية" لا يشعرون بهذه العطلة ولا يفهمونها، إذا لا يذهبون إلى العمل ولا الدراسة في الأيام العادية.

هـــؤلاء الغرباء الجدد، ليس كلهـــم طبعًا، ممن لم يحصلوا على عمـــل فـــي بداية حياتهـــم هنا، قد يشـــعرون بأن "أزعَـــجَ" الأيام بالنسبة لهم هو "الويك إند"، أطفالُهم يبقون في شققهم الصغيرة المخصصـــة لعائلات عدد أفرادها لا يتعـــدّى الأربعة، تصور كيف سيكون الوضع إذا كانوا ثمانية!

لكن قســـمًا آخرَ منهم مشـــغول طيلة أيام الأســـبوع في العمل ليـــلًا نهارًا! وأجانب آخرون لا يختلف وضعهم عن أهل البلد، يعني كل واحـــد وظروفه! أرجـــوك لا تفهمني غلط! أنا لا أحب التعميم، تعرفني جيـــدًا، ولا التعتيم ولا التكميـــم، أُعطي كلَّ ذي حق حقه، أحاول ولا أدعي الكمال! لستُ "رب الكمان"! كما كان والدك يردّد!

هنا، في الدنمرك، أحيانًا ترى العائلة كلها خارجةً في نزهةٍ: الأم والأب والأطفال أو الجدة والجد، في الغابات والشـــوارع النظيفة، يقودون درّاجاتِهم مبتســـمين رافعين رؤوســـهم يحيّون الآخرين: هاي! هاي! شـــعب الهاي، بالذات عندما تشرق الشمس، فخورون

ببلادهم وطبيعتهم وإنجازاتهم وديمقراطيتهم وأسلوب حياتهم، صارَ كما يبدو لي أشبه بالدين، يحبون التظاهر بطقوسه مثل الحديث عن الجو والضرائب وإشعال الشموع وترتيب المناديل الورقية الزاهية وكؤوس الماء والبيرة والنبيذ الأحمر والحب في المساءات الهادئة.

قد يأتي شخص آخر، ويفسر هذا الأمر بطريقة سلبية كأن يقول عنهم إنهم أنانيون مشغولون بحياتهم اليومية وغرائزهم ورغباتهم ودنياهم، وقد يزيد إنسان آخر فيقول لك: "مصيرهم الجحيم لأنهم ملحدون وكفار"، وهذا هو أخطر ما يمكن حصوله بين الشباب الأجانب لا سمح الله، تكفير الآخرين ونبذ الحياة الاجتماعية مع أهل البلد الأصليين!

قسم من هؤلاء الشباب الغرباء بمثابة قنبلة موقوتة، يحتار السياسيون والمتخصصون اليائسون بكيفية دمجهم في المجتمع ودرء خطرهم عليه. الله يستر من القنابل الموقوتة!

أما اللاجئون الجدد فأغلبهم، أو قسم منهم، اعذرني، لا أعرف كم هي نسبتهم، خاصة في بداية حياتهم هنا، لا يختلطون كثيرًا مع أهل البلد المنظمين المقولبين، المبرمجين، "الباردين"، البيتوتيين، وتصوراتهم عنهم غير دقيقة وغير أصلية، وإن سألتَ بعضَهم عنهم، أقصد عن المواطنين الأصليين، يجيبك: "شمعة وكأس نبيذ وحبيبة!".

هكذا يختصر بعضُهم انطباعاتِه عن أهل البلد. كل شخص يرى الأمور من زاويته!

صحيح، إن العتمة والشمعة جزء من ثقافة الإسكندنافيين، ويجيدون هذا الاسترخاء بهذه الطريقة، لكن ليس قبل أن يهدّهم التعب وينجزوا كلَّ أعمالهم. الدنمركيون عمومًا مشغولون بحياتهم اليومية، وأوقاتهم مليئة بالمواعيد كلٌّ بحسب ظروفه، وبالذات

مَــن لديهم أطفال. وبمــرور الزمن يصبح اللاجئــون الموظفون والحرفيون منهم، مثل ســكان البلد الأصليين بل أكثر، مشــغولين غير مكترثين بالعلاقات الاجتماعية الواســعة. هؤلاء يصبح وقتهم من ذهب، والحمد لله، يعملون ليلًا ونهارًا.

العمل هنا أهم شيء! من لا يعمل لا يأكل! هذا شعار الاشتراكية، وهنــاك أناس لا يعملون، ومع ذلك يأكلون من الإعانات، لكنهم لا يحسُّون بطعمه كما يقولون أحيانًا!

في الصباحات الباكرة الشــتوية القارســة البرد ترى الشــابات والشــباب من طلبــة الجامعــات والثانويــات وتلاميــذ المدارس وأغلب النــاس هنا يقودون درّاجاتهم متجهين صوب مؤسســاتهم التعليميــة وأماكن عملهــم، الأمهات والآباء يضعــون أطفالهم في المقاعد الخلفية، يســوقونها في ممراتها المخصصة لها بســرعة لا مبالين بالســيارات طالما أنهم يلتزمون بقوانين المرور، يتوقفون عند اشــتعال الضوء الأحمر رافعين أياديهم اليســرى إلى الأعلى، وينطلقون عند الأخضر، يحركون أكفّهم اليمنى إلى اليمين إذا أرادوا الاســتدارة نحو هذه الوجهة وإلى اليســار إن رغبوا ذلك، لكن مع ذلك تحصل حوادث دهس الشــاحنات للدرّاجين، وبالذات التلاميذ الصغــار، وبخاصة إذا قادوها عكس الاتجاه. ليس هناك أجمل من رؤية الأطفــال الصغار يقودون دراجاتهــم معتمرين خُوَذَهم على رؤوسهم، متجهين نحو مدارسهم أو أماكن اللعب والرياضة.

وأحــب أن أقول لــك إن للدراجات هنا ســوقها الرائج، هناك العديد من محلات خاصة ببيعها وتصليحها، منها المحلي والمستورد والغالي والرخيص والمناسب والماركات الأصلية والتقليدية، وإلخ. "كل واحد يمد رجله على قد لحافه".

في كل مرّة أرى فيها جارَتَنا العجوزة هَينه، مثل اسم هناء من حيث اللفظ، تقود دراجتها مرتدية ألطف الملابس، متعطرة بأعبق

العطــور ووجهها مطلي بدهون الزينة أو ما يســمى الميك أب أو المكياج، أتذكّر العراقيات المسكينات يتسارعن نحو حتوفهن وهن لا يزلن في مقتبل أعمارهن.

أتذكر والدتي، أصبحت تشــكو من الشــيخوخة قبل الخمسين. وجارتنا أم حسين، بقيت أرملةً تتشح بالسواد منذ وفاة زوجها عندما كانت في منتصف الثلاثينيات منشغلة بتربية أطفالها الأربعة. هنا، حتى بعــض العجائز الوحدانيــات يبحثن عــن أزواج أو أصحاب وأصدقاء أو رفاق أو عشــاق أو أحباء وخلان، ومســاكنين، سَمّهم ما شــئت، هذا غير مهم بالنسبة لهنَّ هنا، المهم أنهن لا يُردن ولا يرغبن العيش لوحدهن، بل الاســتمتاع مــع الآخر في هذه الدنيا، المهم العِشــرة، وإلا فسَيَكْفُفْنَ عن الوجود وينشُدن الكفن والموت والخلاص من الحياة إن تحولت إلى جحيم. الناس هنا يبحثون عن الجنة في الدنيا وليس الممات، ومفاهيم الشرف والأخلاق مختلفة.

لو حدثَ هذا الأمر عندنا في العُرااااق كان كلهن "راحن سبعة ماي!" غسلًا للعار!

وطبعا عندهم الغانيات و"الدونيّات" و"المو زينات" اللي فيهن العيــب، يعني الدعــارة، "عُذَه، عُذَه!" العياذُ باللــه، أقصد بائعات الهوى! أستغفر الله، أستغفر الله، موجودة كما في كل مكان، وقد تكون رسمية، وقد يدفعن الضرائب، وهناك من يرى أنهن يؤدين وظيفةً اجتماعيــةً مهمةً وضروريةً ويقدمن خدماتٍ لبعض الناس بطريقــة قانونية مضمونة صحيًّــا! المنطق هنا يقول: "ليش لا إذا كان بعضهم يريد ذلــك؟ دَعهم يقومون به قانونيًّا تحت المراقبة والسيطرة، أفضل من الخفاء".

انتبــه يا يونس، أنا شــخصيًّا لم أقل هــذا، ولا علاقة لي بهذا الــرأي! أرجوكم لا تقوّلوني ولا تحمّلوني مســؤوليته! وغير مقتنع بالفكرة أبدًا!

فهل تعيش يا ترى نساؤنا، حسب قِيم الأوروبيين، في جحيم دانتي يا صديقي؟ لكن هل تتصور أن بعض هذه المظاهر مختفية عندنا؟ صدّقني، حسب ما يقال ويُشاع والله أعلم ما في الخفايا والصدور، إنها أيضًا موجودة، هناك نساء كبيرات في السن يتزوجن مع أحبائهن في الخفاء وبشكل مستور وغير معلن للجميع، تجنبًا لمفاهيم رقابة المجتمع. وهناك زواج الصيغة أو المتعة، صرنا نسمع عنه عندما أقمنا في الخارج، ولم يكن منتشرًا في العراق كما يُروّجُ له في بعض الأماكن، و"المستَجعَدات" المساكِنات وبنات "الكاوليّه" الغجريات، وهناك في بعض المدن القوّادات "المعلّمات"، أم فلان وفلان، الشهيرات باستقبال الرجال في بيوتهن البغدادية، وطبعًا العُرفي والمسيار في بلدان أخرى. يَمعوّد، كلشي عندنا موجود جوّه العباء ومدستَر، بس من نريد نحكي بالتدين والشرف ماكو أطول من ألسنتِنا!

هذه كلها أساليب "احتيال" أو "تساهل" أمام التشدد ضمن سياسة غض النظر والتسامح، أو شيء من "المدنية" من قبل الحاكم، الدين يُسر لا عُسر، ولم نسمع برجم الزانيات ولا العاشقات، اللهم إلا غسل العار.

العنف ضد النساء في الغرب له تاريخ و"فنون" قاسية لا تقل عن الشرق! إي والله "مفيش حد أحسن من حد"!

هنا، في الخارج، تُرتكب أيضًا جرائم غسل العار بين بعض جاليات المغتربين واللاجئين، هذه هي حال الدنيا منذ الأزل. والعرب، طبعًا أكيد ليس كلهم، بل بعضهم، كان لديهم قبل الإسلام تقبّل لوجود متحررات، مسافحات ومخادِنات، بل حتى بائعات هوى معروفات ممن نصبن الرايات الحُمر على خيامهن، ومنهن ظهرن إلى العلن على قارعة الطريق شبه عاريات الجيوب والأثداء، يلبسن ملابسَ أو دروعًا وقمصانًا شفافةً، بلا أزرار،

فتصـــور! وهل تعتقد أن هذه الظاهرة اختفـــت لمجرد نزول الآية الكريمة "محصَّنات غير مســـافحات ولا متخذات أخدان..."؟ طبعًا لا، مثل أي مجتمع آخر، "خلِّ الطبق مستور!"، وأنا لا أريد أن أدسَّ أنفي في هذه الأمور! بس... مرات يصعب السكوت.

أجل يا صديقي، لم يكن المجتمع العربي قبل الإسلام شموليًّا، بل متعدد الألوان والأطيـــاف والأديان: اليهودية والنصرانية والصابئة والوثنية، وكانوا قبل نزول سورة الأعراف على نبينا الأكرم يطوفون حـــول الكعبة عرايا، والنســـاء يردّدن: "اليوم يبـــدو بعضه أو كلّه ... ومـــا بدا منه فلا أحلّه"، وهناك أنـــواع متعددة للنكاح، مثل الزواج المؤقت، والمقت حيث تورَث الزوجة بعد موت بعلها، ونكاح البدل، أي تبادل الزوجات، ومن يقدم زوجته للضيف، ونكاح الاســـتبضاع، ويقـــال إنَّ هناك حتـــى الآن جماعات هنا وهناك تســـمى "عَبَدة الفروج"، والعهدة على الرواة، وقد تكون مبالغات. اقرأ عنها وستجد معلوماتٍ كثيرةً عن هذه الملل والنِّحَل. هذه هي اعتقاداتهم، ماذا سيفعلون لهم؟ هل يكفّرونهم ويعزرونهم ويقتلونهم رغم أنهم آمنوا بالإسلام، لكنهم حافظوا على رواسب تقاليدهم القديمة.

اســـتغربَ أحدُ المبشرين الأمريكان من هذه القصص، وفوجئ عندما أخبرته أن الدول العربية يعيش فيها ناس غير مســـلمين لم يتم "اجتثاثهم" منذ ظهور الإســـلام، قال لي هذا الأميركي الطيب بنبرةٍ مســـتهجنةٍ: ألا تعتقد أنه أمر جميل أن المســـلمين لم يقوموا بالتطهير العرقي والدينـــي كما فعلنا نحن مع الهنود الحمر حيث أبدناهم و"طهرنا" أميركا منهم؟!

اندهـــش الأميركـــي لحســـن ضيافتنا لـــه، بدأ ينظر للإســـلام بإيجابيةٍ!

قبـــل يومين قال لي أحـــد معارفي، التقيتُه صدفةً في شـــارع كوبنهاجـــن، كان عصبيًّا يتحدث بصوتٍ عـــالٍ كعادته معاتبًا إياي

كأنما أنا المسؤول عن مأساته، فتح الموضوع معي بلا إحم ولا دستور، يعني بلا مقدمات ولا مقبلات، وكان الدنمركيون الهادئون يتطلعون إلينا، وهُم يمشون في ممر المشاة نفسه، أعتقدُ أنهم تصورونا نتخاصم، حاولتُ أن أبتسم لهم قدر الإمكان عسى أن أغير انطباعهم عنّا، منشغلًا بمسح رذاذه المتطاير على وجهي: "يا أخي نحن أصلًا لا نتحدث بصراحة عن التابوهات، أقصد المحرمات، وهذا هو الخطأ، أصبحنا نفهم الأمور؛ إما أسود أو أبيض، وكل شيء له علاقة بالحب ممنوع، مسموح الغناء عنه، كتابة الشعر عنه مباحة، وهل هناك أكثر شعرية ورومانسية من الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني أو ألف ليلة وليلة أو نزار قباني؟

أغانينا كلها شجن، هيام، غرام، ولع، وَلَهٌ وشغف، لكن لا علاقة حب معلنة، قبل الزواج! أو لا تُجاهر بها، الحب ممنوع والعتب مرفوع!

وديع الصافي يطربنا في أغنيته: "الحب هالحرفين، مش أكثر، الله يرضى عليك يا ابني، خذ ليلى بنت ضيعتنا، ترتاح معها ولا تتعبني"!

وتابعَ يقول: أنا شخصيًّا لم أرَ يومًا والدي يمسك يد أمي، فتصور! ولهذا نستغرب ونتعجب اليوم، بل نستهجن عندما نقرأ عن طقوس الاحتفالات بالأعضاء التناسلية مثلًا في الدول المتحررة مثل أوروبا واليابان، حتى في الحضارات الفرعونية والسومرية لا نأتي على ذكرها!".

حاولتُ أن أبدي رأيًا موضوعيًّا لأهدّئ من روعه وأبدّد أحزانَه، العمر قصير، ويمكن أن يُصاب المرءُ بجلطة أو ذبحة قلبية أو سكتة دماغية لا سَمح الله، لكن هيهات، منعني ماسكًا يدي قائلًا: "أرجوك لا تقاطعني، خلّني أكمل فكرتي، والله العظيم أنا أتذكر أن أحد زملائي عندما كنا في الثانية عشرة من عمرنا أو أكبر

بقليل، لم يستوعب العلاقة الجنسية بين والديه قائلًا: (مستحيل، هذا حرام، إشدَتحكون؟ سرسريّه!) وصرنا نضحك عليه، بينما توردت وجناته كأنه فتاة عذراء تأتيها الدورة الشهرية لأول مرة في حياتها! سبحان الله!".

أردتُ التعليقَ على فورته، لم يسمح لي، ودّعني مستعجلاً كعادته، قال ضاحكًا: "المهم أفرغتُ ما في جعبتي! فوّخت قلبي! فشّيت خلقي! مثل ما يقول الشوام. إلى اللقاء يا صديقي".

تركني راكضًا نحو الحافلة! ابتسمتُ وضحكتُ متمتمًا بين نفسي: مجنون! مخبّل! كويلات! كما يقول العراقيون! هذي هي حال الدنيا!

هل تتذكر المرحوم سعيد؟ قُتل فيما بعد في الحرب مع إيران، عرفتُ ذلك لاحقًا، وقتها كنا، أولاد المحلة، في السبعينيات نجلس في الشرفة، أو حديقة بيتنا الصغيرة، كان صاحبنا سعيد اسمًا على مسمّى، يمزح كثيرًا ولا يكف عن السخرية، نناديه باسمه:

_ سعيد!

يجيبنا مبتسمًا: "يا ريت"، يقصد يا ليت هو سعيد حقًّا في حياته. وكان والدي يكن له حبًّا جمًّا ويتعامل معه كما لو أنه ابنه. كان سعيد مربوعًا مفتول العضلات، مائلًا إلى السمرة، مُجعّد الشعر قليلًا، فيه "رِس عبوديّه" كما يُقال، ما أقبحه من قول! كنا نناديه "أبو سمره!"، وكانت جارتنا الطيبة العجوزة المحبوبة بيضاء البشرة أم عبد الأمير الشيخلي تقول له عندما تراه عندنا: "اشلونك؟ "دَيّووس"، ذاك اليوم ليش ما درت لي بال لما طلبت منك تروح تشتري لي جكاير؟".

يُنكّسُ رأسه خجلًا منها متمتمًا بصوتٍ غير مسموع:

_ سامحيني حَجّيه أم أمير، والله ما سمعتك! آني خادمك خالتي، خاله، أي شي تحتاجين آني بخدمتك، حاضر ببطن

عيني، تدلّلين خاله أم أمير!

قالت له مبتسمةً، تنظر إليه بحنان الأم إلى ابنها:

_ عَفيه وليدي، اشـلون لسـان حلو عنده! عسل! سلّم لي على أمّك.

تصور! إننـا العراقيون نتفوه بكلماتٍ مثـل: "ديّووس" التركية ومرادفتها ديّوث، و"قوّاد" بكل أريحية وودية! فظيييع!

سَأل سعيد والدي ذات مرة ممعنًا النظر فيه:

_ عمو، كنت تدخن؟

_ إي، نعم بس تركته لأنه مضر جدًّا

_ عمو والشرب؟ كنت تشرب في الشباب؟

_ لا، في الحقيقة مرة واحدة ولم أسـتذوق البيرة لأنها مرّة، لا أفهم لماذا يحبونها!

أجاب والدي بفخر واعتزاز

_ طيب عمو كنت تدور قح.....ا...ب؟

سـأله سـعيد متلفتًا هنا وهناك كأنه يسـتعد للهرب في الهواء اللافِح، إذا تعرض للضرب أو الهجوم الكاسح!

_ لَكْ، اسكت، عيب.

قال والدي محاولًا السـيطرة على ابتسـامةٍ أصـرّت أن تبقى مرتسمةً على شفتيه، بينما غرق الجميع في الضحك.

_ طيب، طيب عمو جاوبني بصراحة: أي حياة هذه؟ هذه جحيم!

وواصل الجميع ضحكهم، لكنه في حقيقة الأمر استدرك قائلًا:

_ عمـو هذا كلّه مزاح، بربّي إحنه طول الوقت نحلف براسـك ونقول: يا ريت نصير مثلك، أنت كلك أخلاق وشهامة!

يونس!

أعتقـد أكتفي بهذا القدر، على أن أكتب لك مرة ثانية رسـالة بغير مقدمات مهلوسـة ولا دوخة راس، وكما يبدو لي أنها مقبولة

ومعقولــة بفضــل اختصاراتي وتعديلاتي لها، وغيــر مصدّعة كما تصورت، أليس كذلك يا صاحبي؟!

طبعًا يعجبنــي أن أحدثك كما طلبتَ مني عن الحياة هنا، مثلًا عن بعض الاحتفالات بعيد الميلاد المجيد والسنة الجديدة وأعياد ميلادهم الشــخصية، إذ يتحدثون عن كل الأمــور بحرية للمزاح، ويوزعون الهدايا، وعن هدوئهم والمســابح وتحميم الأطفال من دون أن تحترق عيونهم بالصابون كما هي الحال عندنا عندما كنا صغارًا، هل تتذكــر كم مرة بكيت في الحمّام من الرغوة الحارقة وكيف كانــت أمهاتنا يفركن وجوهنا ويؤنبننــا أو قد يضربننا إذا كن متعبَات كالعــادة وأمزجتهن رمادية "غير فســتقية"! وعمومًا كيف تتعامل الأمهات هنا مع أبنائهن بالطرق الجميلة الهادئة مثل الغناء والضحك والتحادث معهــم وتربيتهن لهم منذ صغرهم، أو منذ "نعومة أظفارهم" كما علّمنا مدرس اللغة العربية. وســامحني مرةً أخرى على الأسلوب الفوضوي والمزاج الانفعالي والانتقالات، رغم أني شطبت وعدلت وشذبت الكثير منها.

بلى، لا بدّ لي أن أحدثك في المستقبل عن موضوعاتٍ خطيرةٍ يُواجهُها الأجانب هنا، بالذات "ربعنا" من العرب والشــرقيين مثل تربية الأطفال، الفرق بين الأولاد والبنات، والتعليم الجنســي في المدارس، والصــور العارية والأفلام الإباحيــة ومحفزات الجنس متوافرة أينما تذهب، ومن الصعب كبح غرائز الشباب.

وعن انتقال الأبناء من بيوتهم عند بلوغهم 18 ســنة، وهو سن الرشــد، ويسكنون في مساكن الشباب، ويســتلمون منحةً شهريةً، ومعاملة المرأة، الرجل والمرأة هنا يتقاسمان شغل البيت مناصفة.

أما ما هي الحرية الجنســية؟ "اســكتْ وخلّها"، حرية لا يقدر عليهــا إلا الذين نمَوا وترعرعوا عليها هنــا منذ الصغر، والأجيال الجديدة لها ثقافة خاصة بها، هم يقررون أغلب أمورهم الشخصية

والآباء لا يربونهم كما تربّــوا على الأجداد، كما هو الحال عندنا. مَــنْ منّا لم يقــرأ: "لاعبوهم ســبعًا وعلّموهم ســبعًا وصاحبوهم سبعًا"، وقولًا آخرَ كنا نقرأه في الكتب المدرسية: "لا تربوا أولادكم كمــا ربّاكم آباؤكم؛ فإنهم خُلقوا لـزمــان غير زمانكم"، لكن هذا كلام نظري وبس، حكي بحكي! نظريًّا كل شــيء عندنا تمام، لكن العبرة بالتطبيق! المشــكلة أن الغربيين يبالغون في إعطاء الحرية للأطفال، بينما يضيّق الشــرق أوســطيون الخنــاقَ عليهم، الناس يريدون حلًّا وسطًا في تربية الأجيال الجديدة.

أعتقد أن هــذه القضايا على غاية الأهميــة، لا يمكننا التطور والنمــو من دون فتح النقاش حولها وحســمها والحديث عنها بلا محرمات؛ "لا حياء في الدين"، وإلا ســنبقى نراوح في أماكننا أو نرجع إلى الوراء، وعندها فعلًا سيكون الطمر مصيرنا!

أو كما يقول السومري:

لازم "نطمُّ نفســنا طمًّا" واسْــلَيمَه التِطُمنا! وسامحني يا أخي يونس على هذه الخاتمة المتشائمة، وما ذلك إلا حُبًّا بكم.

وتحياتي إلى الجميع!

أخوك المحب

(الدنمرك، آب/ أغسطس 1992)

****

رسائل من زمن الحصار لكاتب مجهول

الرسالة الثالثة:

كل شيء يتم حله بسوء التفاهم!

على الطريقة العراقية!

(تشرين الثاني، نوفمبر 1992)

أخي وعزيزي المحترم يونس..

تحية طيبة

أكتب لك وأنا جالس فـــي غرفتي الصغيرة العالية! أتطلّعُ إليكَ من خلال النافذة. لا أرى غير تساقط الثلوج، أجساد بشرية صغيرة معلقة في الهواء، تهبــطُ متمايلةً بهدوء مثل المظلّيين، تعاني من البرد الشديد، ومع ذلك بعضها يبتسم لي كالبشر ملوّحين بأياديهم غيــر مباليــن من النزول من عــلٍ، أو يبقون معلقيــن في الهواء تعصف بهم الرياح العاتية.

الطقس بارد والشــتاء طويل وجامد، ومــرت أيام من الأمطار والعواصــف الثلجيــة. الناس هنــا يتحدثون عــن الكآبة في هذه الأشهر المعتمة القارسة البرد، إنه في الحقيقة ليس قاسيًا كما كنا نسمع عنه أيام الشباب!

ولا يهمك لازم نحاول ونســعى، لن نيأس وعند الشدائد تُعرف الإخوان! ليس هناك جديد يُذكر تحت الغيوم، ولا قديم يُعاد. أهم شــيء عندنا هو أن تكونوا بخير، أموركم واضحة، تتحســن رغم الحصار. ازرعــوا الثوم والبصل والقثاء والعدسَ وكلوا من طيبات الأرض الســومرية! إنها لعبة بل خدعة كبيرة أكبر من السومريين لتجويعهم وإذلالهم وتدميرهم!

ما على الإنســان حيثما كان إلا تأمين غذائه ودوائه، فلا حرية لشعب يستوردُ أكله وشربه من وراء البحار!

هل تتذكر منظمة نمور التاميل ضد الحكومات الســريلانكية؟ هناك ضغط شــديد لإقالة وزارة باول شلوتر السياسي الدنمركي المحافظ بسبب قضية لاجئي التاميل السريلانكيين! صحيح الخبر إيجابي، يكشف فضيحةً كبيرةً وهي إخفاء متعمد لطلبات لم شمل عائلات النمور السريلانكيين وإهمالها! كيف يمكن أن يحدث هذا الغش والســلوك العدواني ضد أناسٍ فقراء مســاكين يعانون من الاضطهاد والفقر، ينتظرون في ســريلانكا لم شملهم مع معيليهم اللاجئين فــي الدنمرك؟ أين الديمقراطية والقانون؟ مجرد تبجّح بهما، كما يقول بعضهم.

****

إذن لا يحق لمؤسســات الدولة أن تطالــب المواطنين بالكف عن الغش الاجتماعي إذا ما كان السياســيون محتالين، أليسوا هم القدوة؟ طبعًا هذا ما يكرره ممارســو الغش الاجتماعي، "ماء بارد ونزل على قلوبهم"، نعم، أُثلِجَتْ صدورُهم! كأن لسان حالهم يقول: مو بَس احنه نغش! تُعد قضية التاميل مثل فضيحة "وَتَرغيت"، ويقال إن هناك آلاف الوثائق ستفضح حزب المحافظين الدنمركيين!

ســئمنا وتعبنا من ســماع الأخبار المســائية اليوميــة، يعيدون ويصقلون بهذه القضية كالأســطوانة المشــروخة: قضية التاميل! قضيــة التاميل! وفــي النهاية أميط اللثام عنهــا: اتّضحَ أنها أكبر فضيحــة، بل جريمــة نكراء لا تُغتفر! أنــا بصراحة صدمت للغاية وشــعرتُ بأن الأرض تميد من تحت قدمــيّ، وأني يجب أن أعيد حساباتي بكل مفاهيمي وسلوكي وطبيعتي الشخصية المتقلبة بين الإيجابية والسلبية، غالبًا ما تميل الكفّةُ نحو الأولى.

هل جــاءت فضيحة قضيــة التاميــل لتؤكد ســقوط المبادئ

والمثـل العليا؟ هل هذه وخزة في جسـدي، بـل صفعة كي أكفَّ عن السـذاجة والثقة بالسياسـيين، وبالـذات المحافظين عندما يحاولـون أن يتحدثوا بعقلانيةٍ وموضوعيةٍ مبتسـمين متظاهرين بالتواضـع والحرفية والتلقائية أحيانًـا؟ يا لها من وصمة عار في جبين المتشدقين بالديمقراطية!

يـا تـرى، أيعقـلُ أن يتـواءم المغتربون مع بعـض "رفاقهم" اليساريين الدنمركيين، المتعاطفين مع اللاجئين والمغتربين!

أنا بالتأكيد أتفق معهم في بعض القضايا الإنسـانية والفكرية، وأختلف معهم في دعايتهم الحزبية وشعاراتهم الانتخابية الرنّانة وسياسـة إدماج يدعون لها! هم أيضًـا يدعون للتأقلم، لكنهم في داخلهم ينشدون التماهي والانحلال في المجتمع الجديد!

وأحب أن أقول لك في هذه المناسـبة، إن هؤلاء السياسـيين هنا أيضًا متحزبون ووصوليون، لا هَمَّ لهم غير أصوات الناخبين، يتخاصمـون ويتلاسـنون ويتناكفـون ويعـارض بعضهـم بعضًا، يتصارعون على السلطة ويجيدون النكايات والمناكدات.

أمزجتُنا ليست على ما يرام. تصعيد إعلامي كبير ضد الأجانب وبالذات المسـلمين. هناك متشـددون من كل الأطراف يريدون تسميم الأجواء، ويَلقَون الدعم القانوني من كل مكان!

أنا أعرف أنك لا تحب سـماع مثل هذا الكلام السـلبي، لكني بصراحـة مُتعَبٌ من الإعلام في هـذه الفترة، وبالذات بخصوص مسلمين يشعرون بالضغط والرفض.

على اللاجئ العربي مسـلمًا كان أم مسـيحيًّا، أو الشرقي من الأقوام الأخرى هنا، بذل أكبر جهدٍ لأنسـنة نفسـه وإثبات قدرته على العمل، بالذات إذا كان متعلمًا وحسّاسًا وحاصلًا على شهاداتٍ عليا يتميز فيها عن الآخرين.

حتى الأطباء لا يحصلون على العمل بسـهولةٍ، بل عليهم اجتياز

امتحانات كثيرةٍ، قد تأخذ منهم عدة سنين، كونهم درسوا في دول أخرى. سيصيبك الضجر إن تماديتُ وأصررتُ على هذا الحديث، لكــن قد لا تصــدق إن أخبرتك بأنه من الصعب فَهم كيف تســير الأمور، وأن الإنسان الأجنبي المتعلم هنا يُصاب بالإحباط لإهمال المجتمع له والبطالة. لكنك إن ســألت شــخصًا دنمركيًّا عاديًّا عن ســبب ذلك فسيجيبك بكل بساطة: اسمك "غلط"، أو لأنه "حسن"، يقصد لأنك مسلم.

أما إن ســألت أجنبيًّا متوترًا فسيلخص لك الأمور بالعنصرية، وأن هــؤلاء القوم يتظاهــرون بالقانون والديمقراطيــة، لكنهم يضمرون الحقد الدفين على المسلمين ويتقصدون التهميش. أعتقد هذه مجرد آراء. في النهاية كل شخص وحظه وحسب علاقاته وجهوده الشخصية.

أنا أميل إلى الموضوعية وأضع نفسي مكان الآخر، أنا ضد التعميم، لكن بعضهم يتحدث عن قوانين غير مكتوبة، تطبق ضد الآخَر.

هُــمْ، مــن ناحية يطلبــون من اللاجئيــن العمل ونبــذ الغش الاجتماعــي، ومــن جانب آخــر لا يوظفون أصحــاب المؤهلات العلمية حسب اختصاصاتهم، لحجج كثيرة واختلاف ألوان بشراتهم وأســمائهم! يصعب عليّ تصور ذلك، لكن قد يبدو الأمر لاختلاف الثقافة وحاجز اللغة وطبعًا الخوف من الآخر!

بالمناسبة، سألتني في رسالتك الأخيرة عن "الغش الاجتماعي"، يقصدون هنا بهذا المصطلح مَن يســتغلون القوانين للاســتفادة الماديــة، مثلًا حالة الطــلاق الوهمي، إذا انفصــل الزوجان في المحكمة فســيعيش كل منهما في شــقته، عندها ستحصل الزوجة على زيــادة مالية في دعــم كل طفل، فتخيّلْ كم ســتبلغ الزيادة إذا كانت العائلة مكوّنة من خمســة أو عشــرة أطفــال؟ وإذا كانا يســتلمان إعاناتٍ ماليةٍ أو متقاعدين فسيحق لهما الحصول على دعم السكن أو الإيجار.

هذا هو القانون، يسري على الجميع، إلا أن الإعلام يركز على هؤلاء الناس المساكين الصغار، وهم فئة صغيرة من القادمين من الفقر المدقع والمآسي والنكبات، والعقوبات "الكفخات" من كل حدب وصوب، والشحّة والقحط والجدب والضغط، ممّن لم يستوعبوا تنسّم هواء الحرية وتعدد الإمكانيات لتطوير أنفسهم. لكن بعضهم كما يبدو "أذكياء" في اقتناص الفرص و"الاحتيال" للكسب المادي السريع واستغلال ثغرات القوانين الاجتماعية الأوروبية المسنونة أصلًا لأناسٍ عيونهم شبعانة وليس لبشر مضطهدين مصابين بالشراهة والحرمان ولا يشعرون بالأمان ويأخذون بلا عطاء، أصبحوا "يتخبّطون".

والنتيجة أنهم صاروا سخريةً لبعض أهل البلد الأصليين المهنيين المحترفين مثل الأطباء والمشرفين الاجتماعيين، في جلساتهم الخاصة، لكنهم يعاملونهم باحترام وفق القانون كزبائن ليس إلا.

دعنا نتفاءل ونتحدث عن هذه الأمور فيما بعد وإلا ستزهق مني.

أهم شيء، لا أريدك أن تتصور أن الرفاهية هنا يحصل عليها المرء مجانًا، هذا بلد كافح أهلُه من أجل حياة جميلة يستحقونها، فيهم الطالح والصالح، ومن حقهم أن يخافوا على مكتسباتهم من الإرهاب والتطرف والتشدد الديني والأصولية والتخريب.

وهم لا يفكرون بالعبادات أو رجال الدين الوسطاء بينهم وبين الخالق، من أجل "حجز مكان لهم في الجنة" كما يتندرون، بل يخططون لبنائها هنا في بلادهم ليعيشوا فيها قبل اصطفائهم من قبل الباري عزَّ وجلَّ إلى العالم الآخر. قرأتُ اليوم مقالًا، أنقلُ لك مقطعًا منه:

****

"إنك لتشعر بالحيرة عندما ترى عيون الدنمركيين القلقة المرعوبة أحيانًا، تراقب من نوافذ الحافلات أو سياراتهم، متابعةً

حركاتِ بعض المسلمين يمشون زرافاتٍ زرافاتٍ بدشاديشهم البيضاء القصيرة ولحاهم الطويلة في شوارع كوبنهاجن، وبالذات بعد أدائهم صلاة الجمعة وخروجهم من الجوامع. تذكّرْ، بين هؤلاء شباب دنمركيون (أصليون) شقرٌ بيضُ الوجوه، زُرق العيون، اعتنقوا الإسلام.

لا شيء خطير في هذا الأمر، أناس يؤدون طقوسَهم وشعائرَهم الدينية! والإسلام ككل الأديان يدعو للتسامح والمحبة والأخوة! هذا صحيح لو كان كل شيء يتم بقبول حقيقي من الآخر، وبالذات أغلبية سكان البلد الأصليين، ومن دون صراخ وزعيق ودعوات للتكفير أحيانًا!

صار بعض الناس يقول هنا وهناك: لا يوجد أي تسامح في الإسلام؛ إما أن تكون معي وإلا تدفع الجزية صاغرًا أو تُقتل!

أين أخلاق المحبة والتسامح، تنادون بها وأنتم تتقاتلون فيما بينكم وتمارسون العنف في حياتكم؟ يا أخي والله نحن محرجون ولا نعرف كيف ندافع عن أنفسنا، لا أخفيك أن أغلب المسلمين هنا ينقلون تساؤلاتٍ تقلقهم، لكن ما عساهم يفعلون؟". إنها موجةٌ قويةٌ متصاعدةً!

****

والإعلام! آه من الإعلام، إنه يتربص بكل هفوةٍ صغيرة أو كبيرة! ينشرون من لبنان صورَ أناسٍ ملتحين رافعين قرائين وهراواتٍ فيها مسامير! يهددون من؟ ولماذا استخدام العنف؟ وإلى أي طريق سيؤدي هذا؟ كل هذا لا علاقة له بالإسلام الحقيقي الوسط. وصار الإعلاميون يترجمون خطب بعض الشيوخ و"أدعيتهم" على الآخرين، اللهم العنْ والعنْ، ونعتهم الآخرين بـ"الكفار"!

"نحن كفار؟" هكذا صار بعض أهل البلد الأصليين يتساءلون، ضع نفسك مكانهم، هل ستقبل بهذه الصفة؟ هل ستفرح إن نعتك

الآخرون بالكفر؟ وهل هذا هو الدين المتسامح المسالم؟ أنت تأكل وتشرب مِن خيراتِهم، من ضرائب فُرضت على مبيعات الخنازير والخمر والقمار والدعارة، بينما تنعتهم بالكفر، أنت الطارئ عليهم!

والأنكى من ذلك، يُشاع أنّ صحافيين حصلوا على تسجيلات لأناس يشرعنون فيها الغش الاجتماعي. إنها بالتأكيد مجرد إشاعات!

مَنْ تكون أنتَ كي تنصّب نفسك حَكَمًا على الآخرين، وبالذات على من آواك وأطعمك وكساك وأنقذك؟ لستُ أنا من يطرح مثل هذه التساؤلات يا حبيبي يونس، بل الطرف الآخر يقوم بذلك في اللقاءات والاجتماعات والمحاضرات والدراسات والمقابلات والمقالات، بكل هدوء وبلا صراخ وزعيق! من يدري، قد يقولون على هذا النوع من الناس "شحاذ ويشارط" أو "نِزِل ويدبك فوق السطح"!

طبعًا هؤلاء أيضًا فئة صغيرة من الغلاة، دعاة التشدد باسم الدين، لكن صوتهم عالٍ، الصحافة تركز عليهم وكأنها تنقل خبر "الرجل عضّ الكلب"، وليس العكس! وتريدهم أن يكونوا ظاهرةً صوتيه تخيف بها أهل البلد، وهذا أمر طبيعي! هذه هي اللعبة السياسية مثل شد الحبل! "آني أجر وأنت تجر وانقطعت السماعة!"، هل تذكر كيف كنا نردد هذه اللازمة في طفولتنا؟

****

والمشكلة اليوم، بل الطامة الكبرى، أن بعض مؤسسات الغرب ومعاهده السياسية والجيوسياسية والإثنوغرافية والأنثروبولوجية مشغولة هذه الأيام بصناعة عدو جديد يخططون له للعقود المقبلة.

إنهم يعتمدون على رد الفعل، وليس هناك أفضل من الإسلام وأصلح منه كعدو جديد، بدلًا من الشيوعية الساقطة. يا له من مرجل خطير يغلي أشد الغليان!

ومع الأسف الشديد ليس هناك أكثر من بعض العرب والمسلمين

حنكــة ودهــاءً وبراعــة وتفننًا وأســاتذةً في تحويــل أصدقائهم وحلفائهم إلى أعداء لهم، والانقياد للآخرين رغم معرفتهم بشعار "فرّق تسد"، من السهل اتهامهم بالإرهاب.

لا أريد أن أقع في فخ نظرية المؤامرة، أنا أساسًــا لا أؤمن بها على طول الخط، ولســت من الذين يؤمنون بأن قادة المتطرفين يقيمون في واشنطن أو يتدربون فيها! كما يقول بعض "عباقرتنا"، ومع ذلك لســتُ ساذجًا. وأنا مضطر أحيانًا للتفكير بهذه الطريقة لا سيّما أن الشعوب المسلمة ترغبُ في التحرر والانعتاق من النِّير والعبودية، تعاني من التخلف والمآسي والشعور بالغبن والمظلومية والناستولجيا، يعني الحنين إلى ماضٍ كلّنا نتصوره كان دائمًا وأبدًا جميلًا نقيًّا كما هو مدوّن في كتب التاريخ المدرســية، ليأسنا من حكامنا الظالمين وحكوماتنا الفاشــلة، ويعلــم الله وحده إلى أي طريق ستؤدي هذه السياسة.

أمــا ماكينــة الصحافة، فحــدّثْ عنها ولا حرج، تضــخ المواد المضخّمة والصور المعبرة المعادية للمســلمين، وليس هناك أكثر خبرة وتفنّنًا منها. كثيرًا ما تســمع المســلمين والعرب هنا يرددون في جلســاتهم الخاصة: علينا أن نغير أنفسنا، "**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**"، هل هناك أوضح من هذا الكلام؟ لماذا لا يطبّقونه؟ يعرفون ويحرفون؟ إنه في غاية البساطة، لكنه يحتاج إلى جهد وجهاد حقيقي وعمل ومثابرة ونكران الذات قولًا وفعلًا، وليس التظاهر بالتدين لكســب المــال والجاه والارتزاق. علينا إذن كما أخبرتك سابقًا يا عزيزي أن نعمل بأيادينا ونستخدم الدراجــات ونوفر المال والوقت، ونربــي أطفالنا على غير تربية آبائنا لنا، هُم من غير جيلنا. ليس بالكلام وحده تنهض الأمم!

هــذا هو أهم مــا يقلقني من أمــور، وأنا علــى عكس أصحابي الآخرين من المبدعين الوجوديين المحبين الرافضين لكل شــيء،

أتقاسمُ الهمومَ معهم أحيانًا في جلسات السمر، لست لا أدريًّا أو عبثيًّا غارقًا في الذاتية لا أفكر بهموم مجتمعي، رغم بعض هلوساتي وسوداويتي ومزاحي ومزاجي المحبط المطعّم بسخريةٍ لم تتفهمها، أو لنقل: لم تتقبلها ولم تستوعبها وانتقدتها، وأعطيك كل الحق، لا سيّما أن ظروفك قاسية، فمن السهل أن يكون المرء بطلًا بعيدًا عن ساحة الوغى! لكنك تريدني أن أكتب لك عن قضايا صغيرة: الرواتب وأجور العمّال وما يكسبه الناس، وتطلب مني أن "أسحبك" كما تقول، تريدني أن أعمل لك لم شمل، وكما أخبرتك بأنه ليس لي الحق قانونيًّا بذلك، وقد استفسرت عن هذا الأمر أكثر من مرة.

صدقني، هذا هو جوابهم النهائي، وإذا كنت تلمّح إلى طرق أخرى، سامحني، جرّبتها وتورطتُ ووقعتُ في المحظور، ليس لي منها أبدًا، أنا مشغول بعائلتي، ثلاثة أولاد وبنت، أربع قنابل هورمونية! ولا أريد أن أسلك طريقًا أعوجَ يضعني تحت طائلة القانون مرة أخرى، وأرجو ألا تظن الآن بأني أخبرتك عن استقالة الوزارة الدنمركية لفضيحة اختفاء قضايا لم الشمل، لئلا تكرّر طلباتِك مني حول هذا الأمر.

****

كذلك سألتني غير مرّة عن أهل البلد، وأجيبك مرة أخرى، الناس هنا ليسوا ملائكةً ولا شياطين، ولا يمكن وصفهم بالأسود والأبيض، عمومًا هم مهذبون مؤدبون مجاملون طيبون متواضعون ممازحون، يحبون اللعب بالكلمات وما بين السطور، بالذات في الأعياد والصيف إذا أشرقت الشمس، إذ سترى الابتسامات على وجوههم، مسالمون، يساعدون الضعفاء وبالذات اللاجئين، ويعاملون المسلمين منهم خير معاملةٍ، على الأقل غير عدوانيين، ومنهم حبّابون للغاية ويتأسفون على تعامل العنصريين السيئ مع اللاجئين والمغتربين.

طبعًــا هناك من يقــول عنهم إنهم يتظاهــرون بهذه الصفات الجميلة، لكنهم حســودون وغيــورون ومنهم منافقــون أفاقون، بالذات بعض السياســيين، أنا لا أدّعي معرفتي بهم، قد يكون أننا نلتقي بمتعاطفين معنا، بناسٍ طيبين يحبّون عملَ الخير، بيساريين أمميين يســاندوننا، كل شيء نسبي، إنهم، أو قسم منهم، تعبوا من اللاجئين والوافدين المتعبين نفســيًّا، ضَعْ نفسَــك مكانَهم، تصور أن يأتــي آلاف الأشــقاء في العِــرق والدين لاجئيــن إلى العراق ويحصلون على إعاناتِ مؤسســاتٍ اجتماعيةٍ عراقيةٍ من دون أن يؤدوا أي وظيفة!

فكيــف الحــال إذا قــدم الهنــود لاجئيــن إلينا؟ انظــر إلى الفلسطينيين في لبنان، إنهم محرومون من التوظيف والعديد من الأعمال بحجة عدم التوطين.

نســبة كبيرة من الأجانب هنا لا يستوعبهم سوق العمل الرسمي، هم رسميًّا مسجلون عاطلون عن العمل أو مرضى، وهذا يسبب أزمة اقتصادية ويؤدي إلى مشاكل اجتماعية يتناولها الإعلام يوميًّا، كأن تسمع باستمرار عن مشاكل التلاميذ من ذوي اللغتين في المدارس ورياض الأطفــال، أو الجرائم والاغتصاب مــن قبل كبار وأحداث مراهقين ســمر الوجوه، رغم أن الإعلاميين يدّعون أن الخوف من اتهامهم بالعنصرية يمنعهم من تغطية كلِّ ممارسات اللاجئين.

ســيُقال إن هذا الإعلام معادٍ للإســلام وأثّر سلبًا على نفسيات المسلمين، بل حتى المسيحيين العرب والشرق أوسطيين.

****

لا تستغرب إن رأيتَ مسيحيًّا عربيًّا يتذمر كثيرًا من كراهية بعض أهل البلد للأجانب هنا، أما الجيل الجديد من الشباب فهذا أكثر ما أخشى عليه ومنه اليوم. عجبًا ماذا سيحدث بعد عقد أو عقدين من الزمان؟ ماذا ســيحدث للجيل الثاني والثالث والرابع من اللاجئين

والمغتربين؟ يا أخي إنهم، ليس كلهم بل نسبة ملحوظة منهم، وبالذات الأولاد إذ ينغمرون أثناء فترة مراهقتهم بغرائزهم، يرافقون أصدقاء السوء، يتورطون في المخالفات والتجاوزات والجُنح والجنايات ثم الجرائم، ويصبحون من أصحاب السوابق. أو إذا كان الشاب منهم متزمّتًا يختلف تمامًا عن الآخرين في مظهره وملبسه ومسلكه، وقد يتحول بعضهم إلى التزمّتِ فيصبح شيخًا ملتحيًا يرتدي العباءة ويلقي التحية مثل المسلسلات الدينية التاريخية كأنه يعيش في القرن السابع "السلامُ عليكُم يا سادة يا كرام!".

باختصار، هؤلاء أيضًا ليسوا أكثرية، وفي الحقيقة أن أغلب اللاجئين ينتقدونهم ويفضحونهم إذا ما أساؤوا إلى سمعتهم. لكن الإعلام كما ذكرتُ لك سابقًا يُسلَّطُ عليهم كثيرًا، وقسم منهم غير قادر على التأقلم والتكيّف لتقلّب أوضاعهم النفسية، ولا يريدون الابتعاد عن مجتمعاتهم القديمة أو التخلّي عن تقاليدهم ويرفضون الاندماج، لا مانع من التكيف قليلًا عند الضرورة في المجتمعات الجديدة بالنسبة لهم، رسميًّا لا أحد يطلب منهم الانسلاخ والانحلال والتماهي، لكنهم يخشون الذوبان لعدم ثقتهم بأنفسهم وبالسياسيين. مللتُ وكرهتُ مصطلحاتٍ سبّبت لي الصداع اليومي.

الحل الأفضل بالنسبة لهؤلاء طبعًا هو الادعاء بشيء ليس هناك أسهل منه: أنا ربي هداني وتبتُ، أساعد الآخرين، "بالكلام طبعًا"، وأتسلّمُ الإعاناتِ من البلدية لأني عاطل عن العمل، لأني مسلم لا يوظفونني في أي مكان، هؤلاء المسؤولون عنصريون!

أليس هناك أبسط من هذا الحل أو التبرير إذا كان المرء متأزّمًا غير مستقر، يعاني من الكآبة والكرب أو الرُّهاب وجنون العظمة أو انفصام الشخصية، له سوابق، لا يحصل على براءة الذمة أو عدم المحكومية من الشرطة والمؤسسات الرسمية؟ كيف سيحصل

إذن هذا الشـخص على وظيفـة في نادي الأطفال مثـلًا إذا كان من أصحاب السوابق؟ من يدري؟ قد يصلح حال هؤلاء المراهقين عندما يكبـرون وينضجـون ويتحمّلون مسـؤوليات الحيـاة، وإلّا سيكونون أثمن هدية تقدم لليمين المتشدد إن لم يتم إصلاحهم.

****

أجـل، هُم، أقصـدُ أهلَ البلـد الأصليين أيضًـا لديهم القومي والأصولـي والمحافظ والليبرالي واليسـاري، "مو بَس أنتم"، لكن ضمن قانون يحرم العنف. هنا، نادرًا ما تسمع تهديداتٍ مثل: "آني إلك! أو "آني أعلمك!" والصراخ والزعيق لأتفه الأسـباب كما هي الحال عندنا مثلما تصوره المسلسـلات التلفزيونية العربية، "يا ما احتفالات تحولت إلى مآتم"!

هناك صنفٌ آخر من الأجانب المسالمين يكوّن الأغلبية، عرب وكُرد، فُرس وتُرك وباكستانيون وهنود من أديان أخرى، مسلمون، مسـيحيون، وصابئة مندائيون وبهائيون ومجوس وهندوس وسيخ و... إلـخ، يريـدون العمل والإقامة هنا بسـلام والاسـتفادة من امتيازات الاسـتقرار والضمان، لكنهم، المسـلمون منهم بخاصة، يشـعرون بأنهم مقبولون بالقانون، مرفوضـون مجتمعيًّا، يعانون من ضغـط المجتمع والغربـة وإلحاح المؤسسـات بلجاجةٍ على أسطوانةِ الاندماج.

إنها ذريعة لتهميشـهم أو رد فعل على تصرفاتِ طفيليين كوّنوا صورةً سيئةً عن شعبهم وساهموا بشكل غير مباشر في زيادة عدد العنصريين أو المعادين للأجانب، في الحقيقة للمسلمين.

والإعـلام، أقولُها وأكررها، آه ثم آه غير مرة من هذه الماكينة الخطيـرة، تصب الزيت على النار وتصطاد في الماء "العِكر" كما يقول أهل السودان، أما السياسيون، المتشددون منهم بالذات من كلا الطرفين فيسمّمون الأجواء ويتكلمون بلغةِ "نحنُ وهُم".

الناس الوســط المتسامحون الاعتياديون هم الأغلبية الساحقة والصامتة، مغلوبون على أمرهم، واقعون بين المطرقة والسندان، بين حانة ومانة! هذا هو ملخص الصورة! إنها ليســت قاتمة لكنها تحتــاج إلى هِمّةٍ على الطريقة العراقيــة: "تريد تريد العِزّة تريد، لَمّة ناس وشَدّة إيد!" ولا أدري إن نقلت لك هذه الرَّدّةَ صحيحةً أم خاطئةً، فأستميحك العذر!

من كان يغني هذه الأنشــودة؟ أعتقــد أن المطربَ ريفيٌّ كان يغنيها واقفًا بعباءتِه وشــماغِه السومري الأســود والأبيض ماسكًا بسبحتِه بين كفيه، أليس كذلك؟ ما اسمه؟ كنا نسخر منه إلا أني أراه اليوم على غير ذلك، صوتُه رائع وشجي وحنين مليء بالأحاسيس، أها تذكرت اسمه، أعتقد جواد وادي وزميله عبد الواحد جمعة! لم أسمعها منذ عقود!

أرجوك أخبرني صحيح أم خطأ؟ صوّبني إن كنتُ مخطئًا!

ســامحني على هذه الانتقالة "النوعية" في ســردي، أنت تعرفني أكثر من الآخرين، أقلب على كل الموجات وأخلط الجد بالهزل! ههه!

أما بالنســبة لعلاقتكــم مع عائلة الرجل المســن أبــو نمير... فالظاهر، فعلًا، اتّقِ شــرَّ من أحســنتَ إليه! أو: "كل شــيء يُحَلُّ بســوء التفاهم!" بالطريقة العراقية، علــى قولة صديقنا الأريحي ســعيد، صدّقني ما كنتُ لأذكّرك ببعض الصغائر لولا إلحاحك في الموضــوع، وتعرف أنت كنتَ طوال عمرك، ويبدو ما زلت لجوجًا، "تلح بالسلاطة" كما يقول العراقيون.

هذا إضافة إلــى رغبتي في إزالة الغمــوش، أقصد الغموض، تصور، أنا في الأصل أردتُ أن أكتب الغشــاوة وحصل هذا الخطأ المطبعــي، المهــم أنا أقصــد الغموش وهي جمع بيــن الغموض والغشــاوة، وتفسير سوءِ فهمٍ حصل منكم، وأنا متأكد أن كلّ شيء طبيعي بالنســبة لهم، لا تنسَ، إنهم أصحــاب فضل علينا وعليكم،

الناس تطوّعوا بإيصال ما يمكن أخذه من هنا لكم، أين خطؤهم؟ لــم هذا الجفاء من قبلكم؟ أرجو إغــلاق الملف، وأنا لن أرد على مثل هذه الموضوعات الاستهلاكية الصغيرة لاحقًا.

هذه كلهــا تُرّهات! هذا هو الاختلاف بيننــا وبين الأوروبيين، هــؤلاء، ليس كلهــم بالتأكيد، يحلّون خلافاتِهــم بالحوار المتمدن أما نحن فتتدمر عندنا أكثر العلاقات حميميةً لمجرد ســوء الفهم والتفاهم والغيرة والحسد وانعدام الحوار، سبحان الله!

دعنا يا أخي ننشغل بالأمور الكبيرة. دع القلق والجأ إلى النوم! هل تتذكر تلك الكليشــة؟ مجرد عباراتٍ تقليديةٍ متكررةٍ، كنا نسخر منها! صدقني، نحن، صدقًا بأمسّ الكليشة إلى هذه الحاجة، عفوًا، أقصد بأمسّ الحاجة إلى هذه الكليشة.

يبدو أني تعبتُ من الكتابة، صرت أخلط بين الكليشة والحاجة، والحاجة أم الاختراع كما يقول المثل، والله يستر من "الجايّات".

أعتقد أني حقًّا أرهقتُ ولا أستطيع التواصل، سأتركها الآن على أمل العودة إليها، سأكملها لاحقًا.

وكالعــادة، كنت أتمنى أن أحدّثك عن احتفالات الكريســميس ورأس السنة ونصب أشــجار أعياد الميلاد المجيدة في الساحات الكبيرة مثل ســاحة بلديــة كوبنهاجن الشــهيره وتزيينها، لكن مع الأسف تعبت الآن.

****

رسائل من زمن الحصار لكاتب مجهول

الرسالة الرابعة:

"حُط المجادية بالسفينة، وكُلمَن عَدوّه قبال عينه"!

(كانون الثاني/ يناير 1993)

صديقي يونس!

اعذرني على انقطاعي! من حقك أن تعتب عليّ! لكن "أنا بإديّ إيه؟" كما تغني الســت في "فــات الميعاد"! مع ذلك، اعذرني عن التقصير، ســامحني، والله أنا أشعر بتأنيب الضمير، لكن الظروف تحكم، وأنا، كما تعلم أؤمن بالتغيير. صدّقني، يا أخي أنا كنت أود الكتابة إليك منذ عدة أيام، لكن الوقت غير وفير. كنت أريد الرد على رســالتك الأولى، تحدثتَ فيها عن أمورٍ كثيرةٍ وعويصةٍ، منها وضع روميو المزرى المرير.

أنا متأســف لحالته المرضية، بالتأكيد سيكون من الأفضل "لو جاء في الوقت المناسب"، إنه عنوان مسرحية قرأتها أو شاهدتها يومًــا ما، لكن فعلًا، لو جاء روميو إلى أوروبا للعلاج حيث تتوافر الظروف الأحسن، والآمَن والأغلى والأصعب، هذا حقه كما تقول، وأنا أشــاطرك الرأي، لكن كيف يمكن لنا أو لي عمل ذلك؟ سؤال صعب يحتاج إلى تفكيــر، طويل وعميق قبل الحصول على جواب وافٍ وشــافٍ، وأتفهّمُ موقفكَ وعتبــك عليّ، صدقني أنا لم أتأخّرْ في الرد عليك كثيرًا، لكنك متلهفٌ كعاشــقٍ ولهانٍ مستعجلٍ يترقبُ رسالةَ حُبٍّ من حبيبته كلّ صباح!

كان عليّ أن أستفسر لك عن الموضوع وأستقصي عنه من كل الجوانب وأحصل على المعلومات اللازمة، وهأنذا أكتب لكم، لكن

ليس هناك أكثر إزعاجًا من نقل أخبار غير سارّة لأناس لا يريدون سماعَها ولا يتحلّون بالصبر، أمرٌ صعبٌ ومزعجٌ للغاية! وأم كلثوم تغني: وصفوا لي الصبر، لقيته خيال وكلام! أجل لاحظتُ أنك زهقان وزعلان عليّ، غضبان وحمقان وتقول لي "أنا فَزكان" ولا أتفهم وضعكم تحت الحصار، وأني "بطران" أكتبُ لكم عن موضوعات غير مهمة، وأني لا أريدُ سحبَكم إلى هنا ولا أكتبُ لكم رسائلَ شافية وافية وكافية!

لكن أقسم لك بالله الواحد القهار الذي لا إله غيره بأن وقتي قليل للغاية، والشيء نفسُه يُقال بالنسبة لأية رسالة أتسلَّمها، فأنا لا أستطيع الرد على كل ما أتسلّمه من رسائل، ثم إنك تعرف بأن قراءتي وشغلي كله في دوخة الراس، أنت تعرفها، ويمكن، لو كنت تعيش هنا، لكان صار فيك نفس ما أُعاني منه الآن. وفوق ذلك، الجوابات تملّل وتطلع الروح، ثم إن شغلي يختلف عن اختصاصك، أنت تذهب إلى محل عملك وتقوم بواجبك وتأخذ حقك في الوقت نفسه، لكن الله يساعد هذا اللي لازم دائمًا يصير مثل الحصان الجامح وكتلة مشاعر ومجموعة مشاريع لا تنتهي، تأكل مخك في النهار والليل.

****

لاحِظ، إنّ حظّي، عفوًا أقصد خطّي، بدأ يسوء ويسوء، وأصبحتُ لا أطيق الكتابة بالقلم الجاف أو الناشف كما يسمّيه بعض "الأشقاء" العرب، ويبدو أنه مستحسن، ومن الأفضل استعمال قلم الرصاص، وهذا يدل على التعب، أنا عندما أتعب يصير خطي مثل خرابيش "البزّون" أو القط والهر "العِتوي". أعتقد أني سأتوقف عن الكتابة اليوم، على أن أعود إلى هذه الرسالة في وقت آخر، إي والله سأتركها على الطاولة. أعِدُكَ بأني لن أنساها ولن تغيب عني، "أنت في القلب! أنت الأول والأخير" هذه كليشة صديقنا روميو الله يذكره بالخير ويشفيه، كان يردّدها في جلساتنا.

أرجــوك بلّغه تحياتي، كلُّ أصدقائنــا الصعاليك هنا يخصونكم بالسلام. تصبح على خير، الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل، ولا أدري كم هو الوقت عندكم، ولا أعلم إن كنتَ الآن نائمًا وتستمع إلى الراديو كما كنا نعمل أيام زمان، وخصوصًا في السطح.

عزيزي يونس..

أعــودُ إليك أيهــا العزيز يونس لأكملَ هذه الرســالة "اليتيمة"، أردتُ في البداية رميَها في سلة المهملات، لكنها أبت إلا أن تبقى علــى قيد الحيــاة. أولًا أريدك أن تكتب لــي بالتفصيل عن وضع روميــو وما حصل بالضبط له، وطبعًا أهم شــيء صحته، ولو أني أعــرف أن هذا، بالتأكيد، صعب عليك، ســيكون من الأفضل له لو اســتطاع القدوم إلى هنا، لكن صدقني هذه أمور ليست بالسهلة بالنســبة لنا، ومع ذلك دعنا نحاول. وسأستفسر لك فيما إذا كانت هناك امرأة يمكن أن تتزوجه و"تســحبه" إلى هنا كما تقول، لكن لازم يكون لديها "حبل ســرّي" قوي وليس "خيط وبس"، بل سِلك حديدي، أو "ســلينك" رافعة، إننا لا نتســلّى بلعبة "جر الحبل"، قد يســقط أحد الطرفين إن لم يتعادلا وستكون كارثة، سنسعى أخي سنسعى، اسعَ يا عبدي وأنا أسعى لك!

أخــي يونس، يعنــي بصراحة مُــرّة، مريــرة وحارة كشــوربة "الحِريرة"، تعرف الحريرة المغربية؟ شــوربة يجب أن يتم تناولها ســاخنة حارّة حتــى تكون طيبــة، وذات مذاق وطعــم أفضل إذا أُضيفتْ إليهــا توابلها الخاصة الحادة، تكون حــارةً وحادةً. والله لا أدري لِمَ تذكرتُ الحِريرة، قد يكون الشــوق إليكم أو أمر آخر، لكن دعنا من هذا وذاك، أو قد يكون لأن مزاجنا ليس بالمستوى المطلــوب، وأحببــت أن أعبّر لك عن حالتنا النفســية، وكما يقول المثل: "اطرقْ الحديد وهو ساخن".

****

نحن غير مرتاحين هنا، نفكر باستمرار بمغادرة هذا البلد الآمن الجميـل، لكن إلى أين؟ لا ندري، هل تتذكّـر الدعاية التلفزيونية القديمة في الستينيات؟ كانوا يعرضون طفلةً صغيرةً بريئةً، ناضرةَ الوجه، جميلةً، باسـمةً، تقود سـيارةَ ألعابٍ صغيرة في الشـارع، وهناك من يغني: "شـوفوا البنت الصغيـرة الجميلة، وين رايحة؟ وآخرون يجيبون: ما ندري!".

ولا نعلم نحنُ أيضًا يا أخي وعزيزي ونور عيني، إلى أين نولّي وجوهَنا في هذا العالم المتسـارع نحو الحـروب والأهوال، مللنا الشتائم والسبابَ وتسميمَ الأجواءِ هنا، كرهنا أنفسنا كوننا عاطلين عن العمل.

هلكنـا من طـرق الأبـواب بحثًا عن الشـغل، لم نعـد نطيق الاستجداء والتوسـل والعيش على الإعانات الاجتماعية وأن نكون جنبًا إلى جنب مع "المعتّرين"، ولا أريد أن أسـمّيهم "الطفيليين" كما يحلـو لبعضهم، منهم من أهل البلـد، وآخرون جاؤوا من كل حدب وصوب.

لسنا ضدهم، لا نعاديهم ولا نحسدهم، قد نكون نغبطهم، إنهم فعلًا جاؤوا إلى هنا في الوقت والمكان المناسـبين ليعيشوا على بلدان "تسـببت" في بعثرتهم كحبـات الرمان. لنا حياتنا الخاصة، وهُم لهم ظروفهم عاشـوا فيها واعتـادوا عليها. هذا ليس مكاننا المناسـب، إنها عقوبة لنا أن نكون لاجئين، وكل شـخص يريد أن يكون لحياتـه معنى وأهمية. تعبنـا على أنفسـنا، ناضلنا، تعلمنا، درسـنا، أصبحنا مؤهلين لقيـادة مجتمعاتنا، وأي مواطن من هذا المجتمع لديه نصف ما لدينـا لن يقبل بحياة كهذه: "أكل ونوم يا مـال القوم"، كل ذلـك لأننا خرجنا من ديارنـا، لا نريد أن نفقد كل مقدارنـا، على الأقل نحافظ على نصفه الآخر! اليوم تسـلَّمتُ رسالةً من أحد معارفي ضمّنها مقالًا كتبه قارئ لصحيفة، أنقلُ لك

مقطعًا مؤثّرًا منه، يقول:

"لا أنوي أن أتكلّم عن نفسي كضحيّة، لكني مضطر، للاستفادة من تجاربنا... باختصار، أقول لك عزيزي القارئ، قبل عدة أيام اتصلتُ بشركة خاصة حول إعلان عن وظيفة، في المقابلة الشخصية أخذني المسؤول البدين بالأحضان، كان لطيفًا للغاية معي بحيث إني حقًّا استغربتُ وشككتُ بالأمر، أحسستُ أنه يسخر، لكن ماذا عليّ أن أقول له؟ التزمتُ الهدوء، تظاهرتُ باللامبالاة والبساطة أو السذاجة لأرى نهاية الموضوع، ومع ذلك سألته ماذا في الأمر؟ هل قبلتني بهذه السرعة؟ أجابني بطريقةٍ مسرحيةٍ، "طبعًا، طبعًا، كيف لا ولديك مثل هذه المؤهلات العالية الكثيرة، غدًا ستتسلّم مني رسالة".

في اليوم التالي لم أرَ أي شيء منه في صندوق البريد، البريد هنا سريع ودقيق ومضبوط "ضبط العقال"، يشتغل مثل الساعة، اتصلت به في اليوم الذي يليه، سمعتُ الجوابَ نفسه، أمّلني "ستتسلّم مني رسالة"، وهكذا حتى فهمتُ من أسلوب كلامه أنه يسخر ليس إلا، من أين له أن يحصل على هذه الهدية المجانية؟ أن يتنمّرَ على شخص يتفوّق عليه بما لديه من مؤهلات، و"ينصبَ" عليه، اتصلتُ به فيما بعد، أخبرتُه بذلك، ليفهم الرسالة، الآخرون ليسوا أغبياء كما يتصور، أو مسخرةً له، كان ردّه: "ستتسلَّم مني رسالة". قالها بصوتٍ خافتٍ ونبرة ندم طفل ارتكبَ خطأ، أغلقتُ الهاتف بعد توديعه بمزاح مبطّن وأدب.

إنه درسٌ كبيرٌ في حياتي لن أنساه أبد الدهر، والمؤمنُ لا يُلدغ من جُحرٍ مرتين! كما ينصُّ الحديث النبوي الشريف.

وقد تتساءل أيها القارئ من أين لي هذه التحليلات، وهنا أخبرك بأن لدينا أصدقاء طيبين من أهل البلد، وشخصًا رائعًا، طيبًا، صادقًا، يوضّح لنا بعض الأمور، يعمل مستشارًا في أحد مكاتب العمل، قال

لـــي بعد عدة أيام من إعطائه رقم هاتفه: إن هذا الشـــخص أصلاً شاب لا يحتاج إلى شخص مثلك، سنحتْ له فرصة فانتهزها ليمزح معك، لا تهتـــم له، لدينا مثله كما في أي مجتمع آخر، نصيحتي لك ألاّ تطلب العمل في مكان لا تعرفه جيدًا. نقطة، رأس ســـطر! يبدو أن صديقنا الدنمركي تحـــرّى عن هذا المكتب، قد يكون تكلم معه بوضوح، وربما اعترف ذلك الشخص له بأنه مازحني "مزحة ثقيلة"، ولكيـــلا أتأثـــر من الرفض فـــي كل مرة نصحني بـــأن لا أطرق كل الأبواب قبل التأكد مليًّا منها". انتهت رسالة القارئ!

الأجواء غير مريحة رغم ســـقوط حكومـــة المحافظين بفضل فضيحـــة التاميل، حكيـــتُ لك عنها، وهي إخفاء طلبات لم شـــمل عائلات اللاجئين الســـريلانكيين، تَصوّر أن القاضي قدم تقريرًا من ستة آلاف ورقة تدين وزير العدل نين هَنسن بخرق القانون!

أخي، الموضوع ليس بهذه البســـاطة، "شيل شوالاتك" وارحل، لازم يكـــون هنـــاك عمل وظـــروف تتقبل الإنســـان، وإلا فالنتائج ســـتكون وخيمةً، العتب على قادة بلداننا، رموا شـــعوبَهم بالتهلكة وجعلوهم شـــراذمَ يجوبون مجاهيل الدنيا، نحن لا نشعر بالسعادة فـــي بلدٍ جميلٍ آوانا واحتضننا وعاملنا خير معاملة إنســـانية، لكن هذه هي الحقيقة، أقولها لك وأنا في حالة نفســـيةٍ مريرةٍ ومتعبةٍ للغاية، أقلّه أني أعزل، لا أتمكن من "سحبك" أنت وروميو.

أجـــل، هذه حقيقة مرّةٌ تجعلنا لا نســـتمتع بجمـــال الطبيعة ولا ظروف الحياة وامتيازاتها ولا الشـــعور بالاستقرار، إننا باختصار، نشـــعر بالإهانة والذل والهوان والمرارة والحرقة كوننا لاجئين لم نحصل علـــى عمل حتى الآن، ولا نزال نعيش على إعانات البلدية. أمر مخزٍ بالنسبة لنا!

ذنبُنا أننا لســـنا منظفين، طباخين، "كبابجية"، "أسطوات بيزّه" أو حتـــى موزعيها، بقاليـــن، أو"فيترجيه" أو "بايســـكلجيه" عمّالة

بناء "مَسطر" كما نقول في العراق، يسمّونهم عمال "طِلبة" في السودان، أولئك الذين يقفون تحت حرارة الشمس الحارقة في بلداننا منتظرين اختيارهم من قبل صاحب العمل بأبخس الأجور كالعبيد، هذا ما أخبرني إياه أحد الإخوة التشاديين، يتكلم بلهجةٍ سودانيةٍ ساخرةٍ أعشقها، يبدو أنه تعلّمها منذ الطفولة، يقول: "هنا ما عندي يا زول وقت أحكّ راسي، طوال الوقت مشغول بالبناء، وكلّه أسود بأسود، معقول يا زول أنا أسود واشتغل أبيض؟ لاااا، خلّيها أسود بأسود، كده أحلى".

طبعا اختلفتُ معه، أخبرتُه نظرتي "الأستيتيكية" الجمالية، أن يكون الأسود مع الأبيض أحلى، خاصة إذا ابتسم وبانت أسنانه البيضاء، أجابني، "خلّي هذا الجمال ليك يا زول وخلّيني بنظريتي اللي أخذتها من أبويا، أهل البلد نصهم عاملين كده، أجي أنا أغيّر السكة؟ ليه؟".

هذا هو الحكي عيني، وأتذكر أني قلت له: يجوز عندك حق، "سبع اللي يعبّي بالسِّكَلّه رقّي"، لم يفهم الكلام، صار يستفهم، "إيه، شو قلت؟ سبع؟" قلت له ده مَثَل عراقي يا زول، يعني شاطر اللي يجيب نقش! شجاع، كالأسد اللي يدبر أموره، اللي يملأ السِّكَلّه بالبطيخ الأحمر اللي يسموه في العراق رقّي.

الغريب، إنه صار يضحك ملء شدقيه وأعجب بهذا المثل! سألني من أين كلمة رَقّي هذه؟ "عربية دي؟" أجبته، لا أدري قد تكون من مدينة الرقّة في سوريا، قد يكون هذا النوع من البطيخ الأحمر كان يُنقل من هناك إلى العراق! الله أعلم، هذه مجرد فكرة طرأت على بالي!

هؤلاء العمال الحرفيون كما ترى، يستطيعون تدبير أمورهم بلا تعيين رسمي، إنهم مطلوبون ومرغوبون هنا، وكما قلت لك قسم منهم يعمل منذ الأيام الأولى لقدومه، إما عند أقربائهم أو أصدقائهم ومعارفهم وجماعة ينتمون لها عائليًّا وسياسيًّا وفكريًّا

وعقائديًّا وإثنيًّا، وأماكنَ يترددون عليها، هذه هي أجواؤهم وبيئاتهم.

أما نحن فيقولون لنا: "مؤهلاتكم عالية" لا يستوعبها سوق العمل، أكيد هذا صاحبنا "الزول" التشادي لو أرادَ العمل عندهم كبنّاء لطلبوا منه شهادة من المدرسة المهنية، أو على الأقل اللغة الدنمركية! ومن يدري قد يكون فعلًا جرب ذلك مرارًا حتى أصابه الملل والكلل وقرر أن يتدبر أمره بأسهل الطرق.

إننا الفئة الأكثر تضررًا في هذه البلاد، لا نعرف ماذا نفعل، وليس من السهل علينا تدبر أمرنا غير أن نحزم حقائبنَا إلى مكان مجهول نحصل فيه على عقد عمل قبل أن نغادره، ولا أريد أن أزيد الحزن قسوةً ومناحةً، لكن هناك تذمرًا شديدًا بين أصحاب الشهادات الجامعية والعليا لبطالة قد تؤدي إلى انتحار بعضهم، بالنسبة لنا نحن نفكر بالرحيل من هنا، لم نخبركم عن الأمر لئلا نزعجكم.

أخي يونس!

مَرّ أسبوعان أو أكثر على كتابة هذه الرسالة، ورأيتها حزينة! شذبتها وشطبت الكثير منها، قلت لنفسي أن ألطّفَ الأجواء وأكملها بأمور وعدتك بها. استفسرتُ كثيرًا عن كلّ الطرق لمساعدتكما أنت وروميو، بلا فائدة. ليس هناك حل غير القدوم هنا وطلب اللجوء إلى هذه البلدان، أو عن طريق مكاتب الأمم المتحدة. سأبعث لكل واحد منكما 400 دولار. هذا ما أقدر عليه... اعذرني، ليس لدي أكثر حاليًّا.

لديّ أيضًا، وكما وعدتك أكثر من مرة، رغبة في الكتابة لك عن احتفالات أعياد الميلاد المجيدة، الكريسميس، لكن كما ترى فإن الحزن على روميو فضلًا عن أمور حدثت لنا هنا تؤثر على مزاجي في هذه الحالة، ومع ذلك دعني أحاول أن أفي بوعدي لك هذه المرة.

الدنمرك دولة علمانية ديمقراطية، نعم، لكنها ذات خلفية

مسيحية، إنهم يحتفلون بكل الأعياد الدينية المسيحية، لكن كما كان الناس عندنا في السبعينيات يقولون ممازحين "مسلم بالجنسية".

الناس هنا يعشــقون شــجرة عيد الميلاد، يزينونها ويرقصون حولها في ليلة الكريســميس، لكنهم غيــر متدينين. وأقول لك: لم يتقبل النــاس هذا التقليد الجديد أو الموضة مباشــرة ومن دون اعتراض على الشجرة!

تقوم مؤسســات الدولــة بتزويق أماكنها كلٌّ حســب اجتهاده، البلدية تنظف الشــوارع وتعلّق الأعلام الملونة والشراشيب، تنصب شــجرة كبيرة حقيقية مزيّنة ومزوّقة في ساحة المدينة الرئيسية، غالبًا ما تكون في مركزها كما هو الحال في كوبنهاجن. وتُخصّصُ محطــاتُ التلفزيون برامجَها لهذا الغــرض. هناك برنامج خاص للأطفال يبدأ من بداية شــهر كانون الأول حتى رأس السنة اسمه "مفكرة عيد الميلاد" مكرّس لهذه المناســبة مستوحى من الثقافة المســيحية، يُعرض فيلمٌ عن حياة سيدنا عيسى المسيح، فتصَوّر يا صديقي، مثلاً، كيف سيكون رد فعل عائلة ملتزمة باعتقادٍ آخر غير النصرانية، تريد تربيةَ أطفالها عليه.

إنــه أمرٌ متعبٌ بالتأكيد فــي البداية، وليس دائمًا ســهلاً على آباء وأمهات غير مســيحيين، أو تابعين لكنائس أخرى، تقبّل ذلك! المســلمون يعترفــون بكل الأديان الســماوية الســابقة ويَعتبرون المســيح نبيًّا، لكن الرســول محمد خاتم الأنبيــاء، هذا ما لا يراه الآخرون! بل يغيظهم! هنا يكمن الصراع!

فيلم "الرســالة" عن حياة الرسول أهم بالنسبة للعائلة المسلمة من برنامج آخر عن الأديان!

****

عمومًا يبدأ الناس بالحديث عن عيد الميلاد والتحضير له منذ بداية شهر كانون الأول أو منتصفه، يفكرون بكيفية الاحتفال، أين

وكيف وماذا يأكلون ويشــربون، ولو فــي حقيقة الأمر أن الطعام معروف.

وكالعــادة فإن أفراد العائلــة يحتفلون بهذه المناســبة بأكل ما لذَّ وطاب من الطعام والشــراب والرقص حول شــجرة عيد الميلاد المزينة بأحلى الزينات اللّماعة بمختلف الألوان وصور الأقزام وهم يتدلــون على أغصانها، وتوجد تحتها هدايا كثيرة مخفية توزع فيما بعد على الأطفال والكبار، وهم يُقَبّلون ويحتضنون بعضهم بعضًا.

الأمر الآخر هو أن الكريســميس إذا جمعته مع "رأس" الســنة ونهاية الأسبوع يصبح إجازة لا بأس بها، يسافر فيها بعض الناس. بدأنــا نأخذ هذا الخيار أو يأتي أصدقاء مقرّبون جدًّا لنا ونحتفل معًا بهاتين المناسبتين، لكن هناك الكثير من المغتربين المسلمين الأصوليين، بالذات الجدد، وحتى الدنمركيين المورمونيين وشهود يهوه لا يبالون لهما وأطفالهم لا يشعرون بهما.

أتذكّــر أني قلت للعامل الروبوت أو "الماكينة" الطيّب سْــتين، المشــرف على بنايتنا الســكنية، الجثيث، الطويل الضخم، عملاق مــن أحفاد القراصنة، "مبــروك بعيد الميــلاد"، ردّ عليّ ببرود أو جفاء: "إنكم لا تحتفلون بهذه المناسبة"، أجبته: "مع ذلك مبروك"، قال مبتسمًا ابتسامةً صغيرةً باهتةً بانت من طرف شفته: "شكرًا".

تساءلتُ بين نفسي، من أين له هذه الأحكام النمطية؟ بالتأكيد بعد معايشته لبعض النزلاء من الأديان الأخرى بمن فيهم المسلمون وشــهود يَهوه والمورمونيون ممن لا يُحيون هذه المناســبات، ولا يجاملون، ويخشون على أطفالهم من التماهي مع الآخرين.

لكنها عطلةٌ لا يُستهانُ بها، يستغلها الناس بمن فيهم المغتربون للتزاور والســفر إلى ذويهم، إلى مدن أو دول أخرى قريبة منهم. احتفلنا مع عائلة أخرى من أصدقائنا جاؤونا من الســويد، قضينا ليلــة جميلة بالــذات مع الأطفال، لولا محاولة قتلٍ "غســلًا للعار"

حدثت هنا، أفسدت علينا أمزجتنا الجميلة واسترخاءنا.

دعنـــي هنا أنقل لك مقاطعَ قصّةٍ كتبها صحافي مكرّســـة لهذا الحـــدث، من جريـــدة محلية، واعذرنـــي إن كانت ســـلبيةً، يقول الكاتـــبُ: "أنا فعلًا متأثر وحزين لحـــد الآن على ما حدثَ، أعرف الرجلَ المسنَّ شـــخصيًّا، اعتدى على "ضحيته" في لحظة غضب، لـــم تمتْ والحمد لله، أجل، بَقيتْ على قيد الحياة، اغرورقتْ عيناه بدموع الفرح والندم لســـماعه هذا الخبـــر، كُتبتْ لها حياة أخرى جديدة، بشرى سارّة له، فقد أحبّها كثيرًا كما يحب ابنته وتمنى لو لم يرتكب هذه الجريمة.

وُلدَ هـــذا الرجل الفـــلاح الطيب في بلد "يحج" إلى ســـواحله الدافئة ملايين الأوروبيين ســـنويًّا، حيث الجبال الشاهقة الجميلة الخضراء، قَدِمَ إلى ألمانيا ومنها إلى الجزر الدنمركية الباردة منذ الســـتينيات للعمل حالمًا بالســـعادة، وصار هذا المسكين المعذّب أبًـــا لأطفال كثيرين، لا أتذكر ثمانية أو عشـــرة، أغلبهم يعاني من صعوبات وتحديات مختلفة، أحدهم مدمن، ضايع، صايع، زوّجوه من بنت شـــابة وجهها كالقمر، "طازة"، "ســـر مهر" جاؤوا بها من الأريـــاف على أمل أن تصلحه، وهـــل يمكنها أن تقوم بذلك بعدما أفســـده الدهر، اكتفـــوا بأن قالوا لها: خطيبـــك ميكانيكي! الحمد لله كانوا شـــرفاء، لم يبالغوا في وصف ابنهـــم، لم يقولوا لها: إنه مهندس طيران مثلًا! كانوا يعوّلون عليها لإصلاح ابنهم، إنها أفضل منه تعليمًا، بقي لها ســـنة وتنهـــي الثانوية العامة، من يدري؟ كان يمكن أن تصبح معلّمةً أو طبيبةً في بلادها، لكنها فضّلت ألا تضيّع فرصة العمر: "لم الشـــمل"، أو "الســـحب" كمـــا يقولون في بعض الـــدول الفقيرة، تركتْ الدراســـةَ، ضحّتْ بفـــارس أحلامِها، أحبّها وأقســـمَ لها أن يســـعدها إن بقيت معه، مع ذلـــك جاءت إلى هنا، هـــذا البلد الأوروبـــي الجميل، كانت تظن أنها ســـتنعم بالرفاهية

وتطور شخصيتها وتكمل تعليمها، وقد تمد يد العون لقريبها، و"ما الحب إلّا للحبيب الأول"، لم تجد غير النكد اليومي والفقر والعنف الأسري، بقيت حبيسةَ المنزل مع أفراد عائلة زوجها، أجل، كانت هذه الحقيقة مفاجأةً، بل كارثة بالنسبة لها!

عريسُها، المحروس زوجُها أو بعلُها، مدمنٌ لا يفقه شيئًا من الحياة، يهيل ويميل في شوارع المدينة، بقيتْ معه خمسَ سنين على هذه الحال، احتارت المسكينة ماذا تفعل له ليتحسن وضعه، بلا فائدة، عبثًا حاولتْ وحاولتْ، أنجبت منه طفلين وثلاثة على مبدأ "كَثّري الحجار يثقل الدار"، عذرًا إذا كان هذا المثل غير صحيح، أو أنه من تأليفي!

النهاية ليست هندية "هَبي إند"، بل حزينة، هربت الزوجة الغريبة، أرادَ والدُه قتلها غسلًا للعار، بينما كان بعلها الشاب يتسكع مع المدمنين قرب كنيسة مريم العذراء في العاصمة.

هي الآن راقدة في المستشفى بينما الأب في السجن، صاروا موضوعَ الصحافة، وألسنة الناس تلوكهم!

حدّثَني ابنُه، العريس "المقدام"، في مراتٍ نادرةٍ التقيتُه فيها وكان بمقدوره الحديث والتعبير عما في خلجات صدره، قال بلكنته الجلية، وهو مشغولٌ دومًا بتصفيف شعره الأسود الطويل اللماع بفعل الدهون، السبل النازل على جبهته، يضع السيجارة في فمه تارةً، ويتناولها بيده حينًا آخرَ، نافثًا دخانها إلى الأسفل وإلى الأعلى، مبتسمًا بين الفينة والأخرى مكررًا: "أليس كذلك، أليس كذلك؟"، "والله، والله، كان أبي يضربني لأتفه الأسباب، مرةً لأني سألته عن (أبو البول) وكيف يتم الجِماع، ليس هناك مشكلة، أليس كذلك؟ صار يسب ويشتم، ويقول إني لا أحترمه، وضرب المنضدة بيده، جرحها، قلت له: أبي هذا ما علمّونا إيّاه في المدرسة، يسمّونه التعليم الجنسي، أليس كذلك؟ لماذا تضربني يا أبي، الله

يخلّيك، أنت تعرف ممنوع ضرب الأطفال، أليس كذلك؟ لكنه صار عصبيًّا أكثر من السابق، يسب ويشتم وضربَ حتى والدتي ضربًا مبرحًا، قال لها: "أنتِ السبب، تدلّلينه، تريدينه أن يصير دنمركيًّا"!

صحيح أنا "ابن القعده"، يعني آخر العنقود، أليس كذلك؟ لكني لم أرَ بحياتي أي دلالٍ ومحبةٍ منه، تصوَّر مرة طلبت منه أن يشتري لي دراجة مثل كل زملائي التلاميذ، أليس كذلك؟ فرحتُ كثيرًا لأنه وافق، لكنه ظل يماطل ويماطل ويؤجل الموضوع، وفي كل مرة يقول: إن شاء الله، أو بكره، أخيرًا هلكتُ، صرتُ أخجل أمام أصدقائي، أليس كذلك؟ والدة أحدهم أهدتني دراجةً كانت حلوةً ونظيفةً، لكني مع ذلك قلت لها مفتخرًا، وأنا كنت في العلالي، فرحًا للغاية: أبي سيشتري لي واحدة، وعدني، أليس كذلك؟ هي تفهّمتْ موقفي، كانت أُمًّا دنمركيةً طيبة للغاية، تحبني كما تحب ابنها، تأخذني معهما إلى المطعم والسينما ومدينة الألعاب، والله كلها غالية جدًّا، أليس كذلك؟ ومع ذلك تدعوني في كل المناسبات.

عُدتُ إلى البيت، قال لي والدي: اليوم راح أشتري لك دراجة، فرحتُ للغاية، لا تتصور سعادتي، كدت أطير من الفرح، والله نمت أحلى ليلة في حياتي، لن أنساها إطلاقًا، وحلمتُ أني أسوقُ دراجةً جميلةً فيها سبعة "كَيرات"، وحلّقت بها إلى أعالي السماء، فوق، فوق، سقطتُ ومع ذلك لم أشعر بالألم، كنت مبتهجًا فرحًا سعيدًا، أليس كذلك؟ بقيت منتظرًا اللحظة التي سيأخذني فيها إلى محلات الدراجات، لكن لم يحصل أي شيء من هذا القبيل، فوجئتُ بأنه جاء بدراجةٍ قديمةٍ صدئةٍ، رماها في الممر قائلًا: تعال يا صبي خذها، اشتريتها لك، ستذهب بها غدًا إلى المدرسة، لم أَسُقْها طبعًا عندما أذهب للمدرسة خشية أن يراها زملائي ويسخروا مني، في حقيقة الأمر لم يكونوا كذلك، لكني لم أرغب في استعمالها رغم الضغط والضرب، إي والله يضربني، لم

أســتخدمها، يقول لي: "لازم تروح للمدرسة بها، لماذا لا تريدها؟ تستعرّ منها؟ أنا لما كنت بعمرك ما كان عندي دراجة يا غبي!"

****

أو، مــرّة أخــرى، رجوتُه أن نعمــل حفلة عيد ميــلادي وأدعو زملائي مثــل الدنمركيين، أليس كذلك؟ كلهم ســألوني عن ذلك، أخبرته، توســلت لــه، بابا الله يخلّيك دعنــي أحتفل بعيد ميلادي، صار عصبيًّــا، قال: "كم مرة طلبتُ منك ألا تلح عليّ، هذا حرام"، كان فعلًا عنيفًا معي، أكلتُ ضربًا من هذا الأصلي، ثاني يوم رحت إلى المدرســة، ســألتني المعلمة عن الكدمات على وجهي، كذبتُ عليها بالطبع، قلتُ لها: ســقطتُ، لم تصدّق ذلك، تدخلت البلدية، أخذونــي إلى مقابــلات خاصة مع ناس محترفيــن متخصصين، كشفوا الأمر، انتزعوني جبرًا من أمي وأبي، أليس كذلك؟ أعطوني هدايا، اشــتروا لي ملابسَ ودراجــةً جديدةً، ومع ذلك كنت أهرب وأريد العودة إلى أهلي، وأشــتاق إلى إخوتي وأخواتي باستمرار، ولم أشعر مرّةً بالاستقرار منذ ذلك الحين.

ومنــذ ذلك الحين، أنا تائه! ضائعٌ! لم أنهِ المدرســة ولم أتعلم بشــكل جيد! هذه هي الحقيقة، أنت لا تعرفها وأنا أحببت إبلاغك بها حينذاك، شكرًا لك، حاولتَ دومًا مساعدتي، أنت إنسان طيب، أنا أعرف أنك تحــب والدي وعائلتنا كلها، تريد لنا الخير وتعيننا، لكــن الآن صعب، أنــا مدمن وأرتــادُ مكانًا خاصًّــا للعلاج، أليس كذلك؟ أنــت تفهمني، أليس كذلك؟"، قالَ كلمته الأخيرة وعلامات الألم والحزن بادية في عينيه، بانت أسنانه كلّها صفراء بنية أثناء ابتسامته اليائسة، بدا كأنه أكبر من عمره الحقيقي بعدة أعوام.

هــذا هو الــذي ينغّص علينا حياتنــا يا صديقــي القارئ، مع الأســف لدينا ما يكفي من هذه الهموم بين غرباء المياه الدافئة، والقصص كثيرة تدمي القلب، الجميع يردّدُ عبارةً شــهيرةً "نخشى

على فلذات أكبادنا". مسكين والده، كان يشتغل في البناء، يأتي إلى البيت متعبًا، يضرب أطفالَه، أبعدت البلدية بعضهم منه، تزوج من أخرى، في النهاية تقاعد عن العمل، أراد أن يتوب وصار يدعو الناس للجامع، لكن، "بعديش؟ بعد ما وقع الفاس بالراس؟"!

الأولاد "فالتيها" في الشوارع، من المؤسف أنه لم يلتقِ بإمامٍ ذكيٍّ وخبيرٍ يعرف كيف يرشده بأن العبادات وحدها غير كافية، كان عليه أن يكون طيبًا حنونًا مع أفراد عائلته، يحرّم عليه ارتكاب الجريمة، على الأقل المفروض أن يفهم أنّ المسلم لا يقتل!

هذا الأب القاسي كان دائمًا يقول إن أولاده طيبون لا يضربون أحدًا، لا يفهم أن تربيتهم ليست بالضرب، ومن أين تأتي العدوانية المترسخة في شخصياتهم، هو غير قادر على استيعاب خطأ تربيته لهم، تقليدية قديمة عفى عليها الزمن، وأن طفولتهم غير طبيعية، لا يدرك أن عدوانية أطفاله نتيجة حتمية لعنف أسري مارسه لأتفه الأسباب، وانعدام الرعاية والحنان والحب بينه وبين أم أولاده!

أبناؤه طيبون بالفطرة، كما أحسستُ بهم، لا تتصور عزيزي القارئ كم أحبهم كلهم بلا تمييز، الإناث أفضل من الصبيان في الدراسة، يواظبن على واجباتهن البيتية، الصعوبة عند الأولاد، "بعضهم يعاني من الشعور بالنقص وضعف الشخصية ومشكلة الهوية والانتماء واحترام الذات، وهي نتيجة طبيعية لطفولة بائسة غير مستقرة ومليئة بالمطبّات"، كما يقول المحلل النفساني! مِن أين للأب أن يعرف هذه المصطلحات ويفهمها؟!

تصوّر، أحدُ المحللين قال: "يبدو أن هذه العدوانية أو الطريقة الفظّة الخشنة في التعامل مع الآخرين صارت راسخةً في الجينات لتاريخها الطويل في الشرق، لا يمكن حلها إلا بتنويرية جديدة وفترة استقرار طويلة تنشأ فيها عدة أجيال". طبعًا انزعج منه ابنُ العائلة الأكبر، وصفه بالعنصرية، لكن النفساني قال له:

_ مرّتْ أوروبا في الوضع نفســه، لكن التنويرية والتطور غيّرا الأمور، ومُنعَ ضرب الأطفال في المدارس، والمنازل، أجل لا تتصور أن أســلافنا كانوا أفضل منكم، ولا يزال حتى يومنا هذا يعاني بعضنا من نفس هذه الأمراض الاجتماعية".

انتهت قصة الصحافي!

أنــا، والعيــاذ بالله من كلمة أنا، أقولها مــرة تلو الأخرى، فعلًا أشــعر بالحــزن والمرارة إلى أبعــد الحدود، هــذه الجرائم تزيد عدد المعادين للمســلمين، إنها أصلًا أفضــل هدية "للعنصريين" والمحافظين، وتُضاعف رصيدهم في الانتخابات، تعيق الاندماج، ستصبح موضوعًا للنقاش اليومي والممل عن المغتربين واللاجئين.

يــا أخي، أصلًا نحن عندما قدمنا فــي بداية العقد الأخير من الألفية الثانية، إلى هذه البلاد، الأجانب أنفسهم هم أول ما سمعنا منهم هــذه الانتقادات الحادة على "زملائهــم" وأقرانهم، كونهم يشوهون سُمعتَهم.

يقولون مثــلًا: إن محلات الملابس كانت تَعرضُ في الشــارع الجاكتات الجلدية من دون ربطها بأســلاكٍ مقفلةٍ، لكنهم صاروا يقومون بذلك خوفًا من سرقتها! من قِبل من؟ الأجانب واللاجئين! لم يثبتْ أحدٌ ذلك، لكنهــا مجرد تأويلات وتكهّنات! تصور! أصبح أهل البلد الأصليون كلهم ملائكة ونبلاء ولا يسرقون! بينما الغرباء أبالسة! هههه! كلام فارغ!

يعني بصراحة، "الغرباء" يشــكون _لا أدري كم نسبتهم، أغلبية أم أقليــة، أم بعضهــم_ من أنهــم انفعاليون لا يســيطرون على مشاعرهم، تحرقهم نار الغيرة والحسد ويتميزون بتقلب المشاعر والإحساسات والتسرع في المحبة والكراهية. ينتقد بعضهم بعضًا، كل واحــد منهم يرمي اللوم على الآخر، الأتراك يقولون، "أطفالنا لا يعملون مشــاكل، بل العرب"، إذا كان ابنهم يصاحب فلســطينيًّا

سيردّدون: الفلسطينيون، الفلسطينيون! وإذا كان عراقيًّا سيقولون: العراقيون، العراقيون! وبالعكس، هكذا!

إي والله شيءٌ مؤسف، بعضهم ينطبق عليه المثل: "حط المجادية بالسفينة وكلمَن عدوّه قبال عينه"! كأنهم يمارسون أعمالهم اليومية لتأسيس ثنائياتٍ وكتابةِ سمفونيةِ الكراهية والأحقاد بين هذه الأقوام الهاربة من مناطق الحروب، عرب وتُرك وكُرد وإيرانيون، أرمن وأذربيجانيون، فلسطينيون ولبنانيون؛ هؤلاء بالذات مثل "الحية والبطنج"، صرب وبوسنيون، مقدونيون وألبان، شيعة وسنة وأحباش، كاثوليك وبروتستانت، كلدان وآشوريون، فيتناميون وصينيون.

ما أحلاه من كلام الله عزّ وجلّ: "وجعلناكم شعوبًا وقبائلَ لتعارفوا...".

****

أطفالُهم يتلاقون فيما بينهم، وبالذات أولادهم المراهقون يلتقي بعضهم بعضًا من شرق المدينة إلى غربها، من شمالها إلى جنوبها بطريقة عجيبة غريبة، إنهم من نفس الطينة ولهم نفس المعاناة والمشاكل، لا يمنعهم من ذلك تحذيرات أهاليهم! طبعًا، وافق شَنٌّ طبقَه! يتصاحبون ويمشون في النهار والمساء معًا في الشوارع أفواجًا مثل "الكلاب السائبة"، كما قالت لي الباحثة الاجتماعية أنيتا! لا، لم تستعمل كلمات مثل "السائبة" أو الضالة، بل: "مجموعات الكلاب"، تقريبًا الشيء نفسه، يتحدثون بأصواتٍ عاليةٍ تجلب انتباه الناس، عكس أترابهم الدنمركيين، هؤلاء نادرًا ما ترى أثرًا لهم في الطرقات! كل هذا ونريد أهل البلد لا يتضايقون؟

سألتُ هذه الباحثة أنيتا المتعاطفة مع الصبية الأجانب، محاولًا إخفاء انزعاجي منها: كيف تقارنين المراهقين المغتربين واللاجئين من عرقيات غير دنمركية بالكلاب؟ كيف تسمحين

لنفسك بعمل ذلك؟

أجابتني بكلام مبطن، وإن أردتَ الحقيقة، مفخخ: "أتفهّمك، ثقافتكم تحتقر الكلاب، أما نحن فلا..." قاطعتُها مبتسمًا: "هاا، صرتِ تتكلمين بلغة نحن وَهُمْ! أو نحنُ وأنتُم، ثقافتنا وثقافتهم!

أنتِ غلطانة بالنسبة لاحتقار الكلاب، الشاعر العربي البدوي علي بن الجهم مدحَ الحاكم العباسي المتوكلَ في القرن التاسع الميلادي قائلًا:

"أنت كالكلب في حفاظك للودِّ وكالتيس في قراع الخطوب"!

شرحتُ لها بيت الشعر بتأنٍّ، فتحتْ أنيتا عينيها الواسعتين الخضراوين مبتسمةً كطفلةٍ بريئةٍ حائرةً كيف تعبر عن نفسها، لكنها استدركتْ: "صحيح يا عزيزي الحبّاب، لكن مع ذلك هناك من يعتبرها نجسة، وليس كل الشعب عندكم يتقبّل الكلاب ويدخلونها في بيوتهم كما يفعل الناس هنا، أليس كذلك؟"، أيدتها موافقًا.

ألا تراها يا عزيزي يونس خلطةً مليئةً بالتوابل وتعقيدات التاريخ والجغرافيا والاثنوجرافي والأنثروبولوجي، فيها التعايش والتضامن والتلاحم بين الناس العاديين رغم الحروب الكثيرة في الوقت نفسه! رغم كل ما نسمعه من تهامس عن الكراهية يمكننا أن نجد عدّة قصص جميلة بين هؤلاء الناس العاديين، لكن هذا لم يمنع الصراع بينها!

وبالمناسبة، والشيء بالشيء يُذكر، كررتَ سؤالَكَ عن اللاجئين وأهل البلد الأصليين، وأحاول هنا أن أجيبك.

أخي، الناس هنا مختلفون، والتعميم صعب، وليس لديّ إحصائيات، علمًا أنه يوجد هنا في الجامعات أكاديميون متخصصون في "الأقليات".

قبل مدة قصيرة قرأت مقالًا لصحافي، أوجزُه لك إنْ كان هذا الموضوع يهمك، يقول:

هنـــاك من هـــؤلاء اللاجئين مَـــنْ يُدخلُ الالتـــزام الديني في كل صغيـــرة وكبيرة، يوغل النظر إلى كل شـــيء بعين ضيقة ليثبت للآخرين صدق إيمانه بعقيدته. وآخرون متساهلون وغيرهم "نص ونص" كما نقول، لكن المشكلة هي في رغبة بعضهم للسيطرة على الآخرين وفرض الرقابة عليهم، كما يراها التربويون والصحافيون المتخصصون هنا يوميًّا، حيث يضغطون على القاصرات.

يقوم بهذا الأمر _بخاصةٍ_ بعضُ الأمهات المرتبطات بمنظمات وجمعيات دينية وسياســية، يرتدين السواد من فوق حتى أخمص القدميـــن، منهـــن عاملات أو عاطـــلات، أو مريضات نفســـيًّا، أو متقاعدات "تقاعد مبكر"، أي قبل ســـن التقاعد لأســـباب نفســـية وصحية وهنّ في ريعان شبابهن، لديهن الوقت الكثير، مشغولات بهذه الأمور.

والعهدة على الراوي طبعًا. لا أحد يعلم بالضبط التفاصيل حيث تكمن الشـــياطين! حتى لو صحّتْ هذه المعلومات، فهل ســـلوكهن هذا ضد القانون؟ بالتأكيد لا!

هناك أصوليون ملتزمون، وليس في الأمر مشـــكلة طالما أنهم لا يضايقون الآخرين، ومتعصبـــون ومتزمتون ومتطرفون، وأخيرًا تكفيريـــون يريدون فـــرض آرائِهم على الآخرين والســـيطرة على كل شـــيء بدءًا من الحي الســـكني مرورًا برياض الأطفال وانتهاءً بالمدارس، إذا كانوا يشـــكلون أغلبيةً، هذه هي الديمقراطية! هذا يشمل كل المعتقدات بما فيها السياسية.

هذا ما يخشاه أهل البلد ويغيظهم، بل أحيانًا يضايق حتى بعضَ المســـلمين أنفسهم، ونشـــاهدُ سياســـيين يظهرون باستمرار على شاشات التلفاز ينتقدون "جيتوات"، مجمعات سكنية "مغلقة" يكثر فيهـــا مواطنون من فئات معينة، مثل اللاجئين، لوحدهم؛ ما يمنع اندماجهم بالمجتمع.

قلــت لأنيتــا: الدنمركيون ممّــن هاجروا في القرن التاســع عشــر والعشــرين إلى الأرجنتين وأميركا هربًا مــن الفقر كانوا أيضًا على المنوال نفســه في البداية، لهم مســتوطناتهم الخاصة بهم مثل "ســولفانج"، متدينون، متدنمركون أكثر من الدنمركيين داخل الدنمرك، لهم كنائسُــهم الخاصة بها وصحفهم ومجتمعهم المصغر، أو جاليتهم رغم أنهم من نفس الدين، يتناولون الأكلات الدنمركية، مثل "الفريكاديلله" يعني لحم خنزير أو بقر أو خليطهما مع البصــل، "مثروم "ملَكلك" ومقلي، "يشــبه الكباب بس مدوّر"، ذاك الطاس وذاك الحمّام، بس هذوله شــقر وبيضان، بينما ربعنا المسلمون "سُــمر وملحان وســودان"! هذا تمييز عنصري! يقول بعض الشباب المغتربين!

لم تعلّق أنيتا على كلامي، ابتسمت واكتفت بتمتمة "نعم، نعم.."!

أقــرّ الدنمرك فــي الثمانينيــات قانونًا خاصًّــا بالأجانب يعتبره بعضُهم الأفضل عالميًّا، وفي الحقيقة حصل انقسام في المجتمع قبل عقد من الزمان بخصوص المغتربين واللاجئين، وبالذات المسلمين، من "المتشددين" منهم، أسســوا "الاتحاد الدنمركي" وطالبوا بإنقاذ الدنمــرك من "احتلال" هؤلاء من ذوي خلفية ثقافية ودينية مختلفة عنه، أما "المتســاهلون" فأسّســوا جمعيات "أصدقاء اللاجئين"، هم أيضًا ليســوا "قليلي الشــر" وقفوا بالمرصاد لأولئك وفضحوهم بكل مناسبة وغير مناسبة، هم يساريون من بقايا الشيوعيين والاشتراكيين الشعبيين والديمقراطيين الاجتماعيين وغيرهم.

لكنــي ألاحظُ صعــودَ اليمين، أتوقع اســتمراره، لا يمكن دوام الحــال هكــذا يا صديقي، أهــل البلد تعبوا من بعــض اللاجئين. الصحافة، طبعًــا ليس كلها، تصورهم كأنهــم عالة على المجتمع، يتسلّمون المساعدات الاجتماعية! كلام فارغ!

تَصَوَّر، إن عشــرين ألف مسلم بوسنيّ دخل الدنمرك أملًا في

عودتهم، أغلبهم يحصل على علاج لدى الأطباء النفسيين، وهذا مكلف للبلد، وفي النهاية بقوا مرضى مزمنين، أو "متظاهرين" بالمعاناة لئلا يعيدوهم إلى ديارهم، هؤلاء لن يعودوا حتى آخر رمق في حياتهم، وسنرى!

بلدان المسلمين تعم فيها الفوضى والهم والخراب والعذاب والحروب، و"بنات طارق يمشين على النمارق، والمسك في المفارق، والهروب مستمرٌّ من المحارق، بفضل هند وأبي سفيان! وعبس وذبيان!" وموجات اللاجئين الكبيرة تأتي منها، هذه هي الصور نشاهدها يوميًّا على المحطات التلفزيونية، "سي. أن. أن" "CNN"، أجل يا أخي هذه هي حقيقتنا المرّة، ولا يمكن إنكارها.

الشيء نفسُه ينطبق على العراقيين والإيرانيين واللبنانيين والفلسطينيين والصوماليين والأفغان، ومن قبلهم اليوغسلاف، نوَرُنا وغجرهم، "نمور التاميل" السريلانكيين والفيتناميين، كلهم قدموا من محارق إلى هنا هاربين مما بعد الحروب وفي أثنائها.

سوق العمل غير قادر على استيعابهم، هُم عاطلون عن العمل يتسلّمون إعانات من الدولة، وأطفالهم يواجهون صعوبات. هذه هي باختصار تهويلات الصحافة المحلية ومبالغاتها!

كما ترى يا صديقي يونس، مع الأسف تم اختصار الحديث عن الإسلام بهذه الأمور والحجاب وقضايا أخرى، ونسوا أو تناسوا حضارةً عربيةً شرقيةً خليطةً بشيءٍ من البيزنطية، وصلت إلى الأندلس.

بالمقابل تأسست هنا جمعيات إسلامية، سنّة وشيعة وأحباش، منها متشددة، بنَتْ مساجدَها وحسينياتها، صارت أصواتهم هي الطاغية كما لو أنهم يمثلون كل المسلمين، بينما الناس الاعتياديون العقلانيون والمثقفون والمعتدلون صاروا يشكلون الأغلبية الصامتة، يخشون أن تنتقل حروب الشرق الأوسط إلى هذا البلد الأمين، لا حول ولا قوة لهم أمام هذا الطغيان والحرب

المستعرة بين هذين الغولين: العنصريين والمتطرفين!

هذا ما تراه أعيننـــا، إضافة إلى محلات الذهب والخضراوات ومطاعم الكباب والشاورمة والفلافل والتجميل بأقسامها الخاصة للمحجبات ومكاتب السفريات أينما تتجول.

إنهم، أقصد "ربعنا" الشـــرقيين، أحيوا هـــذه المدينة "الميتة"، صـــارت حركـــة الناس تدبُّ دومًـــا فيها، دكاكينُهـــم تبقى مفتوحةً مضيئةً منوّرةً زاهيةً حتى ساعة متأخرة من الليل.

سيأتي اليوم الذي ســـتجد بين أبناء الجيل الثاني والثالث من اللاجئين محاميـنَ وأطباءَ ومهندســـينَ وحِرفييـــنَ مهرةً متعلمين، وهذا ما لا يحبّه سياســـيون عنصريـــون حقيقيون يدّعون رغبتهم في دمج الغرباء.

****

أنا أعتقد أن المغتربيـــن واللاجئين أكبر ثروة لهذا البلد، لكن سياسة الدمج وسوق العمل خاطئة، والمفروض أن يشجعوا الناس على العمـــل بجدية وليـــس "التنبلة" عن قصد بمختلـــف الذرائع، والحديث يطول ولا وقت لي للشرح هنا عيني حبيبي ونور عيني!

والآن، أســـتودعك اللـــه، فالوقت متأخر، وقـــد أعود إليك مرة أخرى إن اســـتيقظت في الليـــل أو بعد عدة أيام، أو أرســـلها لك حسب الظروف!

****

رسائل من زمن الحصار لكاتب مجهول

الرسالة الخامسة:

ميسوبوتاميون ميسوبوتاميون!

(أيار/ مايو 1993)

العزيز يونس..

هأنذا أعاود الكتابة إليــك! أُطل عليك من نافذتي كأني أراك أمامــي. والراديو الدنمركي يبث أخبــارًا متنوعةً عن حياة الناس اليومية، وعن محاكمة المتورطين في قضية التاميل، كلّمتك عنها سابقًا، الأمر المؤسف أن فضائح مروّعة وفظائعَ كبيرةً بدأت تطفو على السطح، وتصريحات عن وزير العدل السابق نين هنسن.

يقولون إنه المتهم الرئيس في إخفاء ملفات لم شــمل عائلات نمور التاميل اللاجئين السريلانكيين. أمر لا يتقبله العقل والمنطق ولا القيــم والأخلاق، حتى في الدول المتخلفة، فما بالك في دولة صغيرة ديمقراطية عريقة مثل الدنمرك؟!

صرتُ أفهم كلَّ ما يُذاع في نشــرة الأخبار التلفزيونية، وصرتُ أفضّل ســماع الراديو، في المساء أقرأ الأخبار مكتوبةً بالدنمركية والإنجليزية.

اليــوم عيد العمــال، ليس عطلة رســمية، لكنه يــوم غير عادي، الاحتفــالات فــي كل مكان، الأعــلام الحُمر ترفرفُ فــي كل زاوية، وبالــذات فــي أكبر بارك فــي كوبنهاجن، والناس يســتغلونه للتنزه والاستمتاع بالطبيعة الدافئة، وهي محاطة بمختلف الأشجار الباسقة المزهرة بكلِّ الألوان: الكستناء الراقية أزهارها صُفر تشبه الأهرامات، ثمارها مبعثرة على الأرض لا تؤكل، والزيزفون والكرز والرودوندورن الياباني واللّيلك الوردي والأبيض والأحمر البنفسجي والأرجواني!

ألوان زاهية وروائح عطرة تنتشر في الشوارع والساحات.

قلتَ لي في مكالمتك الأخيرة الخاطفة بأني أبالغ في الحديث عن قضية التاميل لئلا تطلب مني "سحبَك"، أقول لك يا صديقي يونس، رغم أني أعلم علم اليقين أنك لا تحب سماع هذا الكلام: "إنّ قضية التاميل من أكبر الفضائح في تاريخ هذا البلد الديمقراطي الإنساني الصغير المثير! ما كان يجب أن تحدث"، لكن أطمئن لن أدوخك بها ولا بأي انطباعات سلبية عنه، فأنا أعرف أنك لا تعشق سماعَها، أراك تعاود السؤال عن كيفية "سحبك" إلى هنا رغم أني شرحت لك الأمر، تطلب مني حلًّا لقضيتك، قلتَ لي بالحرف الواحد: "أريد حلًّا لوضعي، أريد حقي، لم أعد أطيق!"، وقبلها طرحتَ عليّ مشكلة روميو، وقلتَ: "جِدوا حلًّا لنا"، والله حقك أن تتكلم بلغة نحن، فالمصيبة ليست فرديةً ولا بُدّ من حلها! يبدو أنك تريدني أن أقول لك: "يلّه تعال، البلد مفتوح لكلِّ اللاجئين، يحبونهم ويقبلونهم ويهيمون بهم، بل يأخذونهم بالأحضان!

أنا والله أفهم ظروفك، أنت كالغريق المتشبّث بالقشة! تريدني أن أكذب عليك وأعدك بما لا قدرة لي عليه! أنت تريدني أن أتدبر طريقة هروبك، أو بالأحرى تهريبك، من هناك إلى هذا البلد الأمين!

شخصيًّا لا أمانع، اقتنعتُ الآن أكثر من السابق، أو بالحقيقة أجبرتُ نفسي أو هيأتها كي أقتنع بهذه الصورة الخطيرة، فأنا ليس لدي إمكانية توفير المزيد من المبالغ، لا سيّما أني بعثتُ لك آلاف الدولارات! وتريدني أن أتحرك أكثر، لكن كيف؟ هذا يتطلب مني الاستفسار والاتصال بالمهربين، أين سأجدهم؟ وحتى إن لقيتهم كيف سأتفق معهم على التكاليف ومن سيدفعها؟ ثم كيف الاتفاق معهم على طريقة التسديد، أين ومتى وكم وماذا؟ هل تريدني أن أتورط وأعاقَب قانونيًّا بتهمة التهريب؟ أنا شخصيًّا لا أرتاد أماكنَ

تُــدار فيها مثل هذه الممنوعات، صرت أعرفها تقريبًا، أو أســمع عنها، لست من هذه البيئات أو الحواضن والأوكار والمراتع، وليس لــي أصدقاء من أترابي أو من صنوي ممن يتعاطون هذه الأمور. بالتأكيد أنهــا بعض تجمعات المغتربين مثــل المقاهي والنوادي الخاصة بهم والجمعيات. لكني سأسعى إلى ذلك!

****

قــد تُذكّرني هذه الأماكن بمقاهٍ بغداديــةٍ كنا نتجمع فيها عند الضــرورة، مقهى المعقّديــن، والبلديــات والآداب والزهاوي، كنا نحكي فيها عن الأدب والسياســة ونفلسف الأمور ونحلل الظواهر ونــدرس فيها أيــام الامتحانات. لا، لا، في الحقيقة إنها لا تشــبه مقاهينا، بل أخرى كان كل شــيء فيها يُباع ويُشترى، يتجمع فيها سماســرة وحرفيون وأســطوات البناء وعمّال "المســطر". أعتقد، إن لم تخنّــي الذاكرة، أحد هذه المقاهي يقع قرب ســوق الغزل على شــارع الجمهورية، وآخر قرب ســاحة الميدان، حيث يبيعون الدراجات البخارية في يوم محدد من كلّ أسبوع.

أجل، أحاولُ اختبارَ ذاكرتي وأتذكرها، كانت تستهويني، إنها من عالم آخر غريب عليّ. نعم، ترددتُ عليها مرّةً، مرتين، ثلاثَ مراتٍ بصحبة أحد رفاق العالم الســفلي، لم أنســجم معــه رغم المحبة العميقة لساكنيه.

****

آه، عدت من جديد إلى بغداد، أحن إليها كلما تأزمتُ وتضايقتُ، دعنا الآن من أمر مغادرتك، أخشــى عليك من أخيك الأكبر، هذا الرجــل قاسٍ يرفض خروجَك وبُعدَك عنه خوفًا منك لا عليك، إنه بطّاش، قتّال قُتَلى!

"خلّينا شويّه" نتكلم بناستولجيا رومانسية، هل تتذكر السبعينيات؟ "نافذة حول العالم" و"ســتوديو الرياضــة" لمقدمه الألمعي مؤيد

البدري صاحب الإطلالة الباسمة، ومقدمته الموسيقية الجميلة والشهيرة، يقال إنها كانت إحدى مقطوعات موزارت، مضت مدة طويلة منذ بدأتُ بعض المرات بإعادة كتابة الرسالة قبل أن أبعثها إليكم، لا أتذكر فيما إذا كنت أرسلتها إليك أم لا، أعيد صياغتها أحيانًا إذا كان فيها أخطاء وهلوسات أبدًا "ما ينطلع بيها"، ثم يأتي دور معاوني "المحرر الجزار".

لم يعد التأخر في إرسال "المكاتيب" هذا مهمًّا بالنسبة لي، أنتم أصبحتم هاجسي، وأضحَتْ الكتابة إليكم نوعًا من الحب والوجد والولع والوله والشغف، بل الهَوَس، بغض النظر عن إرسالها إليكم أم لا. ستصلكم!

****

أخذتُ أكتبُ إليكم في كل فرصة تسنح لي، قد تتكرر الأفكار، أو يكون الخط سيئًا، أو الأسلوب غامضًا وغير مفهوم ومزاجيًّا، هذا ناتج عن أني أكتب في بعض المرات عن أمور أتوقّعكم تستوعبونها استيعابًا كاملًا من دون نقصان أو زيادة. أكرر بأني يمكن أن أنسى إرسال هذا المكتوب أو ذاك، لكن في النهاية ستتسلّمون كل ما أكتبه إليكم فيما بعد دفعةً واحدةً.

ولا بأس إن بعثتُ الرسائل على عنوانك يا عزيزي يونس، فهي موجهة إليكم جميعًا. لا بأس يا صاحبي، "لا بأس عليك" كما يقول أهل شمال أفريقيا، في كل مرة تسألهم عن صحتهم أو عن شيء آخر، يجيبونك: لا باس، لا باس! يعني ماشي الحال.

****

في هذه الأيام حدثت لي أمور كثيرة، وجدت من الأفضل أن أنتظر اتضاحها قبل إنهاء الرسالة.

تريدني أن أكتبَ لك عن حياتي كما طلبت مني، بينما أنت تكتفي بمكالمات تلفونية صاروخية سريعة ورسائل موجزة

وعتابات، اسحبني، اسحبني!

آه لو أحدثك عن أيامي وأوقاتي الحالية، وكيف أشـغلها بأمور كثيـرة ومختلفة، أعتقد أنك سـتندهش وتنبهر. على الإنسـان أن يستغل ظروف حياته ويطوعها حسب اهتماماته ورغباته وأهدافه مهما كانت صعبة وقاسـية، وقد تقولُ إني ألمّحُ إلى أمرٍ آخر، نعم أصرّحُ للجميع: لا بُدّ من تحويل كلّ أرض عراقية جرداء إلى مراعٍ خضراء؛ عندها سيختفي الجياع في بلد الثروات النفطية!

أنا، وبصراحةٍ شديدةٍ لست مخيرًا، بل أنا مسيّرٌ مجبرٌ مضطرٌ، أواجـه التحديات، كأني في سـجن كبير، مفتـوح مليء بالفرص الكثيـرة، لسـت راغبًا في أمر ممـا أنا فيه، أنا متألـم، قلق لبيئة المغتربيـن هنا ومشـاكل دمجهم ولما يحدث للنـاس في بلادنا، المؤسـف أن الأمور تسـير من سيئ إلى أسـوأ، وليس هناك أيّ بصيص أمل في هذا النفق المظلم الطويل.

****

لست سوداويًّا، بل بالعكس أومن بقدرة هذه الشعوب، والإنسان، فهو أثمن رأسمال إذا ما أُحسنت تربيته منذ الطفولة.

الشـاعر ثائر السومري الألثغ يلفظ الراء غينًا فتصوره، عندما يقول: "هـذا كله "خَغاء بخَغاء"، أو هُغـاء بِهُغاء"، بل هو بصراحة متشـائم جدًّا ليس له غير هذه المفردات الخائية، ويقول لي: "إنه حلم دائم جميل في عالم خَغائي تحاول أن تقنع نفسـك، لكن من دون فائدة لأنه خغاء ودجل وهُغاء وخواء"! افهمه بنفسك!

أنا شـخصيًّا لدي قناعة كاملة بقدرة الإنسـان، رغم أني أبدو لبعـض النـاس منعزلًا، فأنا لسـتُ منهزمًا، وهنـاك فرق بين أن يتظاهـر المرء بالتفاؤل لكنه محبـط داخليًّا. أنا لا أدّعي يا أخي، أقول لك: لـو كنت أعيش في ظل الحصار لعملـتُ خطةَ الاكتفاء الذاتـي وصممتُ وعزمتُ وتوكلـتُ كما فعل غانـدي. هذا تغييرٌ

أنشده! أعرف عراقيين عملوا ذلك!

طبعًا سيكون من الصعب على المرء الاعتماد على النفس إذا كانت عيناه تتطلعان إلى الخارج لتلقّي العطايا من الآخرين، هذا ممكن، لكنْ إلامَ ستظل بلدان الرفاهية تستقبل اللاجئين، وإلى متى ستبقى مناطقنا مشتعلةً بالحروب! ينبغي أن تعلم أن بلدان اللجوء هذه ستبقى بحاجة إلى اليد العاملة، وتستقبل لاجئين، قد يكون ليسهل عليها الضغط عليهم، دمجهم وإذابة أطفالهم بثقافاتهم. لا شيء من دون مقابل معنوي أو مادي!

****

لا بدّ من نهايةٍ لهذا الوضع، إن تفاقمَ لن يبقى حجر على حجر ولا شجر على شجر ولا بشر على بشر، ولا وتر على وتر، ولا ممر بين ممر، بل لا وبر على وبر، ولا حُفر بين حُفر، يكون العالم كله جورة كبيرة تشتعل فيها محارق "هند بنت عتبة"، وتلتهب ألسنة النيران مرتفعةً عاليًا، قد تقول لي: الله أكبر، يا لك من متشائم! إنها نظرة قاتمة للمستقبل، أنا عرّاف، لا أرى غير هذه الحقيقة ماثلة أمام عيني. أنت لا تشعر ماذا يعني أني أعرف وأدرك ما الذي سيحدث لبلداننا من ضحالة وانتكاسات ستشمل الأرض والمياه، بعد أن تُفرّغ من البشر! الطامة الكبرى أني لا أستطيع التغيير، لا أملك ذلك، أنت لا تحس بهذا الأمر، ليس لأنك عديم الإحساس، بل مغلوب على أمرك، لا ترى في حياتك أي حل آخر غير "اسحبني" يا مِستَر "اسحبني"، و"بلدان اللجوء"!

أنتَ لستَ الوحيد في هذا العالم يا حبيبي، وليس الذنب ذنبك، أنتَ جزء من ظاهرة تمتد بين آسيا وأفريقيا، حتى أوروبا الشرقية، كلهم، إلا الصين، يريدون الهروب من المجاعات والاضطهاد نحو القارة العجوز!

الغريب أننا، أو بالأحرى بعضنا، لا نستغل الرسائل للكتابة عن

حياتنا وتفصيلاتهـا ونتبادل الآراء حول كيفية إصلاحها بأنفسـنا بجمعيات أهلية أو ما يسمى بمنظمات المجتمع المدني، هل تذكر كيـف جمع آباؤنا المـالَ والتبرعات لتبليط الشـارع؟ كانت فكرة صغيرة تحولت إلى مشـروع كبير أنقـذ الناس من الطين والوحل في الشتاءات الممطرة.

****

إننا ننشغلُ بأمورٍ أخرى كبيرةٍ لها علاقة بالميتافيزيقا والبوليطيقا أو الثرثرة والقال والقيل وملاسـناتٍ ومناكفـاتٍ ومماحكاتٍ، بل ومهاتـراتٍ وفجارٍ وحساسـية مفرطـة، ازدادت عندكم أكثر من السـابق، وننسى مشـاكلنا اليومية. الله يبعدكم عن شر الوسواس الخناس والنفاق، فقد تؤدي لا سمح الله إلى العنف والقتل.

قد تكـون خلافاتكم مـن جـرّاء الحصار المفـروض عليكم والضغوط النفسـية ووضعكم غير الطبيعي حاليًّا، لكن مهما يكن الأمر فإن الإنسـان يجـب أن يأخذ الأمور بهـدوء ورحابة صدر، ويعمل كل ما يمكنه ضمن ظرفه الخاص. كفى! يعني كفى! ييزي، ييزي قهر عاد! الحياة أثمن شـيء لدى الإنسان، قصيرة وجميلة، وعليه أن يحياها بكرامةٍ وعزةٍ وسعادةٍ.

عزيزي يونس!

ذكرتَ لي كعادتك في مكالمتـك التلفونية الفرط صوتية بأني "دوختك"، لم تلفظ هذه المفردة صراحةً، قلت لي ساخرًا، أعتقد، وكمـا أتذكـر أنك قلتَ لي إنـك كتبت قصيدةً، قرأتَهـا من ورقةٍ جاهزةٍ بين يديك:

"أنت مع الآخرين حنون وإنساني! لكنك دومًا تنساني! لو كنتَ مكاني لكفرتَ بالإنسـان! تكتـب لنا عن الرفـق بالحيوان! بينما نحن من القحط والحصار والفقر نعاني! أنا وروميو ممسـوخان! بالحضيض، مـع الأرض ممسـوحان! وأنت كأنـك تتقصد، هيك

بالعاني! خبصتنا بالسومري والبابلي، وهما مجنونان! يا أخي إنهما منتهيان، لا يريدان الحياة في هذا المكان! دعهما يرحلان! ييزي عاد! آن الأوان! اسحبني وأنا أحل لك مشكلتهما معًا بالمجان! كُن ودودًا معي أنا الحيوان!"

والله حقكم! قسمًا بالله حقكم أن تضجروا وتتصوروا أن الأمور ستكون سهلةً في أي مكان آخر تتجهون إليه، هناك مثل روسي يشبه وضعكم ما معناه: "هناك حيث لسنا موجودين أفضل!"، ومع ذلك سأتحرك، سأرى كيف عليّ "سحبكم" أو أجد من يقوم بذلك بتمويلي! أنت تعلم أنه أمر ممنوع! تهريب البشر! أنتم في حالة يأس قاسية، تتصورون أي مكان آخر لا تعيشون فيه هو الأفضل، لكن هناك أمرًا مهمًّا، أنتم في الحقيقة عصبيون أيضًا لأنكم تعودتم على حياة بحبوحة سابقًا، افتقدتموها الآن، ستعود لكم حتمًا وستعيشون ظروفكم الجميلة، وستبذرون الأموال وترمون الطعام الفائض يوميًّا في أكياس الفضلات والقاذورات، أمّا نحن، فسنبقى كما نحن أجانبَ وغرباءَ لاجئين ومغتربين، مثل السمك "مأكولون مذمومون".

وسيأتي بعدنا أبناؤنا، سيكون وضعهم أسهل، لكن من يدري؟ قد يكون العكس صحيحًا! قد يُهجرون من موطنهم الجديد عندما يكبرون وينافسون أهل البلد في العمل وتقاسم الخيرات والثروات والسلطات إذا لم يتعلموا قوانين اللعب ويتقنوها! هذه السردية لن تنتهي، سيزداد التنافس والصراع.

حكى لنا بعض القادمين من العراق، على ندرتهم، بأن الناس هناك لا يزالون "همّهم على بطونهم" كما نقول، يبذرون الطعام، يخرجون إلى المطاعم رغم الحصار، ما أدهشنا كثيرًا واعتبرناه أمرًا غريبًا.

أعتقد أن الحصار هذا ممكن أن يكون أفضل فرصة للإنسان

العراقــي ليتوقــف أمام تاريخــه وتجاربه لتغييــر حياته على كل المستويات، بدلًا من الهروب والنفاذ بجلده وحيدًا بعيدًا عن أهله وأقرانــه. من المؤكد أنك ســتقول لي: أنت في وادٍ ونحن في وادٍ آخــر! أنا أقــول لك كل هذا حبًّــا لكم! لــو كان الطريق إلى هنا مُعبّدًا بالورود أو ســهلًا فأنا أول المشجعين للخلاص من وضعكم الاقتصادي!

نحــن، أقصد الذين لدينا ميزانية محــدودة لا نرتاد المطاعمَ، إنهــا غاليــةٌ، ومضطرون إلى الاقتصــاد لتكفينا رواتــب الإعانة، والحمد لله صافية دافية ومســتورة، "السماء صافية والدنيا هانية ودافية" كما يقولون في المغرب. والحمد لله طلباتنا متواضعة ولا نفكر بجني المال، وإلا لفكّرنا بأعمال حرّة، أنا أحكي عن نفســي وليس عن الآخرين.

الناس هنا من أهل البلد يتســوقون بحذر، ممســكين بأياديهم قائمة حاجاتٍ يريدونها، يشترون ما هو ضروري لهم، ولا يكثرون منهــا ليوفروا وقتهم ومالهم، لا يرمونها في صناديق القمامة كما نفعل نحن في الشــرق، ويا ليتنــا أصلًا نقوم بذلك، ففي الحقيقة أننا نبعثرُ زبالتنا في الشارع لتتمّم القطط والكلاب السائبة حركةَ الأشياء الشنيعة والكائنات البوهيمية في المجتمع.

إنهــم، يا أخي العزيز، يفرّقون فضلاتِهم حســب نوعها وصنفها وجنســها وأصلها وفصلها! الطعام لا يُخلَط مع البلاستيك، والزجاج يعزل على حِدَةٍ، والأخشــاب وأغصان الشــجر والأوراق لها أماكنها الخاصة بها، المعادن تُحرق وتُتلف ويُعاد تصنيعها وتدويرها وتحويلها، يُســتفاد منها في توليد الغاز والطاقة وتستمر في حركتها الفيزيائية والاجتماعية والمجتمعية المنظمــة نحو الصناعات التحويلية، هكذا هــي دورة الحيــاة، لا مكان للفوضى هنــا، لا كلاب ضالّة أو قطط ســائبة، فهؤلاء مدلَّلون معزَّزون مكرمون مصانون، مواطنون لديهم

جوازات سـفر، تُجرى لهم لقاحات عند أطباء بيطريين يتسـلّمون أجورَهم العالية، إياك من إساءة معاملتهم، إي نعم، ليس كما عندنا يضربون الكلاب أثناء ممارستها لغرائزها، حتى المثل يقول: "حصرة الكلب في الجامع"، إنها ملحمة الحياة الجديدة!

****

قد تقول لي: إنك تتفلسـف! ستخبرني بذلك بالتأكيد، و: "إننا فـي حال أخرى، عندنا الناس مذلّون مهانون، مهمّشـون، نحتاج لكتّـاب كُثرٍ من صنـف الدوستويفسـكيين ليعبّروا عـن حالهم، أصلًا لا يوجد مصطلح يصف حالتهـم". أعتقد يمكن أن نصفهم: ممسـوخون، أو بالأحرى: "ممسوحون بالحضيض، وأنت تكتب لنا عن الرفق بالحيوان! هههه!"، كما كتبت لي مرة في إحدى رسائلك "الطيّارية" المقتضبة كالعادة، وطبعًا ليس لديكم وقت للحيوانات، لكن هذا لا يبرر ضربهم أو إساءة معاملتهم.

صدقنـي إن كففنـا عن إسـاءة معاملة الحيوانـات، وبالذات الـكلاب، فإننا سنحسـن التعامل مع الإنسـان، وسـنضع الرجل المناسـب في المكان المناسب، وستنطلق الأمة إلى عصر الأنوار ونخرج من الظلمات!

هذا أمر غير طبيعي، وضع لا يُطاق، لمَ التعامل مع الحيوانات بهذه الوحشـية والعدوانية؟ لم هذا السلوك اللاإنساني؟ لا بُدّ أن يحدث انفجار وقلب الأوضاع على يد الأجيال الجديدة.

أنـا لا أتفق معك في هذا الرأي، أعني قولك بأنكم مشـغولون في ظروف الحصار، وليس لديكم وقت للرفق بالحيوان، كل الأمور مترابطة.

وإننا بأمسّ الحاجة إلى حركة جذرية دائبة وشـمولية تبدأ من الطفل والحيوان ولا تنتهي بشيء، حدودها غير متناهية، لانهائية، لا حدود فيزيائية زمانية أو مكانية.

نحن قــدوة لأطفالنا، من الضروري أن يــروا كيف نتعامل مع الحيوانات، على الأقل لا نضربها بلا ســبب. يجب أن تتسع دائرة هــذه الحركة إلى الفضاء الأعم والأشــمل والأوســع والأرحب، لا يجب الهروب إلى بلاد "برّا" لنتخلص من مشــكلة الكلاب السائبة فــي بغداد، بل ننظر إلى الحالة نظرةً شــموليةً إنســانيةً، لا يصح أن نتذرّع بالحصار والظروف القاســية، نترك القمامةَ مبعثرةً في الشوارع، والحيوانات سائبةً.

صدقنــي، إن الذرائــع والحجج لا تنتهي، كثيــرة لا تُحصى ولا تُعــد لتبرير التقاعــس والإهمال، لكن إلى متــى؟ وإن العالم كله مترابــط، وظواهره ومكوناته _ناطقةً كانــت أم صامتةً_ نافعةٌ لا تضر وتستحق عنايتنا نحن البشر.

علينا التريّث قليلًا قبل أن نخطو ونضع قدمنا على الأرض لئلا ندعس نملــةً تدبُّ حاملةً مؤونتها، في طريقها إلى تخزين قُوتِها، أو حلزونًا مختبئًا في قوقعته أو علقة تزحف نحو الماء.

لاحظ، مرةً أخرى، كيف "نســيت نفســي"، كمــا نقول، وتركت موضوع كتابة الرسائل أو "الرسايل" كما كانت جدتي تقول.

التقيتُ ببعض الأغنياء من دولنا، لم يكتبوا رسالةً واحدةً طوال حياتهــم، حتى وإن كانوا يعيشــون في قارة أميــركا بعيدين عن ذويهم في آسيا أو أفريقيا مثلًا.

اندهشــتُ للأمر، ســألتُ أحدهم عن الســبب، أجاب مبتسمًا: "الرســائل تُمَلِّــل ومتعبــة، إحنه تنابلة الســلطان عبــد الحميد!"، وأضافَ: "كنّا نســتخدم الهاتف رغم غلائه، نتحدث به لســاعة أو ساعتين، ولا ندفع التكاليف"!

****

إنهــم في حقيقة الأمر أغنياء جــدًّا، تدخل في جيوبهم النقود بســرعة، وما تجلبه الرياح تأخذه الزوابع يا رجل! أو إنهم يسيئون

التصــرف بممتلــكات دولهــم ومناصبهم، يتصلــون بالخارج من هواتــف حكومية ولا يدفعون تكاليفها! يعني "مال عمك ما يهمك! حرامية، يســتغلون وظائفهــم"، بينما الهنود الذين يســخر منهم بعضنا على طريقة "شايفني هندي؟" على أساس الهنود لا يفهمون شــيئًا؛ مغرمون بكتابة الرســائل الطويلة وباللغة الإنجليزية، نحن لــم نتعلم من الإنجليز أي شــيء، لا نعرف "الچــوك من البوك" على قولة المثل العراقي، و"شــايفين نفسنا فد شوفه عالفاضي!". بالمناســبة هل تعــرف أن أصل هاتين الكلمتيــن من الإنجليزية؟ چوك: طباشير، بوك: كتاب!

تصوّر، كادَ أحد المدرســين الإســكندنافيين، اسمه جون، أن يجن جنونــه عندما أخبرتــه بالأحاديث الهاتفية الطويلــة و"المعمّقة" من الشرط الأســوأ، أقصد الشرخ الأســود، يا إلهي الشرج الأخزق، والله ابتليت بلَوه بهذه الأخطاء، يا سيدي أقصد الشرق الأوسخ، لا، لا، عفوًا الأوسط، نعم، الشرق الأوسط الجميل أو أفريقيا إلى أميركا وبالعكس.

_ كيف؟ مســتحيل، لا أصــدق ذلك، إنه أمــر غريب وعجيب، إنــه أمر فظيع! الاتصال التلفونــي إلى الخارج غالٍ! من أين لهم النقود؟

وغبطنــي اليوم، عَلِمَ بأني أتبادل الرســائل معكم، أخبرته عن مشاغلي وعدم استطاعتي إكمال هذه الرسالة منذ عدة أيام.

ألح علــيّ بتكملة الرســالة وإنهائهــا وترجمتها واســتخدامها كطريقــة لتعليم اللغة وتحليــل النصوص ومقارنة البســيطة منها بالعاديــة و... إلخ مــن أمور قد تبدو لكم جميعًــا مضحكةً للغاية، وأنتم في ظــروف تعانون فيها من الحصار والحرمان. لا بُدّ أنك تتساءل عني: "بشرفك هذا مو بطران؟".

هؤلاء الناس هنا مضطرون لتنظيم حياتهم الاقتصادية واليومية عمومًا كما يجب، لكن كلَّ شــيء يجب أن يكون في مكانه، لا مكان

للفوضـــى، هُم يعانون في هذه الفترة من البطالة، وكثيرًا ما تســمع منهم الشــكوى، كثيرًا مــا نلتقي أصحاب الرواتــب المحدودة مثل المعلميــن والموظفين الصغار والعاطلين عــن العمل. عمومًا، أغلب ســكان هذه الجزر لا يُحب التظاهر بالثراء، بل التواضع والبساطة. "عالبساطه البساطه! يا عيني عالبساطه"، كما تغني الشحرورة صباح!

المسألة ليست ماديةً فحسب، بل معنوية وروحية، هذا المدرس جــون "الهادئ" و"البطــران"، كما نقول، مثــالٌ يُحتذى، وعندما يكون الإنسان هادئ الطبع، ومستقرًّا وحرًّا في تفكيره واختياراته، فهو يستخدم كل شيء لتحسين حياته وطرق عمله. إنه يحبنا نحن الشرقيين، يريد لنا الخير والتطور وحرية الرأي والسلوك.

القضية أيضًا ليســت متوقفةً على تكاليف التلفون فحسب، بل الوقــت الثمين، وكما يقــول الإمام علي: الوقت كالســيف إن لم تقطعه قطعك! الله أكبر! كلام مخيف فيه سيوف وقَطع رؤوس!

الطريــف أن لدينــا في التــراث الكثير من الأشــعار والحِكم والمقولات عن الوقت الثمين وضــرورة الالتزام به، لكن كل هذا حكي بحكي!

يا أخي، بصراحة، حياتنا في الشــرق فوضــى، زعيق وصراخ، غير مقبولة بالنسبة لنمط الحياة الأوروبية الغربية هنا. طبعًا الجو يلعــب دورًا كبيرًا، الناس هنــا أيضًا "يفلتونها" فــي أيام الصيف الســاخنة، "حبّيتك في الصيف" على قولة فيروز، ولاحظتهم أيضًا أحيانًا يميلون للفوضى والاســترخاء، لو كان بإمكانهم عمل ذلك، الإنســان إنســان أينما كان يحب الراحة وإطــلاق العنان لغرائزه ورغباته.

هُم بشــر لا يختلفــون عن الآخرين، لهم مشــاعرهم ويحبون الاستمتاع بالتنزه في فوضى الشرق أثناء رحلاتهم في إجازاتهم.

****

الوقت يا صديقي كنز نفيس، وإذا سـألت رجلًا متعلمًا ومثقفًا عن موارد دولة رفاهية صغيـرة مثل الدنمرك باعتبارها بلدًا غير نفطـي ولا يحكمها رئيـس "عِفْطي"! أرعن، مـدّعٍ لا يعرف كيف يدير وطنه، سيقول لك: "نفطنا" أو ثروتنا تكمن في وقتنا وتنظيم إنتاجية العمل وإدارته!

معلـوم، الدنمـرك يزود اليابـان لوحدها بكميـات هائلة من لحوم الخنازير تجلب له مليارات الكرونات، بينما تُصدّر نيوزلندا وأستراليا اللحومَ إلى الدول العربية.

أليس هذا غريبًا؟ نحن لدينا الماء والمرابع الخضراء والشمس السـاطعة والرعاة العاطلـون عن العمل؟ فمـاذا نبيع غير النفط وماذا سيصير حالنا بعد نضوبه؟

بالتأكيد سـنلتهي بتكريز "بذور البطيخ أو الشـجر والقرع أو اليقطين" أو "دق حنك" كما يقول أشقاؤنا الشوام!

تصور! إننا كنا ومنذ السـبعينيات نكرر وباسـتمرار أن النفط نقمة وليس نعمةً، وكنا نتمنى أن ينضب ونخلص منه ومن مشاكله، أصبحنا عالةً عليه ولم نسخره للتنمية ولم ننوع اقتصادنا، لكن كل ذلـك كان ولا يزال "حكي بحكـي"، ومجرد أن يتوقف ضخ النفط فإن الحياة والحركة سـتتوقفان ويعـود الزمان إلى الوراء. نصبح كفِيلم "الرسالة"!

****

أصلًا، نحن نتاج الفوضى والعبث بالوقت منذ يومنا الأول في هذه الدنيا، حيث تضعنا فيه أمهاتنا، وهوس العلاقات الاجتماعية والعائلية والقبلية والمشـاكل والخصامات والصلح وتبويس اللحى والولائم والزيارات والمبيت عند الأهل والأقارب، كيف يمكن إذن أن ننشـأ في مثل هذه البيئة والظروف ونحصل على طفولةٍ مليئةٍ بالنظـام والروتين والترتيب، كاملة، وكيف إذن لأمهاتنا أن يوفرن

الرعاية ويعطين الحنان الكافي لأطفالهن وهنَّ منشغلات بإعداد الطعام للضيوف؟!

هــل تتذكر كيف كان الأطفــال يقفون في الشــارع منتظرين ومســتقبلين قدوم الضيوف، يهرولون إلى أمهاتهم حالَما يرونهم من بعيــد صارخين: إجو! إجــو! إجو! إجو! إجــو! وأهل الجنوب يلفظونها "إيو! إيو!" وكنا نضحك! طبعًا لا تتصورني أهمل الجانب الإيجابي من أسلوب حياة الناس عندنا، لكنها تبقى هدرًا للوقت!

تعرفنا هنا على عراقيين من جماعــة "إيَوْ، إيَوْ"، أقصد "إجَو، إجَــو"، ليس هنــاك أطيب منهم، لكنهم لا يزالــون على فطرتهم، طرقوا بابَنا بلا "إحم ولا دستور" وهم يقولون: "ليش ما تيوونا؟"!، كنا وقتها نستعد للخروج بالدراجات، أنا بادرتهم، قلتُ لهم بأريحيةٍ وروح رياضيةٍ: "يلّه شــباب خلّونا نطلع! تعالوا ويّانا، شركة السكن تنظم سباق البايســكلات"، فتحت المرأة فاهَا صائحة "هاااااع، أنا أسوقَن بايسككييل؟" متطلعة إلى حجم مؤخرتها هي وزوجها، غرقنا في الضحــك. في الحقيقة قضينا وقتًــا جميلًا معهم فيما بعد. ناس طيبون وبســطاء، عفويّون علــى قد حالهم، ومملوحون بكل معنى الكلمة!

وهل تتذكر كم كنا نفرح عندما يحدث انقلاب عسكري ويُفرض منع التجــوال! كيف كان الناس يهدرون الزمــن، الأطفال يلعبون ويلهون، فــي البداية أمام أبواب بيوتهم، ثــم يبتعدون قليلًا إلى الشــوارع العامة الخالية من الســيارات، الأولاد يلعبون كرة قدم، يطيّرون الطيارات الورقية، أما البنات فيتقافزن على رجل واحدة بين مربعات مرســومة بالطباشــير على الأرض يلعبــنَ، فرحاتٍ مبتســماتٍ، لعبةَ "التوكي"، والآباء يجلســون هنــا وهناك يحللون الأحداث السياسية، قسم آخر يلعب النرد أو الدومنه، لا أحد يلعب الشــطرنج، أما الأمهات فمطابخهن مراتعهن يتحدثن هامســات

متوخيات الحذر في أثناء الراحة عن الأمور العاطفية والحميمية.

يا الله ما أحلاها من أيام! كانت مليئةً بالمغامرات والمهاترات والبيانـــات والأخبار والتحليـــلات. هل تتذكر صـــورة الزعيم عبد الكريم قاسم؟ "الأوحد"! كما يسميه مناصروه، أما أعداؤه فصاروا ينعتونه: "الهمشـــري" و"قاســـم العراق!"، ولا بـــدَّ أنك تتذكر كيف يبصق عليه ذلك الجندي العراقي، ما أقســـاها من لقطةٍ لن تُمسح مـــن ذاكرة الأطفال! وهل تتذكر قولَ المذيع: "اخرســـي موســـكو عدوة الشعوب؟".

أو محكمة المهداوي، ومذيع آخر يردّد عن امرأةٍ: "تدخل وعلى وجهها المساحيق"! أما آن لها أن تتوقف هذه القساوة!

لا أعتقد أنك عاصرت هذه المشاهد، ولا حتى أنا، نحن صنوان من نفس "الموديل"، ولدنا في العام نفســـه، أنا شـــاهدت البصاق على جثة "الزعيم" من خلال شاشـــة التلفزيـــون، أجل أتذكر هذا المقطع المروع، أعتقد كنتُ في التاســـعة من عمري، أما الأحداث الأخرى فقد ســـمعنا عنها تتردد على ألســـنة الكبار افتخارًا بها أو بالعكس، كلٌّ حسب اعتقاده وهواه وانتمائه. أمر غريب عجيب، كلها مرفوضة مهما كانت الذرائع، عمليات انتقامية خارجة عن القانون يندى لها الجبين، وبعيدة عن القيم الدينية والأخلاقية والمدنية!

الأطفال والكبار يشاهدون هذه المقاطع المؤثرة على نفوسهم وتربيتهـــم، هـــذا أمر غير مقبـــول إطلاقا! يا أخي نحن شـــعوب مصدومة نفســـيًّا من وجهـــة نظر الغربيين، مرضـــى! وفوق ذلك نســـمعُ باســـتمرار نشـــيد: "الله أكبر، الله أكبر فوق كيد المعتدي، والله للمظلوم خير مؤيد... قولوا معي، قولوا معي الله أكبر".

لا أخفيك ســـرًّا أني كنت معجبًا بالذات بهذا النشـــيد، ولا أزال غير متخلٍّ عنه رغم ما أكتبه لك الآن، "قولوا معي، قولوا معي"... إنه جزء من هويتي وتراثي وشـــخصيتي وتكويني وروحي وكياني،

إي صحيح، لا تفهمني غلط، لستُ ضد النشيد ولا الكلمات واللحن، لكن لا أحبُّ إساءة استخدامه من قبل القوى المتصارعة على السلطة. لو أخبرتَ شخصًا من أبناء هذا البلد بأنك مررتَ بهذه التجارب في طفولتك سيقول لك: إنها مليئة بالصدمات، إنك منذ صغرك تعودت على القتل والعنف والإرهاب، أو مصدوم نفسيًّا وما عليك إلا العلاج عند الطبيب أو المحلل النفساني! أكتبُ لك هذه الكلمات وأشعر بأن الفرقة ورائي تردد: قولوا معي! قولوا معي!

لكن أصحاب الجلود "المدبّغة"، قولوا معي! يتحملون أكثر من الآخرين المدللين، قد تكون "الإيجابية" الوحيدة في نمط حياتنا الفوضوية أننا نتحمل أكثر من المرفهين، "قلبي معلّم على الصدعات"، كما يغني ناظم الغزالي، كأننا مطعّمون بلقاحات لتحمّل الصعاب!

طبعا سيستفزنا هذا الكلام، أقصد أننا مصدومون نفسيًّا، ونعتبرها أحكامًا مسبقة وإهانة لنا من الآخر، كما لو أننا مجانين بينما هُم أصحّاء نفسيًّا. سنردُّ عليهم متسائلين: هل هناك أحلى من أغنية "طالعة من بيت أبوها رايحة لبيت الجيران؟" للمطرب ناظم الغزالي نفسه؟

وفي الحقيقة أن بعض الشرقيين هنا، هم أيضًا لهم أحكامهم النمطية أو "دمغاتهم" على أهل البلد، يلاحظون أن أغلب الأوروبيين، وبالذات أهل الشمال، منغلقون على أنفسهم، مقَولَبون معلّبون، يعانون، مُرضى نفسيًّا، لا يجيدون التعامل مع الآخرين لمجرد أن يصابوا بنكسةٍ بسيطةٍ.

وإنهم يتعاملون مع الإنسان كالماكنة أو "رقم شخصي"، ما لم يتقربوا منه ويتعرفوا عليه ويطّلعوا على حياته وسلوكه، بخاصة إذا كان أسمرَ غريبًا، من الدول غير الغربية كما يقولون، طبعًا يقصدون المسلمين، وهذا الأمر يحتاج إلى فترة طويلة، منهم من يفصل بين

عملــه وحياته الشــخصية بطريقة لا تُحتمل، فــإذا رآك صدفةً في الشارع لا يلقي التحية عليك! كأنه سد منيع. فظييييع! وشنيع وقبيح! كيف يكون ذلك؟ انتبه! التعميم ممنوع والعتب مرفوع!

****

أنا شــخصيًّا لم أعانِ من هذه الأمور إطلاقا! بل أســرد لك ما أســمع من الآخرين. على فكرة أنا لا أكتب عن نفسي، كما ذكرت لك ســابقًا، بل عن الآخرين، ومنهم أســتلهم القصصَ والحكاياتِ ويزيد عليها المنقّح!

قد أكون أدّعي ذلك، فالأمــور تضيع وتختلط أحيانًا، لكنه أمر غير مهم الآن. وإنّ كل ما أذكره من أسماء ليس حقيقيًّا، أبدًا، كلها من خيالي فضلًا عن إضافات "الشيطان"، تعرفه؟ ذكرته توًّا، صار يكتب رســائلي كمبيوتريًّا، لعين، يضيف إليها تعليقاتِه، إنها واقعية غير وثائقية!

أجل، هناك لاجئون ممّن يعتبرون أغلب أهل البلد الأصليين أو بعضهم أقرب للمرضى النفســيين، يعانون من ضغط نمط حياتهم المتعِب حتى بالنسبة إليهم، هُم يرتاحون في عطلة نهاية الأسبوع فحسب، لا يجيدون الاستمتاع بأوقاتهم في الأيام العادية بعفوية!

لكل إنسان انطباعاته الشخصية، والحق يقال إن أغلب اللاجئين يشيدون بطيبة أهل البلد ومساعدتهم إياهم.

المشــكلة أن يومهم هنا في إســكندنافيا قصير، يعني المدينة تبدأ "تعزّل" بالسادســة مساءً، أغلب السوبرماركتات تغلق في هذه الســاعة، ويقضون أوقاتَهم في مســاكنهم بعد العمل، في الشتاء الطويل.

نحن شــرقيون مســائيون نتســامر في الليالي، نســمع أغانيَ طويلةً "ألــف ليلة وليلة"، "بقى يقلّي وأنا أقلّــه" تردّدها أم كلثوم عدة مــرات ونطرب عليهــا، بينما هُم من جماعة "باكِر تُســعد"،

يفيقــون في الصباح الباكر، يفطرون مــع أطفالهم، يتجهون إلى العمــل رغم البــرد القارس الشــديد، مبرمجــون، "مُكَوّكون" مثل الســاعة علــى المواعيد والترتيــب المبالغ به، علــى النقيض من أهل الشــرق والجنوب، الشمس تشرق، بالذات في الدول الفقيرة، الرجال يتسكّعون و"يعملون" في المقاهي ويتسطّحون في الحقول والمراعي يلعبون ببيضاتهم، البيوت صغيرة تسكنها عائلات كبيرة.

ليس لهم إذن من مكانٍ غير الشــوارع والســاحات والأسواق، "يروشــون" فيها غادين رائحين، بينما النساء يعملن في منازلهن، الطبخ والنفخ وتربية الأطفال و"طق حنك" مع جاراتهن.

الشــرقيون هنا، بالــذات اللاجئــون الهاربون مــن الحروب المصدومــون المتخمــون بالمشــاكل والهموم، يقولــون هم عن أنفسهم بألسنتهم، وأرجوكم لا تقوّلوني، بأنهم "مشيطنين وكلاوچَية وبرابيــك!"، تصــور كيــف نترجم الكلمتيــن الأخيرتيــن؟ هههه! كلاوچَيه: غشّاشــون، "بناديق تيمورلنغ! بَرابيك مفردها بربووك، أو بربــوق، يعني: "قُلّه"، "كوز، تُنگــة" فخارية لتبريد الماء، يُقال: بربووك لا يغرق! ثلمة ومكسورة لكثرة استعمالها، ولم تعد صالحةً، المرأة اللعوب أو العاق، العاهرة تدبّر أمورها حتى في شيخوختها ويكف الرجال عن الاهتمــام بها، يعني أكثر مرونة وتفهمًا للواقع المرير والآخرين وانســيابية، واجتماعيون يأخذون الأمور برحابةِ صدر وبســاطة، يمزحون كثيرًا، وكما يصفون هُم حالَهم بأنفسهم "مدبوغون، وينطبق عليهم المثل: المبلل ما يخاف من المطر".

لكن ليس كل هؤلاء المصدومين اللاجئين من هذا النوع، هناك من هو فعلًا مريض لا يســتغني عن الدواء، يعاني نفسيًّا ويذهب إلى العلاج عند النفســانيين، أو بالحقيقة يدمنون على مراجعتهم، وغالبا ما يحصلون على المكان المناسب للتعبير عن همومهم.

هذا أمــر طبيعي هنا، ليس كما هي الحــال عندنا، في بلداننا

العتيدة وشعوبنا المجيدة، يعتبرون كل من يعاني نفسيًّا مجنونًا!

لن أدوّخك الآن بمثل هذه "الطراقيع"! لا بُدّ أنك تتذكر مدرسَ العربيــة، كثيرًا ما كان يردد ضاحكًا "طرقاعه تطرقعك"، لكنه كان مع ذلك يتضايق من ضحكنا قائلًا: "عيب! احترموا أنفســكم"! شر البلية ما يضحك.

المعلمــون هنــا كانوا ســابقًا أيضًا متشــدّدين، لهــم هيبتهم، يستخدمون الضرب، معلوم! "مو بس إحنه!" وعندما تشاهد الأفلام الدنمركية مثل مسلســل ماتادور عن الأزمنة القديمة تلاحظ أوجه الشــبه بينهم وبين الشرقيين، لكن هذه البلدان تغيرت كثيرًا بفعل عصر الأنوار أو التنويرية والحداثة.

أما عندنا، نخرج من مشــكلةٍ لندخل فــي أخرى، أجَل، أزمة تلد أخرى، أو حربٌ تلد أخرى كما عبّر أحد الكتّاب، بل كارثة إثر أخرى، كلها حروب ومآسٍ ومحارق، أكون ســوداويًّا أحيانًا، أدعو مثل ثائر السومري إلى رمي أنفسنا جميعًا في التهلكة، نطمرها، لنذهب إلى القيــر وجهنم وبئس المصير، نحن لا علاقة لنا بأصولنا وحضاراتنا القديمة، لســنا ميسوبوتاميين مهما ادّعينا ذلك! لا، لا، أمزح معك، لا نزال نحمل جينات شــعب عريق، نسعى لمواكبة الحضارات لكننا لم نؤســس دولة مستقرة، إنها نتاج تخلفنا ومن دون حركة تنويرية حقيقية جذرية، ولدت كسيحة وفاشلة. "صبح، عشية، تربية قومية!"، كما كان الأطفال الليبيون يرددون، لكن من دون فائدة!

قرأتُ اليوم في إحــدى الصحف مقاطعَ كتبها لاجئ هنا، على الأرجح عراقي، كأنه لســان حالي، لا بــدَّ أنه يكتب عن الآخرين، أنقله إليك:

"دعني على سبيل المثال أشرح لك كيف أقضي أيامي في الفترة الحاليــة، والتي ســتطول إلى مدة عــام أو أكثر. يوميًّــا، أخرج من الصباح الباكر لحضور دورة تأهيلية، اشتركت فيها في الفترة الأخيرة

حتى الساعة الخامسةِ، إلا أني أصِلُ البيتَ في السادسة مساءً.

أخرجُ مــن البيت متهيّجًــا، عفوًا أقصد متجهًــا صوب محطة القطار بالدرّاجة الهوائيــة، غالبًا ما يكون الجو ممطرًا، قد ينبهر بعضهم إيجابًا أو يندهش ســلبًا، وسيتساءل "عجبًا، لماذا لا تسوق سيارة، أنت تعيش في أوروبا؟". قد تندهش أو تستغرب بل تستهجن هذا الأمر كونك لا تقوم بمثله، لا أنت ولا غيرك يستخدم الدراجة كواســطة نقل حقيقية وبديلــة إلا ما ندر، ولو قمتــم بذلك لَنظرَ الناس إليكم باســتصغار، كيف يقودُ المعلم أو الموظف الحكومي مثلًا دراجةً؟! لا تتصور كم كنت أحترم سعاة البريد وأحبهم، وهُم يجوبون شوارع بغداد بدراجاتهم!

أنا الآن لســتُ معلّمًا ولا موظفًا، أنا عاطلٌ، عن العمل رســميًّا، عطّال بطّال فحسب يا حبيبي، لكني أتخرج من دورة تأهيلية لأبدأ بأخرى على أمل الحصول على عمل. مدرسنا أيضًا يأتي إلى عمله بالدرّاجة، وبعض الوزراء والنــواب يقومون بذلك، بالتأكيد فيهم الصادق ومنهم الحاذق يتظاهر بالتواضع. من يدري؟ الله أعلم ما في القلوب، لكن فضائحَ بعضِهم كثيرةٌ، لم أعد أثق بهم!

أما نحن في الدول العربية "نســتنكف" كثيــرًا من عدة أمور، معلوم، هــذا من طبعنا نحن العراقيين أو أبــو عرب، الواحد منا لو يســوق سيارة رولز رايز لو ماكو! لا، هذا مجرد مزاح، وهو في الحقيقة تعميم لا ينطبق على كل الناس، بل الأثرياء منهم فحسب.

الناس هنا، كما سبق أن ذكرت لك، يستخدمون الدراجة ذاهبين إلى العمل في الصباح الباكر. تصور ماذا سيكون رد فعل العراقيين لو رأوا أبناءَ بلدهم، وبالذات الأمهات الشابات يضعن أطفالهن في مقاعدَ خلفية لدراجاتهن متجهات لتســليمهم إلى رياض الأطفال قبل ذهابهن إلى عملهن! هلووو! هلو عيني!! هلو داد!

بالتأكيــد ســيقولون عنهن: "بنات شــلنفص! صايعــات، بنات

شوارع! يتفلسفنَ، يتعيقلن!"، وماذا سيحصل لو أن أمهاتِنا يقدن الدراجات في شوارع بغداد؟ بالتأكيد سيركض وراءهن الأولاد والشباب والأطفال و"يطقّون إصبعين" على الطريقة العراقية! وقد يجرون وراءهنَّ، يصرخون ساخرين: هَيْه، هَيْه، مخبلة!

****

أنا أعلم أن هناك العديد من العراقيين ممن ينظرون باحترام واندهاش وانبهار إلى الأوروبيين عندما يرونهم من خلال شاشات التلفاز يسوقون دراجاتِهم، يردّدون "شوف اشگد حلو! بس احنه ليش مو مثلهم؟"، لكنهم لا يقومون بالشيء نفسه، إنهم يا صاحبي يقلدونهم في موضات ملابسهم وقصّات شعرهم والإكسسوارات، مجرد قشور ومظاهر سطحية فارغة. هذه هي الطامة الكبرى! لا أزال أتذكر، والحق يقال، إن والدي كان يستعمل الدراجة للنزهة والترفيه والترويح عن النفس، لشراء بعض الحاجات الضرورية، بالذات عندما تقاعدَ عن العمل.

أتذكر أيضًا أن أختي الكبيرة كانت في بعض الأحيان "تستنكف" من هذا الأمر، أو "تستعرّ" _كما يقول أشقاؤنا وحبايبنا المصريون_ وكان الوالد يرد عليها بأن الوزراء ورؤساءهم في السويد وهولنداوالدنمرك يذهبون إلى العمل بواسطة دراجاتهم. أجل كان ذلك في السبعينيات.

قد يكون أنهم _والسياسيون منهم بالذات_ يعملون ذلك، كما قلت لك سابقًا، مجرد مظاهر لإكمال اللعبة الديمقراطية الإسكندنافية، وللحصول على أصوات الناخبين، لكنهم ليسوا أغلبية.

بفضل والدنا، قدنا أنا وأخي الكبير الدراجات في طفولتنا وصبانا، لغرض اللعب والنزهة، ليس كواسطة نقل إلى المدرسة أو الجامعة مثلاً، كما هي الحال هنا، باستثناء الذهاب لشراء الخبز وحاجات أخرى. وكان هناك طبعًا نسبة قليلة من العمال

والكَسَـبة ممن قاموا بذلك، إنها توفر للإنسـان امتيازاتٍ وفوائدَ صحيةً واقتصاديةً لا مثيل لها، رغم عدم توافر الطرق المناسبة.

أتذكّر أن شـارع الجمهورية كان فيه بعـض راكبي الدراجات الهوائية متجهين إلى سـوق "الشـورجة"، حيث تقع هناك، أعتقد ذلـك. نعم، أفكر بذلـك! ألا ترى يا صاحبي؛ أنـا "أعتقد" كثيرًا؟ دائمًا أعتقد وأعتقد!

وأعتقد أن المنقّح سيضيف عليها "اعتقاداته"!

وكنت أرى الفقراءَ يستخدمون الدراجاتِ للعمل والتسوق ونقل بضائعهم في الأسـواق الشعبية المكتظة بالناس والسيارات، وأقلق عليهم.

ولا أدري من أين كانت تأتيني أيام زمان في نهاية السـتينيات والسبعينيات أفكار متحمسة لاستخدام الدراجات الهوائية كواسطة نقل جديّة بدلًا من السـيارات، قد يكون ذلك إلهامًا من أفلام كنا نشاهدها عن دول شرق آسيا أو هولندا وإسكندنافيا.

لم تكن الصورة سـوداويةً عندنا مـن حيث هذا الأمر، المؤلم أننا لا نتطور بشـكل لولبي أو حلزوني، بـل إننا يا صديقي يونس نرجع إلى الوراء مثل بول البعير، أقول لك مكررًا، أليست الفرصة مناسـبة اليوم بالنسـبة لكم في العراق لتسـتخدموا الدراجات، لا سـيّما أنكم تعيشـون تحت الحصار؟ بالتأكيد سـتقول لي: أنت "بطران"، وستسـرد لي الحجج والذرائع مثل الطرق السيئة والبرد القارس والقيظ! لكن يا أخي متى سـنبدأ تغيير أنفسـنا وأسلوب حياتنا، إنها كارثة إذا كنا دومًا نهرب ونتهرب من المشاكل ونبحث عن شماغات، عفوًا أقصد شـمّاعات مختلفة لنعلق عليها مشاكلنا ولا نبدأ بحلّها بأنفسـنا حلًّا جذريًّا لا يستثني جانبًا منها. ألم أقل لك سابقًا بأن الأشياء مترابطة وتستحق الاهتمام والحل".

أعرف أنك "تغار" من الشاعرين المتعبين نفسيًّا، وتريدني أن

أستسلم للأمر الواقع وأتركهما لشأنهما كي أتفرّغ لك! اطمئن، إنهما لم يشغلاني يومًا لا عنك ولا عن الآخرين. قلتُ لك سأسعى لأجلك وسأجدُّ وأجد!

إنهما إنسانان معذبان يريدان الخير لبلادٍ تعاني أنت من مآسيها! لكن دعني حبيبي الغالي أحدّثك قليلًا عنهما. إنهما بذرتان طيبتان، مريضان متعبان، حَمَلان وديعان، يحملان كل الخير لعالمنا.

ثائر السومري محبط، مهووس بفكرة دفن الناس عندنا أو طمرهم ببلدوزرات ورميهم في البحر أو حرقهم أو إتلافهم لئلا يدنسوا أراضي ما بين النهرين الطاهرة، ولّادة الحضارات، "غُمّان"، أنجاس مناكيد، فاسدون و"خربانون" لا يمكن إصلاحهم، ليس لهم غير الكب في النُفايات والطَّمّ بالحُفَر، هذا هو مصيرهم كي يتخلصوا من مساوئ حاضرهم الزفت! ولا علاقة لهم بالحضارات الميسوبوتامية السومرية والبابلية، وكثيرًا ما يردّد لازمته عندما يغضب: "اسلَيمَه التِطمهم، أمُّداهم! مَوتْ اللي يكرفهم!"، و"يَغمُّ" بيده فاتحًا أصابع كفّه الخمسة. يسمونه أيضًا ثائر "اسلَيمَه التِطمهم!". ويحتار كيف يشرح لغير العراقيين معنى هذه العبارات العراقية.

صديقه الآخر مناضل البابلي، أبو الهول الصموت أبدًا من القهر، يمارس العيش والشعر والرسم بصمت كما يقولون عنه، أجل، إنه الشاعر السكوتي! يكتب قصائدَ بيضاءَ بلا ضوضاء، لا كلمات ولا حروف ولا حركات، لكن برسم صغير أو علامة استفهام، قد يكون سومريًّا أكديًّا أو سريانيًّا أو عربيًّا، مثل: "لو" أو "هلْ؟" أو عنوان، يقول: إنه موقف مبدئي، صرخة احتجاج لإنقاذ العالم، وأسلوب إستيتيكي شعري حداثوي، وعلى القارئ أن يستوعب غير المكتوب، ورموزًا هلاميةً، ينتظر ظهور القصيدة الغائبة أو المغيّبة، المنتظرة، لتخلّص الشعر من الهلاك، ويستنطق الورقة

البيضاء عندما تحين اللحظة!

مــرات يســمونه مناضل "هَبْ بَيــاض"، مثل قطعــة الدومينو "البلاطه" بلا أرقام، يعني كلّه أبيض بأبيض، ساخرين منه! الغريب أن بشرته بيضاء شاحبة أيضًا!

لا بدّ أنه ســيأتي يوم؛ إما أن يموت قهرًا وهو في عز شــبابه، "يطُق من القهر"، وإما ينتحر، أعتقد أنه حســم مســألة الانتحار، لكنه متــردّدٌ حول الطريقة والتوقيت، أغلــبُ الظن أنه يفضل أن "يطمَّ" نفسه في باطن الأرض.

أنــا، لم ولن أقــول ذلك، أقصــدُ "الطمر"، إلا فــي اللحظات الشعرية اليائسة الحزينة، لكن حبًّا لهم هؤلاء المطمورين مستقبلًا والرغبــة الشــديدة لإنقاذهم من براثن التعفــن والعطن والنتانة والخلاص من التخلف المحيط بهم من كل مكان.

نعود إلى تغيير الذات بيــن المغتربين، الأجانب المقيمين هنا، هنــاك بعــضُ اللاجئين وبالذات مــن الدول الفقيرة أو المســلمة وغيــر الغربية، منهم من يفضل التوفير والتقتير و"التعتير" والطبخ والنفخ والعجن والخبز ولعب القمار على شراء دراجات هوائية لهم ولأطفالهم، ومنهم من لا يسمح لبناته بذلك خوفًا عليهن من فقدهن لبكاراتهن، ويتحججون ويتبجحون بمختلف الذرائع. فتصوّر!

أما اللاجئون من فلســطينيي مخيمات لبنان فحدّث ولا حرج، هــؤلاء ذاقــوا الأمرّين فــي حياتهم، عانــوا من الفاقــة والقهر والحرمان والتهميش والإساءة وفوضى الحياة بحجة عدم التوطين. والعراقيون جــاؤوا من كل مكان، الــدول والأمصار، والإيرانيون والصوماليــون والأفغان هربًــا من الحروب والحصــار و... إلخ، وعندك الحساب.

هــؤلاء يعانــون مما بعــد الصدمة، لهــم خلفياتهــم الثقافية والاجتماعيــة ومواقفهم الخاصة من الدراجات، بالذات بالنســبة

للفتيات والنساء.

أعتقد أن استعمال الدراجات مهم ولا داعي للتحجج بسوء الطُرق و"العيب" أو الخجل الاجتماعي، وهي أكبر حل واقعي للمواصلات.

****

وبالمناسبة، أرجوك ذكّرني بهذا الموضوع، صرتُ في هذه الأيام، أعاني من النسيان، واستباحني "هيجان" من جرّاء القتال والنضال على كل الجبهات وبكل الأسلحة، مرةً بالسيوف وأخرى بالخرافات ومرات كثيرة بالكلمات، وهي أصعبها مشقة وضراوة، لا سيّما عندما يعاملُك أناسٌ بكل الود العلني، لكن وكما يقول بعضهم: إنهم يضمرون لك أمورًا يجهلها الإنسان الطيب الحسن النية، وقد لا تفهم ما يصرحون لك به، لديهم ما يخفوه ما بين السطور، ويا ويل من ما بين السطور، وقد تعاني بسببها شعوبٌ كاملةٌ من السطو والجوع والمآسي والحصار والدمار، ينبغي على الإنسان أن يفتح مخّه وعقله وعينيه ويلقفها وهي طايرة. هذا ما يردّده البابلي دومًا.

لكني أعتقد أن الإنسان العادي النقي والصادق والأصيل وذا الثقة العالية بالنفس لا يشغل نفسه طوال الوقت بالتفكير فيما بدواخل الآخرين، وعليه أن يكون حذرًا من تصرفاته الشخصية وسلوكه، يحترم الآخرين والقوانين، يميز بين العدو والصديق والصالح من الطالح والمعارف من الأصدقاء، وانتهى الأمر ولا يحتاج أن نحمّل الأمور أكثر من حجمها.

واسلمْ لأخيك المحبّ!

****

رسائل من زمن الحصار لكاتب مجهول

الرسالة السادسة:

عشرون عامًا وأنا أبحث عن أرض وهوية!

(حزيران/ يونيو 1993)

يونس!

فززتُ في الليل كالعادة! توجهتُ نحو شرفتنا الصغيرة، عرضها أقل قليلًا من متر وطولها متران، فتحتُ بابَها، استنشقتُ رشقةَ هواء رطب نقي مبلّل برذاذ بارد رائع رشَّ وجنتيَّ، أحببته، ذكرني بحبيبتي في ذلك الشتاء القارس ونحن نختفي تحت شجرة عاليةٍ والسماء تنث. نحن الآن في بداية آذار، الريح عاتية، تسمع صريرها داخل الشقة الموصدة النوافذ، أغلقتُ البابَ متجهًا نحو غرفتي الصغيرة، جلستُ شبه نائمٍ أمامَ منضدتي، يعلوها ركام الأوراق فوق الكتب. أمسكتُ الرسالةَ الأخيرةَ، جالت عيناي بين سطورها، بدأت أكتب لك، هأنذا أعود إليك أيها اللعين المشاكس الحبيب، أتواصل معك كما وعدتك في بداية رسالتي السابقة منذ شهر وعدة أيام تقريبًا، رسالتُك لا تزال على منضدتي، لم أبعثها إليك والحمد لله، أعدت قراءتها، وجدت فيها أحاديثَ سلبيةً قد تنغص مزاجك، حذفتُ منها الكثير وصارت قصيرةً، فكرت أن أرميها في سلة المهملات، وجدت نفسي أكتب لك رسالة جديدة قد تكون تتمة لسابقتها.

عشرون عامًا وأنا أبحث عن أرض وهوية! أصبح عندي الآن بندقية! إنه العبقري نزار قباني شاعر الحب والغرام والهيام والثورة والإقدام بلغةٍ سلسةٍ شعريةٍ بسيطةٍ مليئةٍ بالصور الرومانسية!

تصوّر، مرّتْ على غربتي في هذه الأيام عشـــرون سنة، تذكرت أغنية أم كلثوم الشهيرة "عشرون عامًا وأنا أبحث عن أرض وهوية"!

خاتم أمي بعته
من أجل بندقية
محفظتي رهنتها
من أجل بندقية
اللغة التي بها درسنا
الكتب التي بها قرأنا..
قصائد الشعر التي حفظنا
ليست تساوي درهمًا..
أمام بندقية..
أصبح عندي الآن بندقية
إلى فلسطين خذوني معكم
إلى ربىً حزينةٍ كوجه مجدلية
إلى القباب الخضر.. والحجارة النبية
عشرون عامًا.. وأنا
أبحث عن أرضٍ وعن هوية
أبحث عن بيتي الذي هناك
عن وطني المحاط بالأسلاك!

.....

تقدموا..
فقصة السلام مسرحية..
والعدل مسرحية..
إلى فلسطين طريقٌ واحدٌ
يمر من فوهة بندقية

وأضيفُ عليها: لو ترجمنا هذه القصيدة إلى اللغات الأوروبية

لقالــوا: إرهابية! لن يهدأ الشــرق الجميل ما لــم يُعطى لكل ذي حــق حقَّه، ولا بُدّ من حلّ القضية، عندها ســينخفض التوتر وتقل الاضطرابات العصيّة وذرائع الانقلابات.

هل تتذكر كيف كنا نســمع أم كلثوم وعبد الوهاب؟ أنا شــخصيًّا لــم أكن أميل إليهما كثيرًا. كنت أقول لكم إنها أغانٍ لأناس فارغين وعطاليــن بطالين، ما عندهم لا شــغل ولا عمــل، ولا هَم ولا غَم، والكســل عَســل، أغان تُمثّل الخمولَ العربي وبطء الحياة اليومية، والإيقــاع الطفيلي البليد غير المنتج كأننا في احتفالات وســهرات يومية، كنتُ أحسُّ بهذا الخَدَر كلّما أسير في شارع أبي نُواس، وصوتُ السيدة يطغى على كل شيء فيه. أعلّقُ بحزن: أغانٍ استهلاكيةٌ تمثل "الإقطاعية". وكنتم جميعًا تضحكون من هذه التعابير والمصطلحات الضخمة، تسألونني: من أين لك هذه الأفكار؟ لماذا تضخم الأمور؟ مرة تسميها أغاني الجواري وأخرى الإقطاع.

****

وأنا الآن أتذكر تلك النقاشــات السفســطائية عندما كنت في ريعان شبابي حانقًا على تقاليد المجتمع البالية، ومظاهر التخلف الاجتماعــي ومتفائلًا بالتغيير، لكن هيهــات، وأكاد الآن أعطيكم الحق فيما كنتم تقولون.

فعلًا، الحداثــة أو اليقظة العربية عرجاء لم تأتِ ببديل ثقافي حقيقــي ولا نهضــة فكرية اجتماعيــة ومجتمعية، لكــن ثم ماذا؟ أليــس الإقطاع بشــرًا؟ وهل هنــاك في الأمر ما يُســيء إن كان هؤلاء الإقطاع يحبون موســيقى الســلطنة البطيئــة الطويلة؟ وما جواري أيــام زمان إلا مطربات وفنانــات العصر الحديث، وهنَّ فــي نهاية الأمر أرفَعُ من "توتي فروتي" وكل بنات محطة آر. تي. إل. الألمانيــة، لكن لماذا أرفع؟ ماهي المقاييس الفنية؟ في بعض المــرات يبدو لــي الأمر مجرد هراء ولا يعــدو أن يكون أكثر من

أمزجة وأذواق خاضعة للموضات الموسمية ليس إلا.

كلُّ ما في الأمر أن وتيرةَ التطور في الغرب سريعة جدًّا، مقارنةً بما هو عندنا. هُم منتجون ونحنُ مستهلكون في كل المجالات!

واليوم يمتلك الأغنياء والأغبياء والأدعياء واللصوص والمليونيريون المنافقون ممّن يجيدون نسج العلاقات واللف والدوران، مئات القنوات التلفزيونية الخاصة ببرامج جنسية وآلاف الحسناوات من بلدان فقيرة، بل هناك من يقيم لهن "نواديَ" خاصةً ليكسب العلاقات الاجتماعية مع صفوة القوم وعلية المجتمع ونخبته، ليحصل على أشياءَ أخرى غير الغناء والفن. أجل، كنت أرد عليكم بأني لا أختلف معكم في ذلك، إلا أن هذا الغناء لم يعد مناسبًا لعصرنا، يبدو كأنه رمز الكسل الشرقي أو الإنساني، لكن يا ليت ذلك. أنا لا أعترض على هذه الأغاني، بل طريقة استباحتها للفضاءات الزمكانية في كل مناسبة وغير مناسبة.

ولا أدري كيف سمحت القوانين عندنا للمقاهي والمحلات أيام زمان بأن تطلق العنان لأجهزتها السمعية والبصرية. فوضى لا مثيل لها، لا تختلف عن عبث المرور والأزياء والملابس وحركة الناس كالديدان في طرقٍ وشوارعَ وأزقةٍ وممراتٍ ومماشٍ ودروبٍ وجادّاتٍ ومجازاتٍ.

تردّون عليّ بأن هذا الموضوع لا يحدده أحد لا أنا ولا غيري، وكل شيء نسبي. إنه مرتبط بأذواق الناس، كان النقاش كثيرًا ما ينتهي باللعب بالكلمات والمهاترات. هل تتذكر ما قاله روميو: "أنت تصخّم الأمور"، بدلًا من "تضخم"، وصرنا نقول لبعضنا بعضًا: "سخام السخّمكم" و"اسليمه التطمكم" و"أمّداكُم" ونَغُمُّ على الوجوه بأكفّنا بكلّ الأصابع الخمسة، ثم نتساءل: من أين أتت هذه التعابير!

بعد أن كتبت لك هذه السطور عدتُ إلى أم كلثوم، استمتعت

بأغانيها، قد لا تصدق أن الناستولجيا جرفت قاربي بعيدًا وسط دجلة، اغرورقت عيناي بالعبرات، تأثرتُ بكلماتِها، كنا نسمعها صباحَ مساء: "والله زمان يا سلاحي"، هل تتذكرها؟ قصيدة الشاعر صلاح جاهين، أصبحت فيما بعد النشيد الوطني لمصر، و"بغداااد يا قلعة الأسود"؟ غنتها السيدة للعراق بعد 1958م، كنا نسمع موسيقاها قبل نشرة الأخبار كما أظن، أما أغنية "راجعيييين بقوة السلاااااح" فغنتها عام 1961م، هذه عنوانها فعلًا يعتبر إرهابيًّا في الغرب.

بالمناسبة، اكتشفتُ أني أُحبُّ أغانيَ عبد الحليم حافظ العاطفية جدًّا، وطبعًا الوطنية تؤثر فيَّ كثيرًا، بالذات عن الثورة المصرية، والسد العالي، تذكرت جنازتَه المليونية، كنت أقيمُ في الخارج، وانتحار الفتيات لدى سماعهن خبر وفاته. بعضُهم أهانهنّ قائلين: أُمّداهن! يا لغبائهنّ! في العراق "يغمّون" بِفَتح الكف على وجه كلّ مَن يزعجهم بسلوكه الشائن قائلين: أُمّداك! طيّحَ الله حظك!

شعوبنا عاطفية، والناس عندنا طيبون متعاطفون متكاتفون متضامنون، يعيش الفقراء جنبًا إلى جنبٍ مع بعض كالحشائش، الفقير يساند أخاه الفقير، ولولا هذه الخصال لماتوا جوعًا ونكدًا.

الأمر الجميل في هذا الجانب من حياتنا السابقة هو الاسترخاء والأجواء الاحتفالية والسهرات خارج القاعات والبيوت وعلى شاطئ دجلة، نفتقدها هنا في الغرب البارد، باستثناء موسم الصيف. دعنا نتناول هذه الموضوعة في رسائلنا اللاحقة.

لكن دعنا في المهم! أجل دائمًا نركز على المهم، بل الأهم! دائمًا نعود إلى المهم في حديثنا أخي يونس: استخدام القطارات يوميًّا، هل يمكنك أن تتخيل هذا الأمر؟ عندما أصل إلى المحطة أركنُ دراجتي في مكان مخصّص لها، ومن ثم أستقلُّ القطار المتّجه إلى شمال المدينة، أبقى جالسًا فيه، أقضي وقتي إما

بالقراءة وإما أضيّعه بكتابة رواية سأسمّيها فيما بعد "القطار يتجه شـمالًا" أو جنوبًا أو "القطار الهادئ"، على وزن "الدون الهادئ" لشولوخوف، أو لشـخصٍ آخر، إنه هو كاتبها الحقيقي! كما يدعي بعضُهم، كلام فارغ من تأليفي وخيالي!

وفـي هذه المناسـبة أحب أن أقـول لك: إنـي كتبت قصصًا وروايات على هذه الطريقة، رميتها في سلّات المهملات.

ومن يدري؟ فقد يكون جاء أحدُهم والتقطها من هذه السِّلال الكثيرة من القطارات الدولية ونشرها، أو قد يكون قدّمها لشركات سـينما متعددة الجنسية وأميركية، هذا طبعًا في حال أنه وجد من يترجمها له.

****

لا أعتقد أن ترجمة "اللّقية" من العربية إلى الإنجليزية ستكون مهمةً صعبةً أو مستحيلةً بالنسبة له، أعني مَن عثرَ على مخطوطاتي الجهنمية، سيذهب إلى العرب الدارسين في أميركا أو في أوروبا، يحاول فيما بعد تعلّم العربية في فترة وجيزة جدًّا، ثم سيذهب إلى مترجمين آخرين وسَـيعِدُهِم بأنه سـيدفع لهم أضعافًا إن نقلوها بأسـرع وقت إلى الإنجليزية، وسـيكتب له النقاد المشهورون بعد قراءتهم إياها بالإنجليزية: إنها رواية عظيمة لا مثيل لها في هذا العصـر، بينما لو كان صاحب الشـأن عربيًّا أو أجنبيًّا من الدرجة الثانية غير مرغوب فيه لما سمع منهم غير كلمات تُقال للأطفال: المديح والتشـجيع والمجاملة والإطراء والسخرية المبطنة وتنتهي باللامبـالاة والتهميش والإهمـال، ولما وجد لديهـم غير نظرات الغيرة. كل شيء هنا لا يتم بالصدفة.

كل شـيء هنا "مدستر" ومدبّر ومبطن، عيني! في النهاية هو، أعني مَن لقي مخطوطاتي في سـلات المهملات، سليل من يتقن: اكـذِبْ، اكذِبْ حتـى يصدقك الناس، ولا بُدّ أنه عضو في شـبكة

علاقات واسعه تمتد إلى مختلف أصقاع العالم، مع ذلك فإن الغربيين حسب مفهومنا وتصوراتنا وتعميماتنا عنهم بأنهم كلهم أناسٌ أبرياء لا يكذبون، بل مجرد ملائكة! كلام فارغ وساذج!

وعندما يُترجَم الكتابُ "اللُقطة" إلى الإنجليزية "يقعد المحظوظ، اللي أمه داعيته"، كما يقولون عندنا، يواصل تعلّم العربيةَ ليلًا ونهارًا، وإتقانها على يد البنات العربيات ويا مكثرهن في هذه الأيام يتراكضن وراء الأجانب، ويكد ويحور ويحوّر بالنص الإنجليزي حتى يصبح عنده مضمّخًا بخليط من روائح الشرق والغرب وعطورهما، فيذهب إلى ناشر من عائلته أو أصدقاء أمه، أو من أبناء ملّته من المتعاونين المساندين المتكاتفين المتعاضدين المتضامنين المتعاطفين المتماسكين المتلاحمين، المتفانين بل المنظمين في مؤسسات ومحافل خاصة بهم، والمتعصبين بعضهم لبعض؛ من أجل أن يكون عالم المال والأدب والفن بأياديهم.

ولا بُدّ أنه، أقصد الناشر، سيندهش إعجابًا بهذه النقشة الشرقية العربية الغريبة التشويقية الرائعة الجديدة المنمنمة التُحفية، لَفّتْ أغلب بلدان الشرق الساحرة والدافئة والحارقة والمارقة، وعواصم العرب والغرب ومدنه الغارقة بالعمل والمخططات واللاهية بالحب والاحتفالات، يقرر نشرها بعد عرضها على محررين أدبيين ولغويين وصحافيين لامعين مشهورين من الدرجة الأولى.

كلُّ شيء هنا مخطط له، مُعَد سلفًا ومسبقًا على أعلى مستويات التقنية والاحتراف عند هؤلاء الناس الميامين الأشاوس والغيارى، الأجاويد والوطنيين، لا وجود هنا للفوضى ورقصات السيوف على طريقة "على دق الطبل خفّن يا رجليّ!"، والانفعالات والعواطف العفوية المتقلبة الساذجة؛ يوم نتخاصم وآخر نتباوس ونتصالح ونأكل الثريد! أين أنا الخائب المنكوب المنكود، "المگرود" "المعتّر" منهم؟ أين نحن من هذا الكم الهائل من التنظيم والدقة؟

ومن المؤكد أن الناشـر ذا العلاقات الواسـعة سيقدمها، أقصد "اللُّقيـة الثمينـة"، صـارت روايةً هجينًـا، ملقّحة منقّحـة، مطعّمَة بمقوماتٍ فنيةٍ عاليةٍ، سيعرضها عرّابوه على هوليوود وسيحصل على الدعم، إنه عمل مثير مكتوب عن الشرق، يستحق كل الدعم المعنوي والمادي من مؤسسـات سياسية وثقافية يسـيطر عليها أصحابهم، ومَـن لفّ حولهـم، وكل زبانيتهم وبطاناتهم. أنـا أصبحت مجهولًا مقطـوعَ الأصل، بينما هذا الإنسـان مواطن مـن الدرجة الأولى، ليس لديه مشـكلة مع أجهـزة بلده ولا أحزابه ولوبياته وسـفاراته، ولا مـع رجاله المثقفين وغير المثقفين، وغير المسـلحين بالأفكار العظيمـة والصغيرة، ولا البيروقراطيين، لا سـيّما أن كتابه الجديد، "مخطوطتي اللّقطة" لا يعارض لا السياسـة الداخلية ولا الخارجية لوطن يهتم به ويحتضنه ويشـجعه كالطفـل المدلّل، وحتى لو كان كذلك فلن يعاملوه بالقسوة "ديالنا" على قولة أحبّائنا المغاربة.

وهو ليس لاجئًا ولا عربيًّا أو أجنبيًّا شـرق أوسـطيًّا كحالي، ولا من جماعة "كل من طلع من داره نقص مقداره"!

****

وسـيُعرض الفيلم المسـتوحى مـن "روايته" في أحسـن صالات العرض، وسيستمتع بمشاهد الآلامِ والبؤسِ والصدمات النفسية جرّاء الحروب والهروب، رغم إغلاق المنافذ والدروب في الشمال والجنوب، المدلّلون الأميركيـون والأوربيون والأسـتراليون، وكل المتحضرين فـي هذا العالم من محبّـي التنزّه في خرائبَ شـرقٍ متخلفٍ مليء بالفقر والجوع والأميّة والأمراض، وأزقة العصور الوسـيطة وجدران منتفخة لمبانٍ متهرّئةٍ قديمةٍ آيلةٍ إلى السقوط، مكتوب عليها شعارات سياسية، ومع ذلك يبقى رائعًا تشويقيًّا بالنسبة إليهم.

سيقولون إن هذه الشعوب بحاجةٍ إلى الديمقراطيةِ والدمقرطةِ "الديمكراتايزَيشـن" وإعـادة التربية والبنـاء والتحليل والتأهيل

والعلاج من هول الصدمة والعنف الأســري والإرهاب، مثل سيارة عتيقة "بَرَشــقه"، يعنــي منتهية خالص، تحتاج إلى تصليح شــامل وكامل وغسل وتشحيم وتزييت!

إنهــم يصرخــون باســتمرار ولا يجيــدون الحــوار والتواصل وعصبيــون، علينا إعادة تربيتهم ودمجهم وأقلمتهم في قيمنا قبل خروجهم علينا شــاهرين ســيوفهم أو طلبهم اللجــوء على تخوم مدننا، أو يطلع علينــا من بين ظهرانيهم دكتاتور طاغية، مهووس بإشعال الحروب ودفنهم في مقابرَ جماعية، أو رميهم في البحار والأنهار، عندها ستثير علينا منظمات حقوق الإنسان ضجة كبيرة!

ستســخر مني يا صديقي يونس، بالتأكيد، ستقول إني أهلوس، مجنون، معتوه، يائس متشــائم، إني، إني، أليس كذلك؟ لكن ماذا أفعل إذا كنتُ لا أجيد غير الصدق، وإذا كانت القطارات قد أخذت نصــف حياتي؟ بالذات قلتُ لك: "أضيّعُ وقتي في كتابة رواية في أثناء السفر بها".

كل مَــن أعرفهم من الناس صــار يلهو بهذه اللعبة، لِمَ لا أقوم أنا أيضًا بها؟

الطريف أن أعدادَ مَــن أدركتهم حرفة الأدب ازدادت وصاروا يصدرون مؤلفاتِهم اليوم، يتحدثون عنها بشغف، وباستمرار. منهم من أخذ الأمر على محمل الجد فأنفق نقوده على طبعها في كتب أنيقة، مع الأســف لم يقرأها أحد ســواه، وأخشى أن أكون واحدًا منهم فأطبع ما أكتبه الآن، وســتبقى مركونةً على الرفوف يعلوها الغبار! هل تعرف لماذا؟ إنهم لا يتملقون للحكّام. طغاتُهم يخافون منهــم، يحاربونهم رغم أنهــم ضعفاء عُزل. هربــوا من ديارهم وبلدانهم مكرَهين مجبرين لا بَطرًا، مطرودين بلا سند! إنهم، مع ذلك، في النهاية شــرفاء أصلاء رفضوا أن يكونوا خانعين إمّعات وجبناء!

لا بُدّ أنك ستقول: "إحنة وين والرواية وين؟ هذا بعده أبو عقلين، نحن نعاني من الحصار ونريد مَنْ يسحبنا إلى دول "اللجوء والرفاهية" على وجه السرعة، بينما هو بطران وشبعان ينظّر برأسنا!". لكن لا بأس عليك، كل إنسان يقوم بالشيء الذي يقدر عليه، كل ما في الأمر أن التجّار والرياضيين وغيرهم من الحرفيين يكسبون أجورًا عاليةً وكثيرة، هم بطبيعة الحال مرغوبون من قبل الجميع ممّن يفكرون ببطونهم والتسلية قبل كل شيء، إنهم أيضًا محقّون في ذلك ولا تثريب عليهم.

لستُ حانقًا أو غاضبًا عليهم ولا حاسدًا لهم، بل أغبطهم، بخاصة في هذه الأيام حيث اندحر الفن والعلم والفكر اندحارًا رهيبًا أمام التجارة والغش واللف والدوران، وإن لم تكن كذلك ستواجه نهايةً خطيرةً، الله يستر منها، بخاصة إذا كنت على حظ من العلم والمعرفة، ولا نقول المواهب. قد يكون في ذلك القول استفزازًا للآخرين الأغبياء وأشباه الأميين، هؤلاء سيقولون: نحن أيضًا موهوبون، نحن أيضًا علماء! إي والله، أصبح المتعلمون والمثقفون والأدباء الحقيقيون مغبونين مهمشين منبوذين، أو مجرد ديكور!

إنه حقًّا لموضوع خطير أن يسقط العلم في الحضيض ويتهافت العلماء ورجال الفكر نحو مصالحهم الذاتية والتزلف للسلطات.

****

ألا يحق لنا إذن أن نطلب الحماية؟ أليست أعصابُنا بحاجة إليها؟ أعتقد أنها فرصة مناسبة أن يتقدم فيها الناس العصبيون والكتّاب المبدعون إلى الأمم المتحدة بطلب محميات طبيعية لهم، حالهم حال الضباع، منعًا من انقراضهم، أو مناطق آمنة لهم على غرار تلك التي أقيمت وتقام في دولٍ تُدار فيها رحى الحروب مثل البوسنة وأفريقيا.

ألا تراهـــا عبارة ضخمة: محميات مغلقة لشـــغيلة الفكر! تصلح للخطابـــات الرنّانـــة والمقـــالات الاجتماعيـــة والأدبية المباشـــرة "الهادفة" كما كان يسميها جماعة "الواقعية".

لا تتصور أن في الأمر تضخيمًا، بل كل ما في المســـألة هو أنه ليس كل الناس يشعر بمثل هذه المخاطر، كما هو الحال مع مهنتنا اللعينة المليئة بالمتاعب وحرق الأعصاب، إذن ألســـنا نحن "حماة الوعي" بحاجة لمن يحمينا من مصائب هذه "اللعنة"؟ أجل، نحن أيضًا سننقرض، مهمون، ضباع!

فهـــل يقدر الأطباء العاديون علـــى حمايتنا من آلاف الأمراض العصبية والنفسية والعضوية و"اللاعضوية"؟

بالنســـبة إلى "اللاعضوية" أنـــا أضفتها إلـــى قائمة الأمراض الأخرى للضرورة الشـــعرية، مـــن "عنديـاتي" كمـــا يعبر في هذه الأيام بعض المتمنطقين من جهابذة الأدب و"فلتاته" المتكاثرين كالبطاطا والفطر!

فلا تستغرب لمثل هذه المصطلحات، صرنا نستعملها للسخرية ليس إلا، على شـــاكلة الظروف الموضوعية والذاتية والديمقراطية والمركزية والبطـــل الإيجابي والديموغرافية والسفســـطائية، كنا نســـتخدمها في السبعينيات، وعندك الحساب. ماذا كانت النتيجة؟ حكي بحكي!

لكن هل يأكل الناس الشعرَ؟ أو الأدب؟ في زمن رمادي اللون؟ طبعًا لا، إلا أولئك الحالمين الرومانتيكيين، إنهم فقراء لا يملكون شـــيئًا غير التواضع. و"التواضع رأســـمال الفقير" كما يقال. وإنه لعمري مَثَلٌ سخيفٌ كما يبدو لي، العلماء الحقيقيون أغنياءُ النفسِ ومتواضعـــون، أما الرعنـــاء، حديثو النعمة، فهـــؤلاء لا علاقة لهم بالتواضع إطلاقًا.

المهم، نترك أمرَ الحماية من الأمراض والأطباء ورواية القطار

الشمالي أو القطار الهادئ!
دعنا نعود إلى رسالتنا، جعلتَني أسترسل كثيرًا.....

****

يا سيدي، كالعادة أبقى في القطار ساعةً تقريبًا حتى أصلَ إلى محطة المدينة حيث أدرس، أكيد راح تقول: "عقب ما شـاب ودّوه للكتّاب"، ومن هناك أركبُ حافلةَ نقل عام، أكيد ما زلتم تسـمونها باص "الأمانة" الأحمر، مختصر من اسم المؤسسة "أمانة مصلحة نقل الركاب"! مثل حافلات لندن!

ههه! وخلال بضع دقائق أصلُ إلى المعهد "العتيد"، كما وصفه أحد الصحافيين بطريقة متعالية، عاتبته منتقدًا إياه إذ كتب مقالًا سـلبيًّا تعميميًّا متحاملًا على مناضلين مساكين: "هذا المعهد يلم كل من هب ودب من الصعاليـك والعاطلين والجهابذة والعباقرة وفلتات زمانهم من اللاجئين، وطبعًا فيهم الغث والسـمين، فيهم "العِشتي" الطفيلي والكريم.

فيهم من يريد أن يكون فيلسـوفًا وكاتبًا وشـاعرًا وروائيًّا بأي ثمن، يدّعي لنفسه شـهاداتٍ لم يحصل عليها، كما يقولون، اعتقدَ الآخـرون أنه يعاني من عقدة المثقـف والمتعلم، يتصور أن ذلك يتطلب منه أن يسـلك سـلوكًا غير طبيعي، الشـعراء "في كل وادٍ يهيمون" ليسوا أسوياء! "إلا الذين آمنوا"، كأن ينفش شعره ويعتمر نظارةً سوداءَ تحت غيوم السماء، يلف رقبته بلفّافه التريكو الطويل المتدلي على معطفه صيفًا وشـتاءً، أو يدمـن على الخمر، يتبول وسط الشـارع، أطفالُه مهمشـون، يعانون من صعوباتٍ ومشاكلَ نفسـيةٍ، خذلانه لهم معروف للقاصي قبـل الداني، يداوي الناس وهو عليلٌ! وآخر مهووس بالمظاهر "الأكاديمية!".

لـم يعجبني الغمز واللمز في وصفه، هذا الصحافي، لشـرفاءَ لاقوا الأمرّين والعذابات في غربتهم القاسـية هربًا من اضطهاد

سلطات بلدانهم.

هــؤلاء مناضلون اضطُروا لمغــادرة أوطانهم، فيهم مَن لم يُنهِ المدرســةَ المتوســطة أو الجامعة، كما يُشاع عن أحدهم، والعهدة على رواةٍ مناكدين له، لكن ثم ماذا؟ ماذا تعني الدراســة بالنسبة لمبــدعٍ موهوبٍ؟ حتى وإن كان مصابًا بجنــون العظمة كما يتهيأ لمشــاغبين، يســيئون فهمه، يتقولون عليه: يتصور نفســه عبقري العصر، فلتة زمانه وأوانه ومكانه.

نســوا أو تناسوا أنه شــاب، يبدو بطبيعته الشخصية الشاعرية الهائمة وبلا قصد منه أنه رومانتيكي ولهان يسير متبخترًا متجهمًا رأســه متجه دومًا نحو الســماء، يرفــع يده اليمنى ببــطء محيّيًا الآخريــن كأنه طاووس، لا، بل قيصر، ســلطان أو خليفة الله على الأرض، هكذا تصوّروه، أو "شُبّه لهم"!

كنت أتمنى لو أهملَ هذا الصحافي ثرثرةَ مناكديهم وركّزَ على الجوانب الإيجابية من حياتهم ونشاطاتهم.

قد تكون أكاذيب ومبالغــات، ولنفترض أنها حقائق، فهل تغير من الأمر شيئًا جوهريًّا؟

في النهاية كلهم بشــر لهــم هفواتهم وغرائزهــم ومعاناتهم، لكنهم أنقياء وشــرفاء طيبون مخلصون صادقــون، أقلّها أنهم لم يبيعوا أنفسهم بأبخس الأثمان أجَراءَ وضيعين لماكنة الإجرام!

لنعد إلى القطارات، طبعًا، إنه ليس من الأمور الطبيعية عندكم أن يستخدمها الإنســان يوميًّا ويهدر هذه المدة في المواصلات، وهذا أمر جميل أغبطكم عليه.

الاختلاف بيننا هو أنكم تعملون، بالتأكيد ليس كلكم بل أكثركم، في أماكــن قريبة وبيوتكم تدخلها الشــمس على مدار الســاعة، تتزاورون زياراتٍ قصيرةً بلا مواعيد، بينما الأمر ليس كذلك عندنا، هنا الأجواء غائمةٌ معتمة، الشــمس مشــغولة عــن الناس بأمورها

الخاصة، تعاني من متاعب نفسية، ومن يدري؟ قد تكون مصابة بأمراض العصر: الضغط، الكآبة، المشاغل الكثيرة، أو تعاني من الزهايمر والرعاش! تصور أنها مصابة بهذين المرضين! تنسى إطلالتها علينا، أو ترتعش عند شروقها وتهتز وتختفي خلف الغيوم. ادْعُ لها بالصحة! لتشرق علينا غدًا!

ونحن مشغولون دومًا بالأطفال والقلق على تربيتهم ومستقبلهم والخوف من انتزاعهم منا في أي لحظةٍ!

أعتقد أن الوقت قد حان الآن لأتوقّف عن كتابة هذه الرسالة، تذكرت أمورًا تخص أولادي وعليّ أن أقوم بها. سأعود إلى الرسالة في وقت آخر.. "تُرفع الجلسة إلى إشعار آخر! أغلق المحضر!"، هل تتذكر هذه الكلائش، كم أتعبتنا أيام زمان؟

****

رسائل من زمن الحصار لكاتب مجهول

الرسالة السابعة:

"ليس العتب على الكلاب السيئة، بل على مُربّيها!"

تموز/ يوليو 1993

عزيزي المجنون يونس!

هأنــذا أكتبُ لــك من جديد. أيهــا المتبرم، العاتــب، الحانق، الغاضب! صدقني، إني كتبت القســم الأول من هذه الرسالة منذ فترة وفقدته، لا أتذكر أين وضعته، ولم يحصل لي الوقت المناسب للاستمرار أو إعادة كتابتها إلى الآن.

أنا في الحقيقة لا أعرف، لا أستطيع تفسير لِمَ تركتُ كلَّ شيءٍ، كنتُ أودّ اليوم أن أعمل عليه أو "أشتغل عليه"، كما يقول الفنانون والمبدعــون عندما يرســمون لوحاتِهم الفنيــةَ ويكتبون قصَصَهم وقصائدَهم.

دخلتُ في الكمبيوتر، تهتُ بين الوثائق، من واحدةٍ إلى أخرى، حتى وجدتها، هذه الرسالة، توقفت عندها وتركت الأخرَى.

بمناســبة الحديث عــن الكمبيوتر، صرتُ أكتب بــه أو أصفُّ به الرسائل المكتوبة بخط اليد، وحسب المزاج ومن باب المزاح، حيث أجد أن الخط يتغير من ســيئ إلى أســوء في أثنــاء الكتابة بالقلم العادي، بعد عدة سطور، يصيبني الملل، أجدها "لا تصلح للنشر".

****

بدأتُ أتعب كثيرًا، أرهقُ نفســيًّا وجسديًّا، بالطبع لن أتخلّى عن معونةِ صديقي "الغشّاش الدسّــاس، يوسوسُ في صدري"، يكتُبها بالكمبيوتر، أطبعها ثم أقرأهــا وأنقحها عدّة مرّات، وأعيدها إليه

ليقوم بالــلازم، يضع النقــاط على الحروف. بعضُهــم حرّضني، "وَزّني" عليه، قالَ لي: "إنك تثق به أكثر مما ينبغي، احذر منه"، بدأ الفــار فعلًا يلعب بعبّي وقلقــتُ، خفتُ من الأمر، قررتُ أن أكلّمه، حذّرته: "إياك أن تغيّر المضمون أو تزيد عليه"، أعتقد هذه المرة الثانية أو الثالثة والرابعة، بل العاشرة أذكّره بهذا الأمر، الغريب أنه ردَّ عليّ مبتسمًا: "مستحيييل!"، لم أفهم عليه، سألته: "ماذا تقصد يا عبقري؟" أجابني وهو غارق في الضحك هذه المرّة، لم يتمالك نفسه، لا يجيد الكذبَ إطلاقًا، صاحبي وأعرفه خير المعرفة، نطَقَ كلماتِه مبعثــرةً بصعوبةٍ، قال: "افهمها مثل ما تريد"، ســألته مرةً أخرى مصرًّا: يعني شــنو؟ مســتحيل تدس بأنفك؟ أم مستحيل لا تتدخل بالنص؟ يعني "وَدّعْ البزّون (البِسّــة، القطّة) شحمَه"؟ وإلا لماذا ضحكت يا شــاطر؟ أصابني بعدوى الضحك، ولم أعد قادرًا على الكلام مع هذا الصعلوك صاحبي، إنه بعمري لكنه شــيطان، يبدو كأنه يصغرني بخمس ســنوات تقريبًا، صرتُ أعتمد عليه في الصغيــرة والكبيرة، أهــم ما يعجبني فيه أنه بــدأ يصغي لي وبدأ يلعــب كرة قدم معنا، تعمّقتْ معرفتي بشــخصيته وألاعيبه بالذات في الساحة كأنه في معركة أو حلبة ملاكمة وصراع سياسي، يجيد كل المناورات والمناولات والغارات، يختطف الكرة، يسرقها خِلسةً مــن بين أقدام أفضل اللاعبين، محتــال، ماكر، فنان، يتنقل من حمايــة المرمى إلى قلب الهجــوم، يتحين الفرص ولا يتوانى عن استغلال أصغرها ليحقق هدفًا يرضي أهواءَه الشخصية وكلَّ أفكاره الجديدة الطارئة بغتةً عليه.

الأمر نفسُه يحدث في رســائلي، حوّلها إلى نصوصه الخاصة، زادَ عليها واختصرَ منها، جعلها خلطةً وهجينًا، احترتُ أنا شــخصيًّا لهــا، وبقي يتحرك فيها كأنها ملعبه الخاص به، يصول ويجول فيه دون استشارتي أو حتى ليثيرني.

أردتُه طبّاعًا يعينني في استخدام الكمبيوتر فإذا به يعيّن نفسَه محررًا أدبيًّا، أو حاكمًا عرفيًّا مسؤولًا عن الرسائل، لا، بل أضحى جزارًا ينتقم من المفردات حسب أهوائه وأمزجته المتقلبة، مرةً يكرّر بعضها مضيفًا عليها مرادفاتها، وأخرى يجتزئُها وينفيها ويمسحها، بيد أنه يدرك حدودَه ويعلم أني لن أرفض له طلبًا، إنه شيطاني ووحيي وضميري وصاحبي. أحترمه وأعزّه وأودّه وأحبّه! نحن صنوان!

ما يؤلمني هنا، أنك في هذه الحالة طبعًا، لن تستطيع أن تشعر بنفس الإحساس لو كنت تقرأها بالنسخة الأولى بخط يدي، كما تعودتُ عليها، مليئةً بالملحوظات والإضافات والتعليقات والتهميشات، هنا وهناك، ما بين السطور والحواشي وبمختلف الألوان. ضاعت مني المخطوطة، فقدتُها، لا أتذكر أين؟ قد تكون موجودة بين أوراقٍ وكتبٍ وإضباراتٍ وملفاتٍ، لم أعد أتذكّر أماكنها! أرهقتُ من البحث عن الأشياء.

أو في النسخة المطبوعة الأولى أو الثانية، هي أيضًا مليئة بالإبداعات والتصويبات، اعتدتُ أن أصححَ الرسالة بالأزرق ثم بالأحمر وأخيرًا بالأخضر!

مرةً سألتني عن هذا الموضوع كما أعتقد، أقصد ما هو سبب هذه الألوان والهوامش؟ أجبتك عندها بأني أتعامل مع الرسالة على أنها نص متطور، طفل يزحف ثم يحبو، وبعدها يمشي، أما متى وكيف يركض أو يهرول فهذا خاضع لظروف نشأته وصحته وتطعيمه بكل اللقاحات، بالذات الشلل والكساح، وحالة الأبوين النفسية، أنت خير من يعرف مزاجي ومشاغلي، أنا لست أبًا جيدًا للرسائل العاديّة، مجرد لديّ طموحات حقيقية بأن أكون كذلك.

إنها "رسائل من زمن الحصار لكاتب مجهول"، خلطةٌ سرديةٌ بدأتُ بكتابتها في بداية التسعينيات، أخذتْ مكانَها في موقع القصة العراقية، وبعدها في "سامسبيل" الدنمركية 1998 / 2000م،

لترتقي عاليًا مخترقةً الغيوم الإسكندنافية والبريطانية متجهةً نحو "الزمان" اللندنية؛ فيطلُّ فصلُها الأول على القرّاء بعنوان: يوميات اللاجـئ العراقي واصل "منتظر الفرج، الهارب من عالم الهمج"، ومن ثمَّ طارتْ محلّقةً في سـماء بغداد السـاطعة فوق لمعة مياه دجلة الخير لتتصدّرَ صافيةً هانئةً صفحاتٍ عراقيةٍ!

لكني كنتُ أراجعها كلما أحنُّ إلى أمّي في أوقاتِ الناسـتولجيا في أشهُر الشتاءات القارسة البرد، نقّحتها، اختصرتها وزدتُ عليها هنا وهناك، حسب الأجواء والأمزجة والأهواء، والأنواء الجوية بعد كل مكالمةٍ هاتفيةٍ معها، حيث كانت تلهمني وتعلّمني كيف خاطت جودليّاتنا من بقايا قطع قماش، وأحيانًا ملابسـنا القديمة لنجلس عليها أو لتغطّي أسرّتنا، سرتُ على نفس منوالها، عانيتُ كثيرًا في جمعها واختيارها، لكنها صارت عندي جودَليّةً كبيرةً زاهيةَ الألوان، مؤطّرةً زاخرةً بقصصِ طفولتنا وصِبانا المتناثرة هنا وهناك! هذه هي سـرديتي الهزلية أحيانًا والجدية طـورًا آخرَ، أقدّمها واضحةً سَلِسةً للقارئ كما هي بلا رتوش وجُملٍ مفتعلةٍ:

فيليتونٌ سـاخرٌ، أو سلسلة رسائل وقصص وخواطر وتحقيقات وذكريات سردية وفصول روائية تقليدية مكرسة لأبطالي المختلفين المنتشرين في البقاع والأصقاع!

أنا إذن أمام تداعياتٍ كثيرةٍ ولا أريد حشـرَ نفسي في "خانة" كتابةٍ محددةٍ.

سـرديةٌ هجينةٌ فحسـب، عابـرة للأجناس، لا التـزام بالأبعاد الثلاثة، لا حبكة تقليدية، ومقدمة وذروة ونهاية، لا يهم كيف؟ ومتى وأين؟ ومَن قال ذلـك؟ ومن نفى؟ ومن تزوج؟ ومن أحب حبيبتَه الأولـى وعاش معها فترةَ عشـقٍ جميلةٍ ثم طلّقها بعد مشـاحناتٍ كثيرةٍ وخطيرةٍ كادت أن تودي بحياتهما كليهما!

هذه تفاصيل استهلاكية أهملتُها، تركتُها للقارئ!

الفضــل يعود أيضًــا لصاحبي المحرر الجــزّار! نعم، لولاه لما حصلتُ على هذه السردية الهجينة!

أنا أريدها كذلك، عجينةً طيّعةً، أعيد خلقها متى أشــاء وكيفما أريــد، وخلطها، لتصير منمقةً، وأحيانًا مرصّعةً متنوعةً مزركشــةً، مثل أيّ جوديّةٍ مرقّعةٍ بأنواعٍ مختلفةٍ من خِرَقٍ ملوّنةٍ!

****

فيهــا ذكرياتي وانطباعاتي وخواطري عن أمي وأبي وأخواتي وإخوتــي وأقربائي وأصدقــاء الطفولة والصبا والشــباب، جميلة كامــرأة تتمعّن إكسســواراتِها القديمة بفرح وحزنٍ، لكن بســعادة الذكريات!

كأنهــا قلادة ذهب مرصّعة بألماســاتٍ قديمةٍ تلمعُ، ذات بريق أخّاذ، تُلصَقُ عليها الرسائل المليئة بالإحساسات والمشاعر!

****

الرســالة أنثــى! هــي أيضًا خلطــة مزاجيــة، تعــجّ بالأفكار والموضوعات حســب هرموناتها، مشــغولة في البحث عن فارس أحلامهــا! تُصاب بنوبــات الحب والغــرام، والفــراق والاكتئاب والإحباط وخيبة الآمال!

أذكر أنك كتبت لي ردًّا على تلك الرسالة، قلت لي إنك ضحكت عليهــا. طبعًــا فرحتُ جدًّا لتقبلــك إيّاها بروحٍ رياضيةٍ! ســألتكَ: ضحكــتَ منهــا أم عليها؟ لم تجبنــي كالعادة، أنت مشــغوول يا عزيزي باسطوانتك المشروخة: اسحبني! اسحبني!

قســم آخر من هذه الإضافات القليلــة والتعليقات والهوامش، ليســت بخط يدي، يظهر لي أنهــا غارات بعضهم على النص، كما ســبق أن أخبرتك! نحن يا أخي غرباء نعاني من الشــوق، تربطنا علاقات حميمية، نتســلى بمثل هذه الأمور، أقصد كتابة الرســائل الجماعية أحيانًا!

اليوم أكيد ستضحك على هذه المصطلحات، وثائق ومعالجة نصوص و... إلخ. على أيّة حال لا ضير في ذلك، الضحك أحسن بكثير من البكاء، ولو في الحقيقة نحن لا نجيد لا هذا ولا ذاك. قد يكون في هذا الرأي مبالغة أو جلد قاسٍ للذات، لكن ما عساي أن أعمل وأنا أعاني من الآلام والعذابات طوال حياتي، أوضاعكم مأساوية وقلبي يقطر دمًا.

وبمناسبة الحديث بلغة "نحن"، أود أن أذكر لك صديقنا الشاعر ثائر السومري المزاجي المتشائم أبدًا، قال لي قبل عدة أيام إننا طينة لا مثيل لها في العالم؛ طينة مخربطة، ملخبطة، مجعصة، أو مطعجة مثل علبة معدنية، "مچَعوچَه وملَعوچَة"! هذه العبارة ذكرتني بأيام زمان، هل تتذكرها؟ أكيد راح بطنك تطق من الضحك عليها.

إن شاء الله راح تقول: ما أتذكرها؟ بشرفي إذا نسيتها أعتبرك أكبر "حماغ" كما يقول روميو، "أنت حمار يا حمار؟".

****

أكيد تتذكر أستاذ عبود "أچَعوچَكْ وألعوچَكْ"، تصور! أنا أتذكّرُه كلما التقيت هنا بأحد المدرسين اللطيفين النازكين عكسه بالضبط، لو كانوا في العراق لاعتبروهم "مخنثين"، تتذكر أستاذ عبود؟ غول! عصبي! كان يرهبنا بعينيه المبلقتين؟ طيب ليش حرق الأعصاب هذا؟ شنو سبب هذه العصبية؟ إذا كان المعلّم هيك عصبي لَعَد لا عتب على غيره. تصور، إني تذكرت الآن وفجأةً أغنية كانت تغنيها مطربة عراقية، يبدو بسبب الحزن والشجن وقساوة الحياة العراقية! أعتقد اسمها زهور حسين، كان صوتُها يتميز بالبحة: "غريبة من بعد عينج يا يُمّه! محتاره بزماني! يمّه دقولي لي بساع، خاله شكو؟ شنهو السبب أو "الخبر" دِحچِيلي؟ قولي لي، فدوه رحت لك ليش ما تقولي لي آه، آه"، تصوّر، لم أسمع زهور حسين منذ أكثر من عقدين! والآن أسمعُها تغني عن الغربة وأنا غريب الدار! أي قسمة

هذه؟ إنها قسـمة ضيزى! كنتُ أسخرُ منها بينما اليوم تدمعُ عيناي الآن لسماعها، أصغي لها بكلّ متعةٍ.

لكن يبـدو أن صوتها محفـورٌ في قلبي وروحـي وجوارحي، يذكّرني بأمي والأمهات العراقيات.

أما نعيمة توفيق* فصوتُها أروع من دونا سـومر وديانا روس، أتذكّر أنها كانـت تطلع بصوتها مغنية: "هذا الحلو قاتلني وأريدَه، معذّب مهجتي والروح بيده، أنتِ اشـلون عمتي بيّ ما افتهمتِ؟"، كنا نسخر من أغانيها، والآن نحبّها.

****

وهل هناك أكثر من سـلمان المنكوب نواحًـا وبكاءً؟ أذكر أن جارنـا كان يسـميه أبو الغنـاء الواقعي، بينما كان أحـد معارفنا المتحمسـين يعده واقعيًّا "اشـتراكيًّا" على أساس أن أغانيه كانت تتضمن وصفَ المآسي والرحيل والبطولات في مقاومة الفيضان. هههـه! هذا هـو رأيه وأنا لا دخل لي في الموضـوع أبدًا، لا من قريـب ولا من بعيـد، فأرجوكم لا تدخلوني بمثل هذه المشـاكل والمتاهات والمطبات ولا تقوّلوني.

كنتُ أتصور أن مُحبّي سـلمان المنكوب مـن الجنوب حصرًا، لهجته صعبة، لكني تعرفت على شخص طيّب سرياني عراقي من الموصل يحبه، وصديقي الآخر أحمد الكربولي فإنه يعشق صوته، أمـا كاكا كاميران فيمـوت عليه! وحدّثوني بشـغف رغم صعوبة فهم المفردات وسوء التسجيلات القديمة، عن صوتِ راعية الغنم "المسـترجلة" القتيلة أيقونة العراق مسـعودة العمارتلي، فيه من الشجن والحزن وصدى بداية هذا العصر حيث الفقر والقهر من أعماق الجنوب العراقي تجسـد في أغانيهـا العفوية الفولكلورية: ذبّي العباية، شكَره الكَصيبه، سوده إشلهاني، خدري الشاي خدريه،

إنوليت يا بدريه، ترضون ما ترضون.

يعنـــي، العراقيـــون كلهـــم يحبون غنـــاء وجع وألـــم، ينبع من الأحاســـيس والأعمـــاق، والغريب هناك أوجه شـــبه بين الأصوات الحزينة الجنوبية والشمالية العربية والكُردية والسريانية!

****

أنـــا لا أحب التعميم، لكننا عمومًا، وهذا ما يردده أغلب ناســـنا المغتربين هنا بأننا يا أخي فعلًا "طينتنا عجيبة"، كما قال الشاعر المتشـــائم ثائر الســـومري متذمرًا كعادته. حاولـــت تهدئته، لكنه واصلَ الحديث قائلًا بانفعالٍ محركًا يديه مرّةً نحو السماء، وأخرى ذات اليمين واليســـار متلفتًا هنا وهناك وعينـــاه محمرتان، ينفخ الدخان من ســـيجارته، يلثغ الراء فيبدله غينًا، ومع ذلك يستخدم كلمات رائيّة ويكرّرها، يتحرش به حرشـــةً: "أبد ما يصير براســـنا خيـــر، ما تصير لنـــا "چاغَه" يقصد "چَارَه"، مـــا يصير لنا أي حل، ما يفيد بينـــا غير الرمي بالزبالة، طَربگه! طـــول عمرنا نتراكض ونســـتعجل، "نُطربُگ" مثل الحصان: طُربُگ، طُربُگ! ركض ركض! نتحمس بسرعة البرق ونهمد بشـــكل خيالي، نفرح بسرعة ونحزن أسرع، ونزعل على الناس بسرعةِ البرق، مجرد أن ينقطع عنا أحد الأصدقاء ننسى أن "الغائب حجته معه"، نغتاب الآخرين ونحسدهم ونشـــكك فيهم و"إن بعض الظن إثم" فعـــلًا ينطبق علينا، نأخذ ما نعطي ونتنكـــر للآخرين، نأكل حقوقهم على كل المســـتويات ولا نفكر إلا بأنفسنا، لا نحترم المواعيد، لا نقبل النقاش ولا الاختلاف بالـــرأي، يقولون نبيّكم قال: "اختلاف أمتـــي رحمة "، دائمًا نردّد وندعي بأننا أهل التراث والعلم والأخلاق والدين والتســـامح. هذه كلهـــا أصبحت مجرد ادعاءات بالنســـبة إلى هؤلاء البشـــر، أبد ما يصير براسنا خير".

رفضتُ هذه التعميمات، قلت له مهدّئًا: "هذه مجرد إرهاصات

وضعك النفسي"! هذا السـومري، نادرًا ما يأخذ "راحتَه" بالتعبير عن ذاتـه وهمومه، غالبًا ما يلوذ بالصمـت تجنبًا للآخرين، لكنه وجد ضالّته عندي حيث أولَيتُـه بعضَ الاهتمام والحماية والعنايةِ والرعايةِ والوقتِ، شـجّعته على ممارسـة الرياضة، ائتمنني بعض المرات على سرّه، أعطيته الأمان، صار يثق بي، يبوح لي بما تجول به نفسه الكئيبة.

****

آه من جلد الذات والتعميم! قد يكون الأخيار أكثر من الأشرار، لكن الناس عمومًا يتحدثون بيأس عن الأوضاع عندنا في الشرق. فـي الحقيقـة قد يأتي شـخص آخر مـن ملّةٍ أخرى ويتسـاءل: مـن نحن مـن الآخرين؟ ماذا نريد من العالـم ولماذا نعتقد أننا الأفضل؟ لماذا نعمم؟ ولماذا نفرض آراءنا على الآخرين ونريد أن نمسخهم أو أن يصيروا مثلنا؟ وأنا أعطيه الحق، وأستميحك العذر على هذه اللاموضوعية، من المؤسف أن أصوات النشاز السيئين، رغم قلّتها، هي المسموعة في هذه الأيام.

وأكرر، يؤسـفني أن أخبرك بأن بعض الطفيليين المقيمين هنا شـوهوا بسلوكهم اليومي سمعة شعوبهم، هذه حقيقة مُرّة يتداولها اللاجئـون فيما بينهم، ولا نحب أن نسـمعها مـن الآخرين: وإن الصحف هنا، كما قلت لك سابقًا، مشغولةٌ بهذه التصرفات الشائنة، الغش الاجتماعي، حدثتك عنه كما طلبتَ وإلا أنا لا أتدخل بشؤون الآخرين، والعنف الأسـري وضرب الأطفال والسرقات والجرائم، ناهيك عن إلغـاء الآخر، والإرهاب والحـروب. الأحزاب اليمينية والعنصرية هنا تسـتغل هذه التصرفات، تصرح مرارًا وتكرارًا بأن مناطق المسـلمين من المغرب حتـى الفلبين كلها حروب واقتتال وفساد ومحسوبية ومنسـوبية وعنف واضطهاد للشعوب، وبالذات للمرأة والأقليات.

ومــع ذلك عندما يزور المســلم البلــدان الأوروبية لأول مرة، ينبهر بها ويقول: "هذا هو الإسلام الحقيقي، الأوروبيون مسلمون تنقصهم الشــهادة". لكن الأوروبيين مسيحيون بالأصل وتطورهم نتيجــة فصلهم الدين عن السياســة، فما حاجتهم للشــهادة حتى يكونوا مســلمين؟ هذا ما قاله لي مبتســمًا مدرس اللغة الدنمركية الهادئ جون، تتذكره؟ حكيت لك عنه.

يعني، الخلافةُ الإســلاميةُ في مخيلتنا، وكل المؤمنين الطيبين، دينُ العدل والرفاهيةِ والرخاء والقانون والسلام، وهُم متعطشون لتحقيق هذه الأحلام الوردية في بلدانهم حيث لا يجدون فيها غير الفوضى والغش!

هــذا هو أكثر ما يســتفز ثائر الســومري، فَقَــدَ صوابَه، صار "يصرّح" متهوّرًا آونةً، ومتشــجّعًا مســتقويًا بإمام ورعٍ متنورٍ طورًا آخــر، وعندما يجلس وحده معــي مطمئنًا "ولــو مؤقتًا أو لحين" مشــافى معافى مرتاحًا، يهمسُ لي قائلًا: " ليس لنا من ذلك غير حكم الخلفاء الراشدين، ومع ذلك قُتل أغلبهم غدرًا".

باســتثناء هؤلاء لم يحكم المسلمين حاكمٌ بغير القوة والسطوة والاستبداد، كأي رئيس يستحوذ على السلطة باسم الدين! هذه هي الحقيقة! تعب الناس من الحروب والاقتتال والدمار وهم متعلقون بالماضي "الجميل"!

هناك العديد من المسلمين المتنورين ممن صاروا يدركون أن تاريخنا الرســمي المعروف لنا دوّنه المنتصرون، لدينا روايات لا يزال الناس يختلفــون عليها حتى يومنا، في حقيقة الأمر لم يكن كلّ ماضينا جميلًا كما يتصور أغلبهم، وإن عادات البدو وتقاليدهم لا علاقة لها بالإسلام، الموضوع معقد ويا ليتني لم أتطرق إليه.

يا أخــي باختصار، إننا ضيعنا المشــيتين، "لا إحنــه بالبر ولا بالبحر"، أو صرنا: "لا سمكة ولا دجاجة". عالمنا تسيّره المخابرات

الكبيرة، تستغلُّ سوءَ الأحوال الاقتصادية وبطالةً يعاني منها الشبّان في هذه البلدان.

تصــور، إنه لا مفر لهؤلاء الفقــراء غير طلب اللجوء في بلدان الرفاهية، طيب إلى متى تبقى هذه الشعوب على هذه الحال وإلى متى ستســتمر هذه الهجرة إلى أوروبا وماذا ســتكون تبعاتها في المستقبل على الأجيال القادمة لاختلاف الدين والتقاليد وصعوبة الدمج وتقبل الآخر؟

أرأيتَ كيف تشعبتُ وأهملتُ الموضوع الرئيس، كما طلبتَ مني، أردتَني أن أحدثك عن حياتي هنا، سامحني، الله يخلّيك اعذرني! لكــن لا بأس، ولا يهمك عزيزي، ســأحاول من جديد الدخول في صلــب الموضوع مرةً أخرى. هذه حلوة، عبارة "صلب الموضوع"، خوش كليشة!

****

يا ســيدي، أعود إلى البيت من "ســفرتي" اليومية إلى محطة القطــار في مدينتي الصغيــرة الجميلة الهادئــة الهانئة المحاطة بالخضرة والمياه أينما اتجهت، لا توجد هنا شــعارات سياسية، لا أســماء الحكّام، ولا صورهم إلا في فتــرة الانتخابات! أبحث عن دراجتي من بين المئات، كالعادة أنســى أين ركنتها بالضبط، في النهايــة أجدها وأركبها متجهًا نحو الشــقة، عليّ أن أتذكر تركيب المصباحيــن الأبيض الأمامي والأحمر الخلفي، وإلا فإن شــرطة المــرور قــد يوقفونني. نعم، حــدث مرةً معي هــذا الأمر، كانت مفاجأةً بالنســبة لي عندما أوقفني الشــرطي باحترام كأنه حصل علــى صيد ثمين! دقّقَ رقم "شــاصي" الدراجة، غريــب، لِمَ فعلَ ذلك؟ هل شــكَّ في الأمر؟ لم أتضايق منه، لم أفكر بأنه اعتبرني سارقًا، نطقتُ:

_ أنا حقًّا إنسان جيد، هذه دراجتي!

أجابني بهدوء كما لو أنه يهمس بأذني:

_ "نعــم، لكن دعني أرى الرقم، وطبعًا لازم تدفع غرامه لأنك لم تضع المصباحين الأمامي والخلفي!"

كانت الغرامة عبارة عن 150 كرونة لا أقل ولا أكثر. أتذكّر أني لم أواصل قيادة الدراجة، بل مشيت على قدميّ ماسكًا إياها بيدي اليمنى وأنا أتمتم بين نفســي مبتسمًا: "حتى المَطي (الحمار) ما خلص منكم!"، أبتسمُ ساخرًا من نفسي ومن كلماتٍ تلقائيةٍ تفوهتُ بهــا، هل هو الخوف من الشــرطي أم من هول الصدمة؟ أوقفني كما لو أني ســارق دراجة، مَسَــكني متلبسًــا بالجريمة! أم كوني تصورتُ نفسي في العراق، الشــرطي نسميه "أبو إسماعيل" و"أبو الواشر" يعني مرتشٍ! يأمر وينهي، بينما الجندي العراقي محبوب أكثر، يُكنّونه "أبو خليل"، استبســلَ في مدينة الخليل الفلســطينية كما ســمعتُ، لكني، والحق يقال، لم أَخَفْ يومًا من رجال الشرطة، أما مخبرو الأمــن، قتّالو القُتَلَى! طبعًا كانــت عيونهم تقدح نارًا، يتطاير منها الشرر، ترعب أشجعَ الشجعان. إنه على أية حال درس جيد لي وللآخرين، وبالذات أولادي المشاكسين، سأخبرهم بذلك، وقوانين ســير الدراجات الأخرى، لا تختلف كثيرًا عن السيارات. إنها باختصار قوانين حركة المرور، لكن ماذا نعمل لبعض مواطنينا الأكابر القادمين من الشــرق الأوسط وشــمال أفريقيا، هؤلاء لا يلتزمون في بلدانهم بهذه الأمور، يقودون دراجاتِهم على هواهم، "عامي شــامي"، عالعمياني، ولا حتى هنا، ســيحتاجون إلى وقت طويل للتكيّف مع المجتمع.

يا ترى هل يحدث ذلك لاستسهال الأمر وعدم الاكتراث والتقليل من شأن قوانين حركة الدراجات؟

وهو، أعني القانون، في النهاية مشــرّعٌ لمصلحتهم وسلامتهم، وبالــذات الأطفــال، عليهم تعلّــم قيــادة الدراجة فــي ممرّاتها

المخصصة لها وليس على أرصفة المشـــاة ولا عكس الاتجاه، نحنُ نحب ذلك بالجينات!

أتذكر أني ســـمعت بأن أحد الآباء اللاجئيـــن الطيبين صدمته سيارة، كان يقود دراجته بعكس الاتجاه، وفهمت أن عموده الفقري تأثـــر قليلًا، أو كثيرًا، والعهدة على الراوي، واســـيتُه عندما التقيته صدفـــةً في إحدى المرات، طيّبتُ خاطرَه كما يجب، تعاطفتُ معه متأســـيًا بطريقتنا العراقية، قال لي بطيبته وبساطته المعهودتين: "يلّه هَمْ زين، آني هَم أريد أطلب تقاعد مبكر لأســـباب مَرضيّة!". ابتسمتُ، بل ضحكتُ تلقائيًّا، لم أتمالك نفسي، صاحبُنا هذا شاب ســـمين ضخم طويل القامة، عيناه زائغتان، كبيـــر الأنف يذكّرني بجينكيز أيتماتـــوف، تجري في عروقه خلطة دمـــاء عربية تركية فارسية كُردية وآسيوية، يحب النكتة والمزاح، يجيد طبخ المشاوي وأكلها، يتســـلّم إعانات البلدية ولا يستطيع أن يشتغل، لديه "معاناة نفســـية"، كما يقول، من ظروف الحروب، يعمل "بالأســـود"، أيضًا، كمـــا يصرّحُ لي علنًا وبـــكل أريحية، أو عنده "تطبيق" و"تنشـــيط" حســـب القانون، مع رفاقه ويتسلّى مســـاءً، يتمشغل في المطاعم، يعني بشكل غير رسمي متهربًا من الضرائب، يريد أن يحصل بأي ثمن على تقاعدٍ مبكّرٍ لأســـباب مرضية ونفســـية، قبل سن التقاعد 65 عامًا على الأقل بثلاثين سنة.

سألته لِمَ لَمْ يحصل على التقاعد المُبكر حتى الآن؟ وكأنه حقه المكتســـب منذ الولادة؟ ردَّ عليّ عاضًّا شفتيه "والله هذه المسؤولة عنصرية، إي نعم عنصررررييييه كُلّللللش".

قلتُ لنفسي: "يابه والله حقّه! لماذا لا يعطونه التقاعد، وكل أوراقه ســـليمة؟" ههه! هذه القصة ستعجبك كثيرًا يا يونس وستستفسِر مني عنها كثيرًا! لا بُدّ أنك تفكر بالاستفادة من خبرة الآخرين.

هناك نســـبة كبيرة من اللاجئين يسمون المرشدين والمرشدات

الاجتماعيين "مسـؤولين ومسؤولات"، لا إشكال في ذلك، لكن بعض القادمين من لبنان يقولون: مسـائيل! من أين أتى هذا الجمع؟ من مُسائَل؟ يعني مسؤول! وهل هو للمؤنث أم المذكر أم لكليهما؟ لستُ لغويًّا لأفتي باللغة! لكنها مع ذلك فوضى لغوية لا مثيل لها، كل واحد يحكي حسب رغباته ومزاجه وهواه! لا قواعد ولا هُم يحزنون!

****

ألمحـتُ بأدب لشـاب لبنانـي، قلتُ لـه بهدوء: "مسـؤولين، مسؤولين!"، الحمد لله أنه لم يلطمني على وجهي، صرخ بعصبية: "وأنت شو دخلك فيّ؟ عَمْ بتصححْ لي؟ عامل حالك إستاز عليَّ؟"، اعتـذرتُ له، أجبته: "معاذ الله! ولا يهمك، حقك عليّ، تدلّل عيني، مسائيل، مسـائيل! مثلما تريد، مسائيل أحلى من مسؤولين، أصلًا الكلمة أعجبتني، فيها موسيقى ورنين، ونبرة وإيقاع جميل وحنين، خصوصًـا إذا غنّتها فيروز: مسـائيييل! مسـائيييل! عم بينادوا البحارة والصيادين، ماسكين القناديل! مسائييل!"، تطلّعَ فيّ ناقمًا غاضبًـا والعرق يتصبب من جبينه، يقول بعتاب وأقل عصبية: "عَم تتمسـخر عْليّ؟". فجأة ظهر شخص آخر، يبدو أنه صديقه، أبعده عنـي، غامزًا لي بودٍّ، مهدئًا إياه، هَمسَ له: "لَكْ رووق، شـو بيك يـا زَلَمَه؟ هذا عراقي محتـرم!". واختفيا، لكنه عـادَ، حيّاني هو وصاحبه، أبدى إعجابَه ممازحًا مبتسمًا بأغنية مسائييل!

نعود إلى السيد العراقي الطفولي النجيب الحبيب، فعلًا أكن له المحبة وأتعاطف معه، يريد الحصول على التقاعد المبكر منذ عقد من الزمان، وهو لا يزال في ريعان شـبابه، لم ينسَ أن ينصحني قائلًا: "يابا آني سمعت أنت تدرس كثير وتتعب نفسك، ليش متعب نفسـك؟ لازم تأكل وتهتم بصحتك، أنت ضعيف بالنسبة لي، شوف آني شـلون سـمين، عندي كرش، تَرَه البطـن الكبيرة مو بَسْ جاه وسمعه، هاي صحة ضرورية! إي شلون كان أتحمل ضربة السيارة

لولا قوة جسمي؟! بابا ما تسوه الدنيا هنا، ماكو شغل، هم ما يشغلونا إحنه الأجانب، بابا هذوله عنصريين بس هم يتظاهرون بشيء آخر، يسوّون نفسهم طيبين وحبّابين، كلها تمثيل وخداع، "كلاوات" مثل ما نقول بالعراقي، هَذول عندهم وجهين، يعني نقدر نقول يجاملونا، إذا ما نسميهم منافقين، ويتصورون أنفسهم أذكى من الآخرين، الديمقراطية لهم بس، لكن بشرفي مع ذلك ماكو أطيب منهم، روح اطلب تقاعد أحسن لك، راح يساعدوك، هذول يحبون الضعيف، الفقير، المريض، الذليل، المسكين، تتذكر أغنية "آني المسيكينه"؟ إي هم يريدون التمسكن، حتى يشتغلون عليك، يعينون لك سايكولوجيًّا ومشرفًا اجتماعيًّا، وطبيبًا، ويهتمون بأطفالك، يسوّون لهم نشاطات كلها بلاش، هم يستفيدون، يحصلون شغل وساعات كثيرة! وأنت إذا حصلت على التقاعد، عيني، تستفيد من مخصصات الأطفال المضاعفة، وتهتم بنفسك، وأي شي تشتغله بالأسوَد يفيدك، أخي ما يصرّف لنا نشتغل بالأبيض إذا كانت الزوجة ما تشتغل، معناها راح يقطعون راتب اللجوء!

اشلون نقدر ندبرها براتب واحد، لا، بابا لا، تعال عندي أوكلك الكباب العراقي بالسمّاق، كلّه لحم غنم وليّه مليانة دهون مفيدة، (قالها عاضًّا شفته السفلى هازًّا رأسه كعادته) والله آني أحبك وأعرفك، أنت إنسان طيب وكلهم يحمدونك، تعال عدنا بالمطعم تتونس وتشرب شاي عراقي وتسمع كل الأغاني العراقية القديمة، والله تخلّيك تبكي!".

أتذكر أني شكرتُه، أوصيته أن ينتبه على نفسه عندما يقود دراجتَه مرةً أخرى، وينبه أطفالَه أيضًا، ودّعته متمنيًا له السعادة، وتحقيق أمنيتِه "التقاعد المبكر"، إذا كان هذا هو حلمه الحقيقي في الحياة، ويدير باله من دهون لحم الغنم.

نرجع إلى "سالفتي"، عن رحلة الصيف والشتاء اليومية، بدأتُ

بها رسالتي وانشغلتُ بكل هذه التشعبات والخزعبلات. عندما أصل إلى البيت أتحمّمُ، أتناولُ وجبة الغداء الساخن، أشربُ الشاي وأستمع إلى أحاديث الأولاد الأبالسة، صراخهم، مشاكلهم، مشاكساتهم، مستوى قراءَتِهم، الدروس وواجباتهم البيتية. في ذلك اليوم، تسلّمت مخالفةً مروريةً، تتذكر؟ حكيت لك عن الموضوع، نعم، نسيت وضع مصباح الدراجة، شرحتُ الأمرَ كلَّه للعائلة ونبّهت الأولاد بذلك، مهم لسلامتهم.

كما ترى أن الوقت قليل، وأنا لم أفكر بأن أبقى أعتاش على إعانات الضمان الاجتماعي ولا التقاعد المبكر لأسباب مرضية، وأدّعي عدم قدرتي على تعلم لغة أهل البلد أو التظاهر بالجنون والحالة النفسية المزرية، فالحديث النبوي الشريف يقول: "لا تتمارضوا فتمرضوا"!

بل آخذ بقول الشاعر صفي الدين الحلي:

بِقَدرِ لغاتِ المرءِ يَكثُر نَفعُهُ

فَتلكَ له عِندَ المُلِمّات أعوانُ

تَهافتْ على حِفظِ اللغاتِ مُجاهدًا

فكلُّ لِسانٍ في الحقيقةِ إنسانُ

****

أغلب معارفي وأصدقائي، بل جميعهم يعتبون، "وينك يا رجل؟ لماذا لا تتصل بنا؟ لماذا تنقطع عنا؟ لماذا حابس نفسك في صومعتك؟" أحدهم زعل عليَّ لمجرد أني لم أهاتفه مدةً قصيرةً. ليس لديه تصوّر عن حالتي، يعتقد وضعنا متشابه طالما أننا لاجئان في هذه البلاد، هو لديه وقت فراغ طويل يضيّعُه مستخدمًا الهاتف كثيرًا، يعتقد أني مثله.

إنا غريبان ها هنا! وكل غريب للغريب نسيب!

هذه أيضًا مشكلة كبيرة من نوع آخر واجهتنا في الفترة الأولى من قدومنا إلى هذا البلد، التلفون له أصوله، قسم منهم لا يجيدها، فحالما تتصل به يبادرك": هاي وينك انت يا رجل؟".

ويبدأ يلقي عليك محاضرةً طويلةً في السياسة والأخلاق، وينهي المكالمة بـ: "اتصلْ بي" على طريقة "راجعني في المكتب"، وإذا كان أكثر لباقةً وكياسةً فسيقول لك: "أحب أسمع أخبارك".

كأنهم أطفال يلعبون بعُلَبِ معجون الطماطم الفارغة، كانوا يثقبونها ويربطونها بسلك طويل من مكان لآخر، يصنعون منها التلفون ويلهون: "خابرني وأخابرك"! وهكذا يقتلون الوقت!

أتمنى من كل قلبي المنخوب المنتوف المنكَوب، "المنقوب" ألف "نقبة" أن تكون ما زلت حبّابًا وحْبَيّبًا كما عهدتك في الأيام السالفة، عندما كنتَ توزّعُ فيها "فستق سوداني" والحلوى الملفوفة بشعاراتٍ ممنوعةٍ، كان من الأفضل أن يمسكك في وقتها رجال الأمن والشرطة وينهون حياتك، فقد كانوا خلصوك من وطأة الحياة اليوم ومصاعبها وأصبحتْ لا تطاق. مع الاعتذار لكل أبناء أفريقيا السمراء منقذة العالم وحاميته مستقبلاً، وللإخوة الحبُّوبين السودانيين بالذات من جماعة الزول على من يسمّيه "فستق عبيد"! هذه تسمية غير مقبولة، كلنا مسلمون ومسيحيون ويهود وصابئة مندائيون ومجوس ويزيديون وبوذيون وهندوس وسيخ لا نفرق بين الأسود والأبيض، لكن ويا للأسف قلة وعي وسوء أخلاق. المفروض أن نسمّيه فستق سوداني. لا، وفوق كل ذلك مصاعبهم، أقصد السودانيين، تأتي من كل الجهات، والله يساعدهم على قضية الجنوب.

والغريب، أن بعض الناس هنا من جماعتنا اللاجئين لا يحبون الشخص المشغول بأموره وحياته الشخصية بعيدًا عن القيل والقال. ولا يودّون الجلوس من دون اغتياب الآخرين وتشويه سمعتهم،

لا، عفــوًا تحليلهم تحليلًا "أدبيًّا ونفســيًّا"، أعرف واحدًا من هؤلاء أنفق ســنوات عمره في "تحليل" معارفه وأصدقائه و"شــخصياتٍ روائيــةٍ" وعد بوصفها فــي رواياتٍ وأعمالٍ أدبيــةٍ، لم يكتبها بعد مرور عقدين من الزمان، بقي دومًا يتحدث عنها.

كان يردد قائلًا بين الحين والآخر لهذا الشخص أو ذاك: "أنت شخصية تســتهويني الكتابة عنها، أنا أكيد راح أكتب عنك، أو في الحقيقــة العجينة الموجودة عندي راح أســوّيها أنت. ويجوز راح ألجــأ للخامات الموجودة عنــدي في اللاوعي والبــاك جراوند، وأستعين بها، أنت تلهمني".

عندها مازحته غامزًا "إن شاء الله ما يلهمك لهمًا على الطريقة العراقية"!

أحــد هؤلاء المثقفين الحالمين، اللاجــئ حاليًّا، بدأ حياته في كتابــة قصائدَ رنانــة في شــبابه وأنهاها في الدفــاع عن الفكر والتبريرات الأيديولوجية، وحقوق الإنســان و"التحليلات الأدبية" للأشخاص باعتبارهم خامات أدبية بالنسبة له ليس إلا. كان يقول لصاحبه: تعال نحلّل! تعال نحلّل الشخصية! وعندما يتعمّق بالتحليل والخمرة يقول:

_ تعال نُنَمنِم! تعال نُنَمنِم!

ثم يؤكد وهو يقسم بأغلظ الأيمان أنه لا يغتابهم.

والطريف، أو المضحك المبكي، يا أخي أن أغلب هؤلاء الناس هنا يقول لك عندما يريد أن يمتدح شــخصًا أو يزكّيه: "إنه إنسان محترم، "متكتّر"، يعني منعزل عن جماعتنا، لا يحب القيل والقال"، لكنهم هم أنفسهم يمارسون هذه السلوكيات.

الناس هنــا، أقصد اللاجئين، وبالذات العراقيين والشــرقيين بغــض النظر عــن أديانهم وخلفياتهــم، صغيرةً كانــت أم كبيرةً، يشــكون من عــدم وجود صداقــةٍ حقيقيةٍ وعلاقــات طبيعية، لم

يعتــادوا هذا النمط من الحياة حيث التفكير بحرية واســتقلالية، لا أحــد يحتاج إلى الآخر، كما يتصورون، الدولة تقدم لهم إعانات الضمان الاجتماعي إذا كانوا بلا عمل.

والمؤســف أن نســبةً منهم تُعاني من مشــاكلَ كثيرةٍ مثل الغربة والبطالة والانقطاع عن الأهل والأقارب والأصدقاء والشعور بالإحباط والكآبة و... إلخ من أمراض المهجر الاعتيادية وتربية قديمة، لم تعد تتلاءم مع روح العصر ومكان عيشــهم الجديــد. أصبحَ هؤلاء بنظر الإعلام مشــكلة المشــاكل والصعوبات في هــذا المجتمع الدنمركي المتطور، وصارت موضوعاتهم تنافس الطقس والضرائب.

اعلمْ يا صديقي يونس!

أقولهــا وأكررها لأكثر من مرة، ســتكون الأجيال الجديدة من بعض هؤلاء اللاجئين قنبلةً موقوتةً، إذا ما اســتمرت هذه الحملة الإعلامية الشرسة في تسميم الأجواء وتفريق الناس حسب أديانهم وأعراقهم.

قد يكون هؤلاء أقلية لكن صوتهم عالٍ، وســيكون آباؤهم عبئًا ثقيلًا على كاهل المجتمع! ألخّصُ لك فكرتي حول هذا الموضوع، لطالما سألتني عنه راجيًا منك ألّا تنزعج:

السياســيون الأوروبيون القوميــون المتعصبون الخائفون من الإسلام لا يســتحون ولا يرعوون أو يخجلون من إهانة المسلمين والحط من قدرهم، ويتربصون لهــم بالمرصاد يتحينون الفرص ويصطــادون كلَّ صغيرة وكبيرة يســلكها أغبياءٌ يشــوهون ثقافات شعوبهم وأديانها.

إنهــم، أقصد السياســيين اليمينيين، يتناســون أنهم بإهانتهم الأجانب فإنهم يحطّون من أنفســهم وسياســة الاندماج الفاشلة. يعني لو كان "برؤوس" هؤلاء السياســيين خير ولو كانت سياستهم الاندماجية ناجحةً لانعكست إيجابًا على أجيال المغتربين الجديدة.

ما هو دور المجتمع إذن؟

أليســت المدينة هي التي تطور الإنســان؟ يقــال: ليس هناك كلاب سيئة، هناك مالكو كلاب سيئون!

يعنــي ليس العتب علــى الكلاب بل على مربّيهــا، مع الاعتذار لجماعتنــا المغتربيــن على هذا التشــبيه، والكلــب أوفى صديق للإنسان، وأنا أحرّف كلامَ أرسطو عن الصديق فأقولُ:

ـ قُلْ لي من كلبك أقول لك من أنت!

يبــدو أن هناك قوى في الغرب والشــرق تريد أن تفصل بينهما وتجعلهما في حالة عداء مستمر ومستحكم؛ لتبرر وجودها وحروبها.

يعنــي، قد يكون أن أجهزة المخابــرات تغض النظر عمدًا عن المتطرفين وعملياتهم الإرهابية باسم الإسلام لتخيف شعوبَها منه.

هذه هي نظرية المؤامرة! وأنا لا أدري صحيحة أم لا! لكن مع مــن تحكي؟ من يفهم؟ ومــاذا ينفع كل هذا يا صاحبي غير القلق والألم، ولا تأثير لي كغيري من أصحاب الأغلبية الصامتة، لا حول ولا قوة لنا.

هــذا ما اســتطعت أن ألخّصه لك يا صديقــي يونس، ردًّا على تساؤلاتك.

****

* يقصد الكاتب المطربة العراقية لميعة توفيق. سلمان المنكوب ومسعودة العمارتلي من مطربي الريف العراقي القدامى.

****

رسائل من زمن الحصار لكاتب مجهول

الرسالة الثامنة:

أبناؤنا فلذات أكبادنا!

(أيلول/ سبتمبر 1993)

عزيزي يونس!

نسيت أن أخبرك، إني عندما أعود إلى البيت في السادسة مساءً أخرج أحيانًا بعد العشاء راكبًا دراجتي متجهًا إلى مركز تعليم الكبار، لأتعلم الكمبيوتر أو الحاسوب الآلي، كما يحب تسميته المتمنطقون.

وعندما أعود إلى البيت ثانيةً أراجعُ بعضَ الأوراق وأساعد أبنائي في دراستهم وحياتهم اليومية، وهذا يتطلب الوقت الكثير. بدأت أحسُّ بصعوبة تربيتهم في المجتمع الجديد وبالذات الأولاد منهم.

هناك بعضُ العاتبين اللائمين الشاكين المشكّكين عندنا لا يفهمون ماذا تعني تربية الأطفال في هذا البلد. إنهم باختصار ليس لهم هذه الاهتمامات، والآباء لا ينشغلون بهم، يتوقعون من المدرسة أن تربي أطفالهم وتعلمهم وترشدهم، وكثيرًا ما يذكرون المدارس في الشرق الأوسط على أنها الأفضل، تقوّم التلاميذ بالضرب والشدّة وتعلمهم، على عكس المدارس الدنمركية حيث يلهون ويلعبون! طبعًا حسب رأيهم أو فهمهم لنظام التعليم والمدارس هنا! وهنا يمكن أن نتفق أو نختلف معهم، لكن المفروض بالمدارس مراعاة ظروف أبناء اللاجئين الخاصة وأن تقدم لهم مساعدات تعليمية متنوعة.

بعض هؤلاء الآباء يفضل أن يلعب الأبناء في الشارع أمام

منازلهم وأعينهم على أن يذهبوا إلى مدارس الشباب المسائية، للتقوية وليتعلموا أيضًا هواياتٍ أخرى، يخشون عليهم الضياع في الحرية المطلقة.

قد يكون لديهم الحق، من يدري!

بالنسبة لي أنا أعتقد أن المهم أن تنمّي لدى الطفل شعور الثقة بالنفس واحترام الذات، عندها سيتجنب أصدقاء السوء ومشاكلهم، وسيستفيد من التعليم الإضافي لمدارس الشباب، غالبًا ما يكون للتقوية في المساء.

هؤلاء الآباء ممّن لا يجيدون اللغة، ليس كلهم طبعًا، بعضهم، لا يعرفون هذا النظام الدراسي، وأطفالهم يستغلون نقطة ضعفهم هذه. قسم من هذا النوع من أولياء الأمور يشكون من سوء معاملة أهل البلد لهم، ولا يستطيعون تعليم أبنائهم في البيت، ولا يفهمون طرق التعليم الجيدة غير التلقينية، وهُم، في الحقيقة، مشغولون بحياتهم اليومية والسفر المتكرر إلى بلدانٍ أتوا منها لاجئين، ليساعدوا ذويهم، وأمورهم الشخصية، أو بالعمل في المطاعم والمتاجر والتنظيف في أوقات المساء المتأخرة، لكسب المال ولِيعينوا أقربائهم المشتتين في مختلف أصقاع المعمورة، بخاصة في السنوات الأولى. هذا ما يردّده بعضُهم، فلِمَ يتعبون أنفسهم مع الأطفال وحضور اجتماعات المدارس ونشاطاتها المسائية أو إيصالهم إلى أماكنَ بعيدةٍ تحت المطر والثلج والبرد؟

"رعد وبردٌ قد ظَهَر! هل تتذكر هذه القصيدة، كنا نقرأها في المدارس الابتدائية؟".

إنها مسألة صعبة معقدة، ولا يمكن تحمّلها بالنسبة لِمن لا يجيد لغة البلد.

أغلب هؤلاء الآباء بالأساس ينحدرون من جبال "البلدان الدافئة" وقراها وأريافها وقصباتها وحدودها وتخومها، طيبون

فخــورون بثقافاتهم، لكن ليس كلهم حصل علــى التعليم الأولي، ومنهم أميون لا يقرأون ولا يكتبــون، عانوا من الفقر والحرمان، جــاؤوا إلى هنا للعمل وليس الاندماج في مجتمعات أخرى، وإنهم فجــأة ينتقلون إلــى نظام غير معمــول لهم أصلًا، بل للإنســان الأوروبي والإسكندنافي.

الآبــاء الدنمركيون غير المتعلمين جيــدًا، يعانون أيضًا من قلة الوقت وملــل اجتماعات وصعوبة تربية أبنائهم، لكنهم على الأقل يتحدثــون لغتهم ويعرفون نظامهم أفضــل من الأميين اللاجئين. وأنــا أيضًا أعاني من الحال نفســها، تصور أني لم أســتطع حتى مراجعة طبيب العيون في هذه الأيام، كَثُرتْ مشاغلنا.

التقيتُ قبل أيام بشــخص شــامي قديــم، لا أدري إن حدثتك عنه ســابقًا، نعــم، كلمتك عنه، مقيم هنا منذ الســتينيات، مغترب وليس لاجئًا، يعني على أساس مستواه أعلى منّا، دائمًا يكرر لازمته "أنا مش لاجئ، أنا مش لاجئ!"، ويضيف مبتســمًا "أنا أصلًا أَشْأَر، يفتكرونــي دنمركي، أنا أشــبههم"، اللاجئون الآخــرون يعتبرونه متعاليًا عالفاضي، "شايف حاله شوفة، أشأر وأزعر!".

وصار يحكي لي عن اللاجئين، بأن منهم من يراجع الطبيب "لأتفه الأسباب، لمجرد الإحساس بالقلق والفراغ والوسواس"، كما يتخيّل.

ثم أردفَ ســاخرًا "قالّك ضغط المجتمــع المتطلب عليهم، كله تفنيــص بتفنيــص، ذول يبالغــون ويضغطون علــى الأطباء حتى يحصلــوا على تقاريــر تعفيهم من تعلّم اللغــة والعمل أو التطبيق أو دورات التأهيل مقابل تســلُّم الإعانات الاجتماعية، إي هيك ما بيجوز، شــو هالحكي يا أبو زكي وشو هالمسخرة، فضحونا قدّام العالم، صايريــن كلهم علماء دين ويفتحــون جمعيات وياخذون الدعم المالي من برّا ومن الدولة، لا، وعَم يســبوا بيهم، زودوها، لا، والله زودها كتير"!

كان هــذا الرجل يتكلم ويردد بين الفينــة والأخرى "يا لطيفّ يا لطيف! العمَى شــو هالناس ما يســتحون، ما عندهم لا ذمّة ولا ضميــر؟"، بينما كنت أبــرّر لهم وأدافع عنهم قائــلًا: "مفيش حد أحســن من حد! القانون يبيح لهــم ذلك، طبعًا كلامك هذا ينطبق على فئة معينة، تساهل يا أخي معهم...".

كان يسمع نفسه فحسب، ولم تتغير ملامح وجهه الممتلئ، يبدو عليــه الوجاهة والثقة بالنفس، لم يصغ لي بل اســتمر يقول: "إي وهيك تكون النتيجة أنهم يتمارضون نفسيًّا ليحققوا رغباتهم.

وفــي المحصّلــة فعلًا يتمرضــون وهذا أمر طبيعــي، كل من يتمــارض يمرض، لا، ومش قابلين ويشــكون مــن برودة أعصاب الأطبــاء، قالّك يعاملونهم بــلا احترام ويريــدون التخلص منهم بســرعة، لك أنتــم في واحد يتحملكــم؟ وبيني وبينــك، الدكاترة طلعت أرواحهم منهم، ملّوا منهم وشــكاواهم، بالذات هذول اللي ما بيحكوا لغة"، عايشــين هنا سنين ولسّة ما تعلموا شوية لغة! وما بيخجلون، يسبسبوا بالأطباء باستمرار وما تربطهم علاقات منيحه بالأسوياء وبأهل البلد، ولا يشعرون بأنهم جزء من الناس والمدينة اللي يســكنون فيها، حياتهم لازم يكون لها معنى آخر غير التطفل على المجتمع وامتصاصــه وأخذ كل ما يمكن منه، ما لازم يكونوا ضحية وعايشين على الهامش والشكوى كلّ الوقت من المظلومية من دون تغيير النفس نحو الأحسن.

الله وكيلك هذول المهم عندهم أن يحصلوا على ما يريدون من خلال الانتقاد اللاذع والشــتم والتهديد والوعيد والضغط الشــديد علــى الأطباء والموظفين، هذا الصنف من البشــر شــعاره: إذا لم تنفع فَضُرّ، بصراحة هذول جايين من مناطق عنف، من كل العالم، ما بيخجلوا من حالهم، غاســلين وجوههم ببولهم على قولتكم في العــراق"! أوقفته عند حدّه، قلتُ له بفظاظةٍ: "أنت بصراحة تحكي

بفوقية كأنك مدير على الناس، من يسمعك يقول عنك أنت متحامل عليهم! خلاص!". أردفَ مباشـرة بـودٍّ بانَ على وجهه: "لا، أرجوك ما تفهمني غلط، والله أنا أتعاطف جدًّا معهم، أحبهم وأسـاعدهم بكل شـيء، بس لازم نوضح لهم أخطاءَهـم لأنهم منّا وبينا، منهم أقرباؤنا، واللـي يصيبهم يصيبنا، وكلنا مررنـا بهذا الطريق، لازم نعطيهم خبرتنا حتى يفيدوا الأجيال الجديدة، بنتي طبيبة نفسانية، أمهـا تركية وهي تتكلم تركي وفرنسـي، من مواليـد أفريقيا، إي، لَكَن، عَمْ تشـتغل معهم، وتسـاعدهم، واصلة فـوق (رفع يده إلى الأعلى)، وتقول: بابا، الدولة تصرف على كل عائلة منهم ملايين".

****

لم أعلّق على كلامه كثيرًا، شـعرتُ بالأسى والألم والضجر منه ومن طريقته، سرحتُ، أحسستُ باستعلائيته على الآخرين، التزمتُ الصمت والإصغاء، أنا أعلم أنه ليس أفضل من الآخرين لولا معرفته باللغات العربية والدنمركية والتركية والفرنسـية كما سمعته يتكلم بها. مزايا تُحسَـب له. لمّحتُ وبيّنتُ له فيما بعد ما معناه بأننا كلنا بشر نبحث عن الفرص ونقتنصها، وأن الحق على الدولة وقوانينها والرقابـة، وأن هؤلاء فئة صغيرة ضعيفة تكوّن انطباعًا سـيئًا عن الآخرين، يستغلون قوانين حقوق الإنسـان والمدنية المعمول بها في هذا البلد. هؤلاء مرضى ويحق لهم ذلك.

أحـب أن أخبرك يا صديقـي يونس بأن تصورنـا عن اللجوء السياسـي تغير، هنـاك العديد مـن اللاجئين هم فـي الحقيقة يبحثون عن فرص عمل في هذه البلدان ولا علاقة لهم بالسياسة فـي أوطانهم، وهُم مسـبقًا على دراية ومعرفـة جيدتين بقوانين الرفاهيـة فيها وثغراتها، يريدون مـلاذات آمنة هربًا من حروب "أشعلها الغرب" في بلدانهم، كما يبرّرون دومًا.

هـؤلاء لاجئـون اقتصاديًّا، والمفروض من القـارة العجوز أن

تمنحهم تأشـيراتِ عمل صريحـة مقابل تعلم اللغـة وتقبّل ثقافة المجتمع، أوروبا تحتاج إلى أيدٍ عامله.

"أطفالُنا فلذات أكبادنا" يدرسـون يوميًّا في المدرسة، أولادُنا يحبون اللعب، البنات يتظاهرن بالدراسة، أنا وبعض الزملاء صرنا مثل الصغار، أنهينا أكثرَ من دورة دراسية تأهيلية للمعلمين، إضافة إلى هوايتي الأساسية، تتطلب مراجعة النصوص والقراءة والتوسع والمصادر والقواميس و"اسكت وخلّيها قصة طويلة".

ثم، أنا، وهذه هي الحقيقة، سكراب أو رابِش، مرات أبقى حتى الصباح مسـتيقظًا لا يأتيني النوم، تستبيحني الآلامُ والصداع على مصير العالم وتخريب الطبيعة.

يدمرني، بل "يفلّشني" الأرق والقلق وأبقى أتقلب في فراشي حتى الفجر، أنهض، أرتدي ملابسي وآخذ حاجاتي خارجًا إلى دراساتي.

غَيّـرتُ حتى الآن نظارتين، أي خلال سـنتين، وعيوني مثل ما نقول بالتركية "جُرُك"، والمشكلة أني لا أعمل شيئًا في هذه الأيام غيـر القراءة والكتابة والبحث عن العمـل. أكيد راح تقول: الناس عندنا يموتون جوعًا من الحصار! الحصار! الحصار!

****

هنا، إذا أردت موعدًا عند طبيب العيون فمن الممكن أن تنتظر سـتةَ أشهرٍ، يعني تلحق أن تنسـاه عندما يحين الموعد! وهذا ما يحدث للعديد من الأجانب غيـر المعتادين على الحياة الجديدة. هذا بلد المواعيد!

سألتَني عن التأمين الصحي، الحق يقال إن كل الطبابة مؤمنة هنا، لكن الناس يشـكون من الأطباء، يقولون عنهم: باردون، غير مبالين، ليسوا بالمسـتوى المطلوب، يدّعون أنهم يعالجون الناس بالمحادثة لا بالأدوية وحدها، كلام فارغ، إنهم مشـغولون وقتهم قليل، لا مجال عندهم للحديث مع المريض كثيرًا!

عمــلُ الأطباء والمستشــفيات هنــا منظم على درجــةٍ عاليةٍ من الانضبــاط، مــع ذلــك تنتقدهــم الصحافــة وتراقبهم باســتمرار. المستشــفيات هنا مفتوحة ونظيفة، كل شيء مخطط له، مواعيدهم تمشــي مثل الســاعة، لا يجرون أي عملية من دون موافقة المريض نفســه، ويخبرونــه عن كل التفصيــلات، والزيارات غالبًــا ما يكون مسموحًا بها في كل الأوقات، ولا تعقيدات بشكل غير طبيعي، لدرجة أننا لم نتقبل هذا الأمر، وأنا أضحك وقد أبالغ في الوصف الآن! على عكس الحال في الدول الأخرى أيام زمان، مثل الاتحاد الســوفييتي، كانت المستشــفيات مغلقة كالقلاع، مقفلــةَ الأبواب، موصدة النوافذ والمنافذ، كل شيء مسدود، تلتزم بقوانين صارمة بخصوص الزيارات، خوفًا من انتشار الجراثيم والأمراض، كما سمعتُ وقرأت عنها.

وفي هذه المناســبة، أحب أن أورد لــك عزيزي يونس مقاطعَ من حكايةٍ طريفةٍ قرأتها مؤخرًا، كتبها صحافي، على شكل رسالة كما أقوم أنا، أكتبُ لحبيبي يونس "اســحبني" الغاضب عليّ دومًا. يقول الكاتب:

"فــي إحدى المرات، قبل عقد مــن الزمان، عندما كنت أعملُ في موسكو مراسلًا، سكنتُ في منزل مشترك، سقطتُ من درجات السُــلّم في بنايتنا، وصدِّقوني أني لا أحب التفصيلات، ولكن ماذا أعمل؟ ينبغي عليَّ وصف الصغيرة والكبيرة، زلقتْ رجلي، سقطتُ، تألــم ظهري، "زاد الطين بلّة، أنا بالأســاس، أصلًا أعاني من آلام الفقرات، و"كمّلْ الغرقان غطه".

بقي الألم قويًّا، أخذتُ الأمور بلا اكتراث، أو بروح رياضية، يعني ســبورت. واســتمر الوجع يومين أو أكثر، تصورت الأمر مجرد آلام مفاصــل، أُصبتُ أيضًا بنزلة برد شــديد أو إنفلونزا، لا أحب الأطباء وزبانيتهم، أو لا أميل إليهم وزياراتهم، لم أسأل عنهم، تناولت بعض الحبــوب المهدّئة، لكن الأمر لم ينته، بل تطور نحو "التصعيد"، كما

يقول رجال السياسة والحرب، صرت أعاني من الآلام "الشِّديدة جدًّا جدًّا" على قولة جماعة الزول السـودانيين! أعانَهم الله على زراعة أراضيهم الخصبة الجميلة، في كل "أنحاء وادي النيل".

تضاعفـت الآلام، اتصلنـا بطبيـب الخفر، وصلت الإسـعاف، نقلوني مباشـرةً إلى مستشـفى بعيد، خارج المدينة. عُمر الأطباء "ما قالوا" لي أحتاج عملية، لكنهم في هذه المرة ذكروا اسمًا آخرَ، وأنا تصورتها للفقرات، لكنهم لفظوا جميعًا بصوتٍ مسـموع كأنهم فرقة مارش موسيقية عسكرية: المريض يحتاج إلى عملية الزائدة الدودية، "إنها سبب آلامه"! هل هذا معقول؟

****

على أية حال، بمجرد سماعي "بالقرار الرهيب"، خفت وشعرتُ بـأن كلَّ الآلام تبخـرت وذهبـت أدراج الرياح، هـل تتذكر روايةَ "ذهـب مع الريح"؟ فقَصصتُ عليهم الروايـة، ليس رواية فرجينا وولف طبعًا، بل قلت لهم: "خلاص، خلاص، ما عندي آلام، خلّوني أروح للبيت!"، لم يبالوا لي، أعطوني الأذنَ الطرشاء، وأدركتُ حقًّا أنَّ "الخروج من الحمام ليس كدخوله"، كما يقول المثل المصري، لكنهـم اطمأنوا عليّ قليلًا كما يبـدو، أمهلوني إلى يوم غد طالما توقفت الآلام فعلًا.

التهاب الزائدة الدودية أمر خطير يسـتدعي إجراء عملية، كما فهمت فيما بعد، وهُم يقلقون أكثر بالذات إذا كان المريض أجنبيًّا، يضاعفون الاهتمام به درءًا للمشاكل والفضائح، يبدو أنهم تساهلوا معي وانتظروا ليوم غد لتوقف الآلام. قلت لنفسي: "سأتدبّر أمري بنفسـي وأقوم بشـيءٍ عمرهم ما شـافوا مثله"، فعلًا كان لي ما أردت، تسللتُ مساءً من الردهة إلى الباب، "هربتُ" منذ البداية.

"قالك عملية! آني، على "قولة" ابن جاري وضاح اليمني نقلًا عن عادل إمام، أخاف من كلب، يجيني أسد! فكيف لي تحمّل العملية؟".

ويتابع الصحافي رسالته: "أنا أكتب لكم هذه الحكاية مبتسمًا متذكرًا كيف هربت مرة من أحد أكبر المستشفيات الموسكوفية، الأبواب والشبابيك موصدة فيها، مع ذلك فتحتُ نافذةً بمساعدة مريض روسي ضخم، أجل كل شيء تم بمساعدتهم بدءًا من إلهام الفكرة انتهاءً بتطبيقها، رميتُ معطفي الشتوي من الشباك، سقطَ على الثلج.

أتذكر أن "الزميل" الروسي سألني إن كنتُ أود الخروج من كوّة الشباك الصغيرة العالية، "الرازونة"، اقترحَ عليّ أن يرفعني بيديه! اتفقنا في النهاية على فتح النافذة المغلقة من دون أن يكسر الزجاج "بالقوة الجابرة" على قول صديق قديم، كان مولعًا بترداد هذه العبارة وهو "يعصر بروحه" كلما كان يقوم بشيء صعب يحتاج إلى جهد خاص كأنه يعاني من الإمساك، "ندخلك بالقوة الجابرة، نجيبك بالقوة الجابرة، ندقُّ المسمار في الكرسي بالقوة الجابرة"، وتصير عنده لازمة كالأسطوانة. كان هذا المريض الروسي الطيب يعتقد بنفس القناعات، قال لي وقتها: "إذا حاجة ما تفيدك اكسرها أو ارمِها"، أعتقد هو أيضًا كصاحبي ردّدَ عبارتَه هذه عدة مرات، وكاد أن يهشّم الشباك، بل أراد عملَ ذلك عندما يئس من الأمر، أثنيته عن ذلك وأنا "أقف على رأسه" أتحدث إليه بلهجةٍ آمرةٍ.

كان ذلك في المساء، لم يرني أحد عندما خرجت، وحتى إن رأوني، لن يستطيعوا عمل شيء، أصبحتُ خارج المستشفى.

أعانني الروسي في القفز من النافذة إلى الأرض، سقطتُ على الثلج وقبعتي على رأسي، تألمتُ قليلًا، تناولتُ معطفي، لبستُه متوجّهًا نحو موقف سيارات التاكسي، بينما كان الروسي الضخم يلوّح لي بيديه مبتسمًا وهو يقول مودّعًا إيّاي: رافقتك السلامة!

****

يظهر لي أني لم أكن الأول ولا الأخير من المرضى الهاربين

من هذه المستشـــفى، ما هي إلا لحظات حتى جاء أحد السائقين، أقلني فرحًا حالما أخبرته عنوان ســـكني البعيد. فكرتُ بين نفسي وأنا اجلسُ في التاكســـي، بأن الروسي أظهرَ مهارةً فائقةً وحِرَفيةً فـــي إعانتي، لا بدّ أنه كرر هـــذه العملية عدة مرات، وإلا من أين لـــه هـــذه الخبرة؟ لا بُدّ أنه اكتســـبها بمرور الزمـــن! أجل هذا ما جلب انتباهي، نعم هذا ما لاحظته عليه. كذلك رأيتُ روحَ المبادرة والمبادأة والتطوع لعمل "الخير"، وسرعة التنفيذ!

فجأة فكرتُ بســـائق التاكسي، غريب أمرُه، كان ينظر إليّ كأنه علـــى موعد معي، وينتظرني! ســـؤال حيّرني، يـــا ترى هل هناك تفاهم أو اتفاق ضِمني بين الروسي الضخم وسائق التاكسي؟ إنه هو مَن ألمح لي، بل اقترحَ عليّ الهروب من المستشـــفى، حفّزني، شـــجعني وحثّني وحضّني وأقنعني بالفكرة، يا ترى لماذا قام بكل هـــذه الجهود النيرة؟ هل هو مجـــرد عمل خيري من دون مقابل؟ هل ســـيحصل على نسبةٍ من سائق التاكســـي؟ أو على الأقل قنينة فودكا صغيرة، إكرامية له من الســـائق؟ كـــردٍّ جميلٍ على زبون أو صيدة في هذا الليل؟ كل شيء ممكن!

****

في اليوم التالي سمعتُ طرقًا على الباب، فتحتُه، سألتني فتاة شـــابّة، قالت إنها ممرّضةٌ عاملة في المستشفى المحلي المشرف على منطقتنا الســـكنية، وهي تقرأ اسمي الثلاثي الكامل، فيما إذا أسكنُ هنا، أجبتها ببرود:

- نعـــم، هذا جاري، هو يســـكن هنا، لكنه غيـــر موجود، هل حدث مكروه ما له؟
- يـــوم أمس أدخلوه المستشـــفى للعلاج وإجـــراء عملية، لكنه اختفى!

سألتُها بهدوء أكثر من السابق:

_ وماذا عليّ أن أفعله؟
_ هل ستراه اليوم؟
_ نعم، بالتأكيد. أفترضُ ذلك.
_ إذن أرجوك أن تخبرَه بأن يراجعنا في المستشفى المحلي.

****

رافقتُ الممرضة الشابة الجميلة، أوصلتها إلى الممر بهدوء، تابعتها بنظراتي تهبط إلى الطابق الأرضي حتى خروجها مطمئنةً من بنايتنا. سمعتُ المنظفة الثرثارة العجوز تقول للممرضة إنها رأتني فجرًا أثناء عملها، ولم ترني اليوم خارجًا في الصباح من البناية.

أرادت المنظفة إقناعَها بالعودة معها إلى شقتنا المشتركة، اكتفتْ الممرضة بأن طلبت منها إبلاغي وصيّتها.

كان بعض منظفات البنايات في الاتحاد السوفييتي المرحوم يعرفن كل شاردة وواردة، يتجسّسنَ لمدرائهن، يخبرنهم عن الصغيرة والكبيرة، إلا المنظفة المدمنة الطيبة تمارا، كانت لقاء حصولها على القناني الفارغة مجانًا مني تزودني بالمعلومات عن "دسائس" مديرة السكن المشترك ماريا سيرغييفنا ذات العجيزة العظيمة، كنت دائمًا وأبدًا أفكر بحجم لباسها الداخلي.

يعني، إن المستشفى أخبرت العيادة المحلية في منطقة سكني وأرسلتْ ممرضتَها للاطمئنان عليّ. شيء مثير واهتمام كبير بالمواطن رغم الدعايات المضادة آنذاك عن الاتحاد السوفييتي، لا، ومن أين تصدر هذه الدعايات؟ من دول متخلفة تفتقر إلى أبسط مقومات الحياة مثل التعليم والطبابة، فتصور!".

****

قصة صاحبنا الكاتب هذه تعود إلى الثمانينيات، لا أدري كيف كان الحال هنا في الدنمرك آنئذ، لكنه طبعًا تحسن من كل النواحي، طبيب العائلة هنا يعرف كلَّ شيءٍ عن المريض من خلال

الكمبيوتر، والمستشفيات هنا مفتوحة ولا يجبرون أحدًا على إجراء عملية، بل بالعكس، يحذرون المريض من الآثار الجانبية والمخاطر ويعطونه فرصةً أخيرةً للتفكير بالأمر وإعادة النظر باتخاذ القرار.

كما ترى يا صديقي من هــذه الحكاية أن الأمور هنا مختلفة، وأن مستشــفيات الاتحاد الســوفييتي كانت مغلقةً أمامَ الزائرين بــلا مواعيد، لكن مع ذلــك أفضل من لا شــيء، بينما اللاجئون والمغتربــون هنا قادمــون من بلدان ليس فيهــا احترام للحقوق المدنية، بل فيها شــعارات سياســية وخطابات رنانــة، تُلقى على أسماع الناس بالســماعات والســيارات والراديو والتلفزيون ليلًا نهارًا و... إلخ من صداع الرأس وكلام فارغ!

عزيزي يونس!

أعود إلى الكتابة إليك، بعد أن تركت هذه الرسالة على المنضدة عدة أيام، أسبوع، أســبوعين، لا أتذكر بالضبط، لكني أتذكر أمرًا مهمًّا، هو الاعتذار! نعم أعتذر! أعتذر على التأخير! سامحني!

ألا تلاحــظ يــا صديقي يونــس أني أطلتُ عليــك وغرقت في تفصيــلات حياتي اليومية، كل ما أريده، وأُكرره، هو أن تفهمَ أنت والجميع بأني لا أســتطيع الإجابةَ عن كل الرســائل ولا عن جميع أســئلتكم، ولا أدخل في التأويلات والشــكوك بالآخرين، عائلة أبو نمير، لم يريدوا لكم غير الخير. سأحاول تلخيص بعض التفاصيل الصغيرة حول بيت أبي نمير، سبق أن تحدثنا عنها، لأريحكم وأزيح عنكم سوءَ فهمٍ، أفصحتم عنه غير مرة في رسائلكم الأخيرة.

يا أخي أقولُ لك إن الشــيخ الجليل الحاج أبا نمير اضطرّ إلى الرحيل من هنا إلى الأردن، ومنه إلى بغداد، وتمت الأمور بسرعة لا يمكن تصورها، وهو رجل طاعن في الســن. كان ابنُه مشــغولًا بترتيب ســفره إلى الوطن في ظرف لا يزيد على أسبوع، لا سيما أن جواز ســفره كان سينتهي وأن تمديده هنا غير ممكن أولًا لغلق

السـفارة هنا، ومكلف جدًّا ويسـتغرق وقتًا طويلًا إن قاموا به في مـكان آخر، لم يكن أمامَه إلا البقـاء أو العودة. وقد تندهش، إن قلتُ لك إنه اختار الثانيةَ مفضلًا الموت في بلده على الغربة.

وأنا سـاعدتهم قليلًا، ابنه وزوجته انشغلا كثيرًا بسفره، الحمد لله أنه وافق على أخذ بعض الأشياء لكم. لم يسعفنا الوقت لنشتري لكم هدايا خاصة غير الأدوية ونقـودًا أعطيناها الأولوية. عمومًا المفروض ألا نكلف الشـيخ أبا نمير بأخذ أي شيء آخر ثقيل لكم، ولا يحق له أكثر من 20 كيلو.

كنا جميعًا في المطار، أنا ونمير وزوجته وأطفالهما ووالده أبو نمير جالس على الكرسـي المتنقل المخصص للعجزة والمسـنّين، وأنا كنت أتطلع إليه وأخشى لا سمح الله وفاته في المطار، وأقول لنفسي "الأعمار بيد الله".

كان ابنه نمير يشرح له بعضَ الأمور، بالذات أدويتكم، ويطلب منه أن يكرّرها على مسامعنا، يقول لنا:

_ تتصوروني مخرف؟ طبعًا أتذكّر كل شـيء. أهم شيء عندي هو أن أوصّل الأدوية لبيت أبو يونس والفلوس حتى أكسـب الأجر والثواب قبل ما أموت.

نحـن، أنا ونمير، اتصلنـا بهم، أقصد عائلة أبـي نمير عندما وصلوا إلـى عمّان عالسـريع بطريقة "عباس مسـتعجل"، تكاليف التلفون الخارجي غالية عليهم وعلينا.

_ ألو، اشتروا علبة حلويات وأعطوها إلى بيت أبو يونس.

_ طيب.

وانقطع الاتصال الهاتفي، نحن نبعد عنهم آلاف الأميال. غادر أبو نمير الأردن في اليوم نفسه، خوفًا على صحته لئلا يموت في الغربة، ولم يتمكنوا من شـراء علبة أردنية، اشترى الناس، أقصد بيـت أبو نمير، لكم علبة حلويـات من العراق. "خلف الله عليهم"،

لكنكم "زعلتم" عليهم، اعتبرتموها إساءةً لكم؟ لماذا؟ لا أفهم!

هل هذه مكافأتكم له لأنه جلب لكم النقود والأدوية والهدايا؟

لاحظتُ أنكم متحاملون قليلًا على أبي نمير، رغم أنه سـلّمكم الأمانةَ فضلًا عن "صوغات" أخرى، نَسِيَ الشيخ هداياهم الخاصة بهـم هنا، بينما أخذ معـه هداياكم. مع ذلك تقول لي يا يونس "لا نريد حلويات عراقية، نريدك أن تسحبني!".

****

عمومًا الشيخ أبو نمير، والد صديقنا، غير ملزم بجلب أي شيء لكم عدا الأدوية والفلوس، يعني ما خفَّ وزنُه وغلا ثمنُه.... صحيح أن ظروفكم قاسـية، لكنكم انفعاليون، وفـي هذا الوقت الصعب يمكن أن يتغير الناس ويخونهم التعبير عن أنفسهم.

أصارحُكم بمثل هذه الأمـور حبًّا لكم، وكان المفروض أخذها برحابة صدر وتشكروهم بدل التأويلات.

ألا تلاحـظ يا يونس بأنكم تسـرّعتم فـي أحكامكم وصدّقتم هواجسكم قبل التأكد من صحتها؟

والطريف، أن أبا نمير أكد فيما بعد غير مرة بأن عَفَشَه ومتاعَه وحقائبَه وصلت، لكن قبل مدة تسلَّم ابنُه نمير رسالةً من الخطوط النمسـاوية يخبرونهـم فيها بأن إحدى حقائب والـده "أبو نمير" عـادت أدراجها إلى الدنمرك، فعلًا، تسـلّمها نميـر وكانت مليئةً بأغراضِه وهدايا عائلتهم. سـبحان اللـه، هداياكم وصلتكم، بينما أهل أبي نمير لا! قسمة!

ثم، يا أخي يونس، أنا عندما نصحتك بالاهتمام بزوجتك وأهلك، لم أقصد أنك تضيّع وقتك في اللهو أو عديم الشـعور بالمسؤولية أو أنك تحضر الحفلات ولا هم يحزنون، لِمَ هذا التأويل المتسرع والانفعال؟

كل ما فـي الأمر أني أردتُ أن أقولَ لـك كلمةً طيبةً ليس إلا، ثم من قال إن حضور الحفلات عيبٌ؟ وهل هناك أجمل منها في

حياة الإنســان إذا ما كانت في وقتها المناسب؟ يعني حرام عليكم أن ترتاحــوا قليلًا؟ غناؤنا بكاء، بكاؤنــا نحيب وعويل، وهذا حتى في الدين حرام. ألم يقل الرسول الكريم: "الكلمة الطيبة صدقة". والإمــام علي قال: "ليت رقبتي كرقبــة البعير كي أزنَ الكلام قبل النطق به". أعتذر على هذه الصراحة!

****

الســاعة الآن هي الثالثة صباحًا "حســب التوقيت المحلي". غدًا عندي شــغل في الصباح الباكر. يعني إذا كنت سأســتيقظ الســاعة السابعة على أقل تقدير فمعنى ذلك أني سأنام أربع ساعات، فتصور! وبعد كل هذا تعاتبونني على أشياء صغيرة يُفترض بكم أن تتجاوزوها.

تريدونني أن أشرح لكم كل شيء، أُفسّر لكم كل التفصيلات والتصرفات، هذا غير صحيح، المفروض بكم ألا تظنوا الســوء بالآخرين، لست كاتب رسائل أشرح لكم فيها صغائر الأمور.

لاحظ، إن هذه الأمور أقل حدة في المجتمعات الأوروبية إن لم أقل إنها غير موجودة، هذا هو سبب تطورهم. كتابة الرسائل تصير مثل "العرائض"، تصبح مملّة إذا انشغلنا بالعتابات وردود الأفعال.

"إي شايفني عرضحلجي خو مو عرضحلجي؟" وبالمناسبة هل لا تزال مهنة كتابة العرائض موجودة في العراق؟

هنا يتعلم الناس كتابة طلبات العمل في المدرسة، وفي دوراتٍ دراسيةٍ خاصةٍ، ولها خبراء.

****

الرسالة التاسعة:

المستعجل يضحّك حتى الدجاج!

تشرين الأول/ أكتوبر 1993

صديقي يونس!

هناك مثل روسي يقول: "المستعجل يضحّك الدجاج"! يعني حتى الدجاج يسخر منك إن تصرفتَ بسرعة، أو إن أنجزت شغلك في عجلة من أمركَ!

مرَّ على كتابة "الحلقة" السابقة عدة أسابيع انقضت بسرعة البرق. لطيفة "سرعة البرق" هذه. وهل هناك من يحب السرعة مثلنا. حدّثني مرة أحد أصدقائي الأجانب عن تجربته في بلداننا العربية: "كل شيء عندكم يتم بارتجال وسرعة! لماذا؟ لا أحد يفهم، ولا أحد يريد التفكير في مثل هذا الموضوع الحياتي الكبير. أعتقد أن هذا يحدث من جراء الصراع المستمر على السلطة والفوضى، وهذا يعيق تطور المجتمع ويؤثر على نفسيات المواطنين.

إنكم، أو بالأحرى الحكام المتسلطون، غير صبورين يريدون الحصول على النجاحات أو المكتسبات بأي ثمن، بسرعة، من دون تخطيط هادئ، يستغلونها إعلاميًّا، يجيّرونها لصالحهم، ينظّمون هوسات واحتفالات دعائية كأنهم في حفل قبلي وسياسي، يحمّلون شعوبهم جميلهم. نعم، إنهم أصحاب فضل عليهم إن بلّطوا شارعًا بالأسفلت مثلًا، وهذا يؤثر على طريقة تفكير المواطنين وأسلوب حياتهم. على الإنسان أن يعمل بهدوء وجِدّيةٍ من دون أن يفكر بنجاحاتٍ، إنها ستأتي بالتأكيد إن كان شغله صحيحًا ومنظمًا ومتفقًا عليه مع الآخرين وضمن الخطة!

هنا، في الدول المتطورة لا ترى مثل هذه المظاهر، كل شـــيء يجري مثل الساعة بنظام وتخطيط، والإعلام يتحدث عنه، والناس يشاركون في النقاش حوله ضمن حواراتٍ هادئةٍ.

****

أعتقد أني باعتباري "شـــخصيةً معمليةً فذةً"، سأكتب في هذه الرسالة عن هذا الموضوع. ولا أدري إن كنت قد تطرقت إلى هذا الداء الرهيب في مجتمعاتنا أم لا، على الأرجح أني فعلت ذلك.

لن أتحدث عن الســـرعة بمفهومها الفيزيائي ولا الفلسفي، بل كجانب من جوانب حياتنا.

أنا، حقًّا، أجدُ صعوبةً كبيرةً في تفســـير إهمـــال مفكرينا وعلماء الاجتماع لموضوع ســـرعة الانفعال العصبي وإطـــلاق العنان لآرائنا و"صَفْـــقِ" الأبواب وعـــدم إغلاقها بهدوء خلفنـــا، والقلق الزائد عن اللزوم، والتغير السريع بالمشاعر تجاه الآخرين، وغيرها من صفات يومية تنعكس سلبًا على حياتنا وعلاقاتنا الشخصية وتعاملنا مع بعضنا.

وتظهـــر مرارة الحيـــاة لدى أمهاتٍ متعبـــاتٍ كثيرًا ما يصرخن ويصفقن الأبواب وراءَهن.

روى لي صديقٌ قديمٌ تجربتَه، قال محدّثًا في جلســـة سمر مع آخرين:

"تصـــور، إني كنت أعمل في إحدى الـــدول العربية، وفي أثناء تجوالي في أول يوم لي هناك مع زميلي، كان يشـــتغل في مدينة صغيرة، ســـمعتُ أبوابًـــا تُصفقُ وأصواتًا نســـائيةً غاضبةً، لم أفهم اللهجة أو الكلام، قلتُ لصاحبي على الفور:

_ أُراهنك أن هذا البيت تسكنه أم عراقية.

اندهش صاحبي للأمر، سألني:

_ هذا صحيح، لكن اشلون عرفت؟

_ ألا تســـمع صفقَ الأبواب وصراخ امرأة؟ وهل هناك أكثر من

الأمهات العراقيات خبرة في الصراخ؟".

وغرقنا في الضحك لهذه التحليلات.

أعتقد يا سـيدي، أننـا باختصار نفكر في الأمـور التجريدية والفلسفية والفكرية الكبيرة، ونهمل الجوانب الحياتية البسيطة، أو الأمـور اليومية، يحصل عندنا "تراكم معرفي كبير" يعيقنا عن حل أمورنا اليومية، كما يحلو لأحد أصدقائي المتعبين أن يعبّر.

في وقتها ضحكنا جميعًا مـن تعبيره هذا: "التراكم المعرفي"، وسـاعدناه علـى تطويـره، ووصلنا إلـى مصطلـح "التراكمات الأخلاقية"، قد يكون أكثر عملية.

واسـتنتج أحـد الأصدقاء في نهاية الجلسـة أنـه من الأفضل استخدام مصطلح" تراكم الممنوعات والمحرمات".

اختلفنا معـه على الفور، قلنا له كلّنـا: "لا لا، لا تخلط الأمور، هذا سـؤال في الفلسـفة، يختلف تمامًا عن القضية الأولى، هذا موضوع مرتبط بالظروف الموضوعية والذاتية، ومن ثم التركيبة السـايكولوجية للإنسان عندنا و... إلخ من التعابير الجاهزة. لكننا في النهاية اتفقنا معه على أن مصطلحه يمكن أن يكون مسـاعدًا للتعبيرين السابقين.

****

أرأيت كيف نسـيتُ أن أحدثك عن السرعة، ببساطة، اندمجتُ في شرح مصطلحات فلسفية لا علاقة لك بها؟

إنه، يا صديقي مرض متأصل فينا، خلاصته أننا نتسرع في كل شـيء، نحب المهمات الكبيرة ونريد أن نكون كبارًا في كل شيء وبسـرعة، نود أن نكون أغنياءَ وأذكياءَ وعلماءَ وأصلاءَ ومناضلين وساسـةً ومسـؤولين وكتّابًا في زمن أصبح فيه الحصول على كل هذه الأشياء مرةً واحدةً صعبًا جدًّا.

وهـل هناك أكثر منا مـن يحب ركوب الصِّعـاب والمغامرات

والموت على جبهات القتال أو تحت التعذيب في السجون، ويريد التغلب عليها بالنظريات لا بالواقع؟

****

نحن، وسامحني مرةً أخرى على التعميم، يا سيدي، باختصار نحمّل أنفسنا ما لا طاقة لنا به، وعلينا أن نفهم وندرك ونستوعب إمكانياتنا وحجمنا ودورنا الحياتي وننظر إلى الأفق البعيد وإلا سنصاب بالإحباط والكآبة فيما لو فشلنا في تحقيقها. يعني، إننا، أقصد فئة معينة من المثقفين، حالمون غير واقعيين.

وهل هناك أكثر منا من يتميز بقصر النظر، أو من لا يرى أكثر من أرنبة أنفه، كما كان مدرس التعبير يعلمنا؟ هل تذكره أبو خشم؟ كنا نسميه "الكبة" لضخامة أنفه. لا بدّ أنه جرب أن يراقب تلاميذه من خلال أرنبة أنفه الكبير ففشل. هل تعرف ماذا قال باسكال عن كليوباترا: "لولا كِبر أنفها لملكت العالم بأسره" أو شيئًا من هذا القبيل.

ولنرجع إلى موضوع السرعة. بالمناسبة ألا تلاحظ بأني أنا أيضًا مصاب بداء السرعة، أكتبُ بسرعة، أنتقلُ من موضوع إلى آخر بسرعةٍ، أقلبُ على كل الموجات القصيرة والمتوسطة والطويلة، كما قال لي صديقي، أريد أن أحدثكم عن كل شيء في هذه البلاد بسرعةٍ! بجملةٍ واحدةٍ أو بعدّةِ جُملٍ، قد يصعب عليكم فهم رسائلي، لا سيما أني أجمع أفكارًا مختلفةً في قصةٍ واحدةٍ! هل أنا مشتت؟ هل أنا مهموم؟ هلْ؟ هلْ؟ إنها أسئلةٌ تدمي القلوب وتعذّبها في الشعور بتأنيب الضمير وجلد الذات يا صديقي العزيز!

إنها لوحة سُريالية كبيرة عنوانها: هَلْ؟ متعددة الألوان والتموجات الهادئة والصاخبة أحيانًا، ومتعددة المستويات، أسئلة متناثرة هنا وهناك، مبعثرة على سطحها وفضائها، منتشرة في كل زواياها الخفية الغامضة والواضحة، هلْ نحن شعب حر؟ هلْ وطننا سعيد؟ هلْ سنبقى نردد: سنمضي سنمضي إلى ما نريد! وطن حر وشعب

سـعيد؟ هلْ نحن سـعداء؟ أم تعسـاء؟ أم بؤسـاء؟ هلْ نحن قبائل؟ هلْ نحن عشـائر؟ بطون؟ أفخاذ؟ حمولات؟ أحـلاف؟ بيوتات؟ هلْ نحن أمة؟ عربية؟ واحدة؟ هلْ نحن أصلاً سـومريون؟ أم قدمنا من اليمـن أو الجزيرة العربية، عبرنا الخليج من البحرين لنسـتقر في الجنوب؟ هلْ نزلنا من الجبل وعبرنا البحر حقًّا؟ هلْ نحن من الهند وأفغانستان؟ هلْ نحن من تركيا؟ هل نحن عيلاميون؟ لكن العيلاميين بالأصل قبائل سومرية هجّرها سرجون الأكدي من العراق، هلْ نحنُ داحـس؟ غبراء؟ هلْ نحن متطورون؟ هـلْ نحن متخلفون؟ هلْ نحن متحضرون؟ هلْ نحن نتاج الانقطاعات والانكسـارات؟ هلْ بقي فينا شيء من جينات أسلافنا السومريين؟ هلْ نحن من البلدان النامية؟ هلْ اجتزنا مرحلة التطور اللارأسمالي نحو الاشتراكية؟ هلْ؟ هلْ؟ هلْ نحن شعب الهَلات؟ أم شعب الهلهولة؟ هل نحن أمة الهلاهل؟ هَلهلْ، هَلهلْ يا جبار؟

هلْ سـنبقى نردد: اسأل الشرطة ماذا تريد؟ سنمضي سنمضي إلى ما نريد! وطن حر وشعب سعيد؟

هل حقًّا: "احنه طليعة، أمه عريقة، غالي وطنه شـعبنا أصيل!" "هلهلْ، هلهلْ يا جبار"!

إنها عمل فني صاخب مليء بالتساؤلات والبحث عن أصل لوحة الانحطاطـات وموضوعات التدليس والخيانـات وتكميم الأفواه، مقلقة! يقـول عنها المحللون النفسـانيون: إنها تعكس شـخصيةً مشـتّتةً متعبةً، مرهقة، قلقة، تعاني من الوجد والهموم، أجل إنها لوحة "هلْ"، تتورط بطرح السؤال ولا تنتهي بأجوبته، تبحثُ دائمًا وأبدًا عن الأسئلة ولا تجد الإجابات.

هلْ لأني مشـغول بالأفكار والتجـارب والادعاءات المتنوعة؟ هلْ لأني حاولتُ وأحاول أن أقحمَ رؤوسكم بها؟ هلْ أنتم تفهمون الواقع كمـا هو من دون رتوش وترتيبات وتزويق وتفلسـف، لا حل أمامكم

غير سحبكم إلى هنا لتتخلصوا من كوابيسكم، أو لتزيدوها وتعمّقوها، ومــن يدري؟ قــد تدونوها، وأنا، عندما أكتب عــن هذه الأمور ليس لأني خارج إطارها، بل أنا أيضًا جزءٌ من اللوحة وهذا الكل.

يعني، يجوز نســخة محســنة منكم! هلْ تتذكر لوحة البابلي أو الســومري، لم أعد أتذكر أيهما، نســيتُ، أنا مهموم مغموم الآن، نســيتُ، لكني أتذكر عنوانَها، لوحة "لــو" الفارغة، وله أيضًا لوحة "هــلْ" هي الأخرى بلا ألوان، مجرد فضاء، "فارغة" كما يتصورها الناس، لكنها ألهمتني الآن بكل هذه التســاؤلات، أجل لوحة "هلْ"، جعلتني أسألك الآن: هلْ تتذكر زميلَنا في الثالث المتوسط، الشاعر الفلتة عندما كان يلهو بكتابة قصيدتِه على السبورة، كلّنا كنا نمزح ونمرح بغياب مُدرّسنا، كان فيها بيت:

كلنا عراقيون مجانون!

كان يتصور أن كلمة مجانين ترفع بالواو والنون! وكان يقصد:

كلنا عراقيون مجانين!

مازحه زميله الآخر، صاغها بطريقة طريفة متلاعبًا بالحروف: غيَّر القاف إلى فاء بمسح إحدى النقطتين، وضعَ شدّة على الراء، حذف الياء وشدّة على الجيم وأضاف لها الياء، صارت الفقرة:

عرّافون مجّانيّون
كلنا عراقيون مجانين!
عرّافون مجّانيّون!
تنبؤاتُنا للناس أفيون،
نعتاش على النوائب!
دجالون!
متشنجون موتورون!
مغرورون عالفاضي!
نقرأ الممحي ولو في الصين!

نعيشُ في الماضي!
نلبسه يوميًّا، نُدفَنُ فيه، نكفَّنُ به!
إنه أمرُ القاضي!
لم يبق لنا منه غير الخرائب!
نسخر من الآخرين،
مخالفين الدين،
نجتر المصائب،
ونُقبلُ على النوائب!
ثم أضاف لها أخرى:
كلنا عرّابون مجّانيّون!
كلنا مسودنون!
سومريون! سومريون!
نجتر بسرعة!
نلتهم الطعام!
والأنامَ!
والآلام!
نعيش دومًا على الأوهام!
نبتلعهم كما تبتلع بالوعات المدينة المتثائبة فضلات اللئام!

لم يغتظ "الفلتة" من إضافات زميله المتهكّمة إلى قصيدته، أضحت لــه ولم يبالِ بتهكّمه منه. إنســان هادئ، طيب ومســالم! همُّه الأول والأخير أن يصير شاعرًا بأي ثمن وبالسرعة القصوى بلا متاعب.

هذا هو داء السرعة يا صديقي، سنبقى نعاني منه! وأعتقد أنه متأصل فينا نحن العراقييــن. تعميم خطير غير موضوعي أعتذر منه، وانا أُصرّح بأني ضد التعميم! لاحظ الازدواجية!

ألم أقل لك: كلنا عراقيون مُسَودَنون!

****

هل فكــرت يومًا كيف كان والدك أو والدتك يتناولان الطعام؟ بالتأكيــد لا، أنت لا تختلف عنهما، أنا أتذكرك كنت تأكل بشــراهة ونهــم. أنت يا رجل كنتَ تجتر. تقول بعد الشــوط الأول لأية لعبة كرة قدم نلعبها:

"أنا مــن المجترات، لا أهتــم بنصائح المــدرب ولا الطبيب". كنتَ تأكل الســاندويجات في لحظة واحدة، تلتهمهــا، تبلعها بلعًا في اســتراحة الـ"عشــر دقائق" أو أكثر بقليل، كنت تشــرب عدة قناني بيبســي كولا وكراش وفانتا ومِشِن وكندا دراي، كأن معدتك "بالوعة"، مجاري مياه الصرف الصحي، استهلاكي لكل المنتجات الأجنبيــة بامتياز، ولمجرد أن يبدأ الشــوط الثاني من اللعبة حتى "تفلتهــا" ولا تصيب الكُــرةَ، بل تخطيها، تركل الهــواء، "تفركعها"، نسخر منك، قائلين: "تضرب زوالي".

أظنك ما زلت تتذكر هذا المصطلح، كنا نتداوله أيام زمان.

ألم نتعلم من أهلنا، منذ الصغر، مَثَل "المستعجل يروح للتواليت مرتيــن"؟ وهذا طبعًا ترجمة له من العامية الفضيحة، عفوًا أقصد الفظيعــة، إلى العربيــة الفصيحة، المقصود: "المســتعجل يقضي حاجته مرتين!".

قــد يقول قائلٌ "والله أنا ســمعت أن "العاقل لا يُلدغُ من جحرٍ واحد مرتين"، ولم أســمع بهذا الكلام الفاضح! المهم "ما علينا"، فكّر معي لِمَ كان الناس يتراكضون إلى المرحاض وأياديهم "على الزناد" كأنهم متقدمون إلى قتال، أياديهم على ســحّاب السروال، يدخلونه أكثر من مرة؟

حدّثنــي أحد أصحابي قائلًا: "أنــا أتذكّر أن والدي عندما كان يأتــي من العمل، يدخل البيت يتوجه مثل الصاروخ إلى المرحاض قبل أي شيء. ليش هذي الشِّدة؟ لا أعرف.

إذن أين "في التأني السلامة وفي العجلة الندامة، أو العجلة من

الشيطان والتأني من الرحمن، ولا تُسرع، الموت أسرع!"، لكن من يسمع؟ من يقرأ؟ عيني هذا كله مثل ما قلت لك بس حكي!

وأردف صاحبي يقول:

والآن دعوني أحكي لكم قصةً طريفةً عن أبي، لها علاقة بالسرعة:

"في إحـــدى المرات كان والـــدي كعادته يلتهـــم الرز والمرق والخبز، يجتر الأكل، ملعقتـــه كبيرة يملأها ويدخلها كلها في فمه. يحكي لوالدتي قصةَ يومه، عن ناسٍ التقاهم وآخرين لم يلتقِ بهم، وأشـــياءَ اشتراها وأخرى لم يشـــترِها، كانت غاليةً، وأسعار السوق بدءًا من اللحم انتهاءً بمواد البناء والتعمير والسيارات والاستيراد والتصدير وأثمان المفرد والجملة وغيرها من أمور يحتاج الإنسان إلى جلسات طويلة ليتحدث عنها بمثل هذا الإسهاب.

إلا أنه كعادته "نفضها" كلها مرةً واحدةً في فترة الغداء! وليس هذا فحسب، بل كان يراقبنا جميعًا ويصدر لنا الأوامر:

_ اقعد عدل، اقعدي زين أنت يا بنت!

و... إلخ، الطامة الكبرى حدثت عندما قال لي:

_ كُلْ بهدوء ابني، لا تستعجل بالأكل!

أها، تعجبت للأمر، أجبته بعفويةٍ:

_ أنت تأكل بسرعةٍ، قل لنفسك هذا الكلام!

وكانـــت الصاعقة، انقلب البيت، تحولت تلـــك الظهيرة اللاهبة إلى جحيم.

غضبَ الوالد غضبًا شـــديدًا، بينما علقت الوالدة هامسةً وهي تخفي ابتسامتَها: "عيب ترد على أبوك".

فـــي الظهر أراد الوالد أن يأخذ قيلولتَه المعتادةَ، علينا كالعادة التزام الهدوء، بل الصمت، "صاموت لاموت! اليحكي يموت!"، لم يحالفني الحظ في ذلك اليوم، حاول أبي الإمساك بي، هربتُ من البيت، رحت أعدو وأعدو في الشارع، وكان هو يركض ورائي، كأنه

يتســابق معي والريح، يريد أن يظفر بغنيمته والشــرر يتطاير من عينيه، لجأتُ إلى منزل أحد أصدقائه، "ورحت أعيط، ورحت أعيط وأعيّط وأعيّط وأعيّط" على طريقــة عادل إمام، تكفلني صديقه، انتزعَ منه كلمة شرف بأنه لن يضربني إن عدت إلى البيت.

وقتها خفــت من العودة إلى البيت، لكــن صديق والدي طلب مني ذلك، وأذكر أنه قال لي:

_ "لازم تسمع كلام بابا، هو يريد لك بس الخير".

رجعــتُ إلى البيت ماشــيًا القهقــرى خلف أبــي، قلبي ينبض بنبضاتٍ سريعةٍ متوقعًا الضرب المبرح إن دخلت، كان كما حسبتُه، حرًّا في وعده، لم يمسني بشيء.

المفاجــأة هي أن والدي هدأ وبدأ قيلولته المعتادة على عكس أمي، لم تســعفها محاولات النوم، بــررت ذلك بضوضاء الأطفال، قــررت أن تضربهــم لتهدئهم وكان "چفچيرهــا" بالمرصاد، على "وين اليوجعني" من ظهري، رأسي، يدي، رقبتي.

_ لــج يُمَّه الله يخلّيچ خلّيني، آني ما صدّقت خلصت من أبوي، هالمرّة أنت عليّ؟ أنت اشجابك عليّ؟ ليش؟

لم تنفعني كلُّ التوســلات بها أبدًا، بــل بالعكس، يا أخي كانت تضربني بقوةٍ وقسوةٍ.

ضحكنــا لهذه القصةِ ولكلمــةِ "الچفچير"، ملعقــة أو "مغرفة" دائرية كبيرة مســطحة مليئــة بالثقوب، كانت أمهاتُنا يســتعملنها لطبخ الرز وضربنا به عند الضرورة، وفعلًا على قولة المثل: "شــر البلية ما يُضحِك".

هــل تعلم يــا صديقي يونس أن هذه القصة لــو حصلت هنا في "بلدان اللجوء" كما تســمونها تكفي لانتزاع الطفل عنوةً من والديه من دون نقاش، وقد توضع الأم وراءَ القضبان! وتصبح قصة منتشرة في كل وسائل الإعلام! من إيده الله يزيده! ونقول عنهم: عنصريون!

رسائل من زمن الحصار لكاتب مجهول

الرسالة العاشرة:

عراقيون مسودَنون حتى النخاع!

(كانون الأول / ديسمبر 1993)

العزيز يونس!

مضت أسابيع قليلة على آخر رسالة كتبتها لك؟ تسلَّمت منك مكالماتٍ رنانة فرط صوتية كثيرة، لاحظت أنك أيضًا لا تختلف عنهم كثيرًا، لا تحب أن تسمع الآخرين، لا تفكر إلا بشكواك، تعيد وتصقل بنفس الموضوع! نفس الأسطوانة! اسحبنا! اسحبنا!

وهذا أمر خطير. لاحِظ أني لا أزال أستخدم التعابير الضخمة مثلكم: خطير، رهيب، مدمِّر، يجنن، يخبّل، وأعتقد أن الناس عندكم وسعوا قاموس المفردات التضخيمية، هو ميدانهم ويمكن أن يبدعوا فيه.

أنت الوحيد في هذا العالم، يجب سماعه، أنت المفكر والعالم والمبدع والفيلسوف الفريد من نوعه في هذا المجتمع، على الناس الإصغاء إليك لوحدك، وقراءة كتبِك فحسب، أما الباقية فما هي إلا خزعبلات وترّهات وكلام فارغ، مجرد حشو لزيادة عدد الصفحات على غرار بعض قصص أيام زمان القديمة.

أنت الأول والأخير، ومشاعرك أنت وحدك هي الصادقة، كل الآخرين كذابون ومخادعون. أنت العبقري الأوحد، أنت وحدك تحمل العالم على كاهليك المحدودبين، ينبغي على الآخرين الالتفاف حولك وتسليمك الراية وسط عتمة تسود السواد الأعظم من الناس، أنت الزعيم الأوحد، منقذ جماهير بلاد ما بين النهرين

العظيمين وملهمهم.

أعتذر، سامحني على هذه المقدمة الحزينة والقاسية، أنا أيضًا واحد منكم، أختلف عنكم في الشكل قليلًا وليس في المضمون الحقيقي. اطمئنوا، أنا واحد منكم، لكن "بتصرف"، نسخة محسّنة كما قلت لكم سابقًا، غريب عن الديار، يعني صرت أنظر إلى نفسي من الجانب الآخر، من الضفة الأخرى، أتطلع إلى العيوب أكثر من المحاسن لتقويم الأخطاء وليس الانتقاص والتقليل من الشأن.

أقسمُ لك ما كنتُ لأريدها أن تكون مقدمة قد تبدو قاسيةً في الشكل، لكن ليس في المحتوى مع الاعتذار لجماعة "الوحدة الموضوعية بين الشكل والمضمون".

لديّ صديق قال لي مؤخّرًا: "بصراحة، الرسائل الأخيرة القادمة إليّ من العراق صارت أكثر من مؤلمةٍ، يكررون فيها الموضوعَ نفسَه: يريدوننني أن "أسحبهم" إلى هنا. وإنَّ أهلي ومعارفي يستفسرون مني عن "رواتب اللجوء" كما يسمّونها! وإن جيران أهلي يطلبون منهم "دونارات"، يقصدون دولارات! أحدُ هؤلاء الجيران، لا أعرفه ولا يعرفني، لم أره في حياتي، طلبَ مني، طبعًا بعد أن ضغطَ عليهم وأخذَ عنواني منهم، مبلغًا يشتري به سيارتين، تصورتُها لُعَبَ أطفالٍ، خصوصًا أنه قال لي: إنه يريدهما لولدَيه فلان وفلان، وأنا لا أعرف أعمارهما! تصورتهما صغيرين، بعثتُ له مبلغًا يكفي لشراء أربع أو ستِّ سياراتِ أطفال صغيرة يشتريها في العراق لطفليه، تبين أني غلطان بالنمرة، صاحبنا يريد سيارتين حقيقيتين ليشغّلهما ولداه! غضبَ عليّ وقاطعَ أهلي! اعتبرها إهانةً كبرى! كثُرتْ الطلبات عليّ، وإمكانيتي محدودة! ومنهم من طلب أن أجد له بنتًا، شابةً، مواطنةً صالحةً من هذا البلد لتتزوجه، قال لي: "مهم الشكل والعمر، لكن إذا صعبت الأمور، "مو مشكلة!" أهم

شـــيء الأخلاق والوفاء على العهد!"، وطبعًا المهم أن تعمل له لم شمل! يعني تسحبه! أين أجد له هذه المرأة، ومن أين لي كل هذه الطاقــة حتى أقوم بمثل هذه الأمور؟ الحصـــار أكبر جريمة ضد العراقيين، جعلهم يفكرون بمثل هذه الخوارق".

صديقي يونس!

وأنتم تقومون بالأمر نفسِـــه، تريدوني أن أسحبكم، كيف أعمل ذلك؟ أنا لست وزير الداخلية ولا مُهرّب أو قَچَقچي، بل أنا إنسان ملتزم بالقوانيـــن، ولا ألتقي المهربين ولا مـــزوّري الوثائق. أنتم تنتقدوننـــي لأنـــي أحدثكم عن أمـــور لا تعنيكم، كمـــا تقولون أو بالأحـــرى تتصورون، وتعتقدون أني أوجّه هـــذا الكلام إليكم وأنا أعنيكم وأنتقدكم أو أسخر منكم.

وتقولون بأن الشعوب الأخرى تقوم بنفس التصرفات. من أين لكم هذا؟ وثم ماذا؟ وهل يعني أننا "نقلد" سلوك الآخرين السيئ؟ عجيب أمركم!

كنـــت أود أن أحدّثك اليوم عن أمور وعدتك بها في الرســـالة السابقة. وكيف كانت والدتي "تكسر" أنفي وتحرق عيني بالصابون عندما كانت تغســـل وجهي في الحمّام، وكأنها تتخاصم معه، لكن يبـــدو أن الظروف المزاجية لن تســـعفني اليوم للحديث عن هذه "الظواهر".

هكـــذا نحن دائمًا نلجأ إلى هـــذه المصطلحات والذرائع وإلى الظـــروف الموضوعيـــة والذاتيـــة، واليوم أضفـــتُ إليها مصطلح "الظروف المزاجية".

****

علـــى أية حال، أرجوك أن تذكرني مرةً أخرى. ولا تتضايق من هذا الطلب المتكرر، هذه هي الظروف، أعدُك بأني سأحدثك عن الهدوء عند هؤلاء الناس وكيف يُحمّم الآباء الهادئون هنا أولادَهم

وبناتِهم الصغار في الحمّامات مع الرجال، والاحتفالات، وحفظهم للأغاني لكل المناسبات على عكسنا نحن "المتخصّصين" بالهَمِّ والغمِّ والحزم والجزم والرفع والصفع والجر والنصب والرفض. ننصبُ ونرفضُ!

أجل كنت أود، كما في المرات السابقة، أن أحدثك عن حفلات أعياد الميلاد، وحتى عن الدورات الدراسية الخاصة برقص الزامبو والسالسه والشواء وطباخة الطعام الصيني أو طريقة أكله، أو البحث عن العمل وكتابة طلبات الحصول على الوظائف والعمل "العرائض" وكتّابها وخبرائها، يحصلون على مرتّباتهم كأي موظف في المؤسسات!

لكن يتضح من هذه المقدمة الحزينة أننا سننشغل اليوم بالإيضاحات ورد العتابات والمثل يقول: "اليحبك يعاتبك" و... إلخ من هذه الكلائش.

****

أعود إلى الكتابة مرة أخرى.. في الحقيقة، إني أشعرُ بالتعب الآن والعتَب، إنه الإرهاق والوهن والضجر الفعلي، نكد ونكد! أعتقد أني سأترك الكتابة وأطلع أشم هواء في الشرفة الصغيرة، رأسي سينفجر لا محالة، عذرًا لك، بصراحة لا أضمن عودتي إليها الآن، قد أتركها إلى إشعارٍ آخر، سامحني مقدمًا على عدم الكتابة بالتفصيل عن موضوعاتٍ طلبتَها مني، قد أموت والأعمار بيد الله، وأُصابُ بالاكتئاب لفترةٍ طويلةٍ، كما حدث لاثنين عراقيين مسكينين محبطين ظلا يعانيان في أثناء فترة انتظارهما الحصول على الإقامة هنا، أصيبا بالأمراض النفسية، ثائر السومري ومناضل البابلي، ومحاولات الانتحار "برًّا وبحرًا، وطمرًا"، آخرها كانت شنقًا، لم تتكلّلْ بالنجاح، والحمد لله، أنقذه أحدهم، لا أريد أن أخبرك من هو المنقذ، المهم أنه يعاني حتى هذه اللحظة من

اضطراباتٍ نفسيةٍ، قد ينتحر هو أيضًا في أي لحظةٍ، وهو على حافةِ الانهيار.

وإني أعلمُ علمَ اليقين بأنك لا تحب سماع هذه الأخبار الحزينة أو الأفكار السوداوية والتشاؤمية، إلى اللقاء في الحلقة القادمة. مضطر للتوقف الآن عن الكتابة إلى حين آخر.

ها قد عدتُ إليك بعد عدة ليالٍ!

لحد الآن لم يقع الحدث الجلل التام، ما زلت أستطيع التنفس وشرب الماء والكتابة إليك، باقتضابٍ واختصارٍ، أكتبُ لك من جديد، عن السومري والبابلي بالذات، نحن مشغولون بمصيرهما الكارثي، والغموض سيد الموقف، سبق أن أخبرتك عن تشاؤمهما وأفكارهما السوداوية ومَلَلِهما من الحياة هنا، وبصراحةٍ لاحظتك لم تكن مباليًا لهما، تتصورني أبالغ، وأنا الآن في حزنٍ شديدٍ عليهما، اختفيا، كأنهما طفلان ضلّا طريقهما، ضاعا من بين أيدينا، من دون أن نعلم أي شيء عنهما، هل تتذكرهما؟ إنهما صديقان شاعران حدثتك عنهما، الأول ثائر السومري، قد كتبتَ قصيدةً ساخرةً عنه، والثاني مناضل البابلي، هل تتذكرهما؟

سأكتبُ لك عنهما إن طلبتَ مني ذلك، إن أبديتَ اهتمامَك بمصيرهما، قصتهما حزينة للغاية ولا أريد أن أزعجك، يقال إنهما انتحرا شنقًا أو طمرًا، ألقيا بنفسيهما في جورةٍ عميقةٍ على التخوم مع الدول الأخرى، أو مجرد اختفيا، رحلا إلى مكانٍ مجهولٍ، لا أحد يعلم بالضبط أين هما الآن. أمس حلمتُ بكابوسٍ، كلاب سوداء تنهش جسديهما، لم أميز ملامحَ وجهيهما! فزززتُ من النوم وانهرتُ!

لكن على الأرجح، وكما يُشاع الآن وأنا أكتب لك هذه الكلمة، أخبروني أن أحدهما انتحر مرةً أخرى في غرفته، شنقَ نفسه احتجاجًا على الوضع! أنا أعرف أنه حاول الانتحار وأنقذه أحدهم

بالصدفة، كما أخبرتك، أنا أحسُّ أني أهلوسُ، متعبٌ، لا أطيق هذه الحالــة، أعتذر مــن تقلب المعلومات عنهما، عليــك أن تتحملني، الأخبــار متضاربة، نعم، نعم، كلنا مصدومــون، كانا حزينين على سوء الأحوال وطريقة التعامل معهما، وأنا أعرف أنهما لم يحصلا على اللجوء هنا رغم انتظارهما فترة طويلة.

عبثًا حاولتُ مرارًا وتكرارًا مساعدتهما، إرشادَهما إلى الطريق الصحيــح، أعوّضهما ما فقداه من حنــان الطفولة الحزينة، لكن هيهات، ســبق السيف العذل، دمرت القســوة والفوضى والحروب طفولتهمــا، لن يصلح العطار ما أفســده الدهــر! خلاص، لم تعد لــي طاقــة الكتابة، ســأرمي كل ما كتبته في ســلة المهملات، لم تعــد تجدي كل هذه المفردات والهلوســات، ما هــي إلا ثرثرات، خلاص! سأركضُ بسرعةٍ وأرتطم بالجدار، سأهشم رأسي بالحائط الأسمنتي، بل سأرمي نفســي في بحيرة الغابة ذاتها، سأرتمي في أحضانها، قد أجدهما غريقيــن فيها هناك، خلاص، تحياتي وقد تكون هذه هي كلماتي الأخيرة لك!

أرجوك، ســاعدني، أريدك أن تفهمني! اطمئن، سأنقذهما! لا تخف سأسحبك أنت أيضًا!

عزيزي يونس!

أتواصل معك من جديد، أســتمر اليوم في كتابة هذه الرسالة بعد انقطاع عدة أيام أخَر، وأنا الآن متألم جدًّا وأعاني من الكرب والأرق اليومــي، وأرى كابوس الانتحار يوميًّا، المشــكلة أني من ناحيــة أريد أن أفصــح لك عما رأيته بأم عينــي، لكني غير قادر على ذلك، نعم لا أقوى ولا أرغب بأن أزيد الطين بلّة عليك، وفي الوقت ذاته لا أريدُك أن تُســيء فهمي، إنها معضلة كبيرة يا أخي يونــس أن يكون المرء بين نارين، كارثة! يا إلهي ماذا أفعل؟ أكاد أموت حزنًا وكمدًا وقلقًا!

أجــل لم أخبرك بوضــوحٍ عن تفاصيل الحــدث الجلل، مداراةً لمشاعرك ووضعك النفسي. أنت تعاني من الضيم، وعليّ أن أكون حذرًا في كلّ كلمة أقولها لئلا تتأثر وأخدّشَ مشاعركَ و"تأخذ على نفسك وخاطرك"، الأحداث المؤلمة عندنا تتوالى، لم أعد أتذكرها ولا تسلسلها! هذه هي مأساتنا يا صديقي! أوعزتُ بسحبك! ستُتخذ كلّ الإجراءات لسحبك!

أرجوك، ســاعدني، أريــدك أن تفهمني! اطمئن، ســأنقذهما! أجل، سأنقذهما! لا تخف سأسحبك أنت أيضًا!

****

أما أنا فعليَّ أن أتقبل الحقيقة كما هي، وآكل "الخازوق" صامتًا، تصور نفسك أن تدخل غرفة صديقك أو أحد معارفك، أو حتى أي شــخص كان، "حيّ الله إنسان"، تعرفه من قبل أو لم تره حتى ولا مرة واحدة، وتــراه فجأة معلقًا نصف مشــنوق بحبل مربوط في الســقف، أو تناول عدةَ حبّاتٍ مسممة، عليك إنقاذه، قبل مدة شَنَقَ لاجئ أوروبي شرقي نفسه، نعم قد لا تصدق هذه الرواية، تتصورني أهلــوسُ كما هي الحال مع الآخريــن، ألوذ بالصمت والوحدة في سكني الجديد بعيدًا عن أقرب الناس إليَّ والفضوليين، أجل قد لا تصدق إن أخبرتك بهذه القصة، وأنا في أقسى حالةٍ نفسيةٍ قاهرةٍ، أمرٌّ فيها هذه الأيام الأخيرةِ، وبلا صحة!

خَلَص، أكتفي بهذا القدر، وأنــا مضطر للكتابة، وأحسُّ بالندم والله على هذه الكلمات، هربتْ وتسربتْ مني والعرق يتصبب من جسدي، أُفكّر بشطبها أو مسحها كلها، لا أعتقد أني سأرسلها إليك، أجل أعتقد أن الهوّة بيننا اتسعت أكثر من اللازم، ولم يعد بإمكاني ولا من الصحيح أن أتداول معك مثل هذه الأحاديث.

تضايقتَ، طلبتُ منك أن تساعدني، كتبتُ لك: سأنقذهما، تصورتني أتهكم، لا مجال للسخرية هنا! اطمئن، سيسحبونك إلى هنا!

لا تنتحرْ فحسب! فقد قضي الأمر، سيسحبونك عاجلًا أم آجلًا!

متأسف جدًّا لهذا الأمر وهذه النهاية المأساوية، ومن المحزن أنــي لا أســتطيع الآن إخبارك عــن عدد المصائــب، إنها لا تأتي فــرادى، ومراراتها، أو حتى أصفها مــن بعض زواياها وليس كلّها وبكل حذافيرها، إنها كارثة، مأســاة، أن يفقد المرء أعز أصدقائه، وداعًا يا صديقي العزيز وأخي الذي لم تلِده أمي! مع الأسف، لن أرســل لك الهلوسات، لا أدري، لا أعلم، قد يكون كلّ شيء متوقفًا أيضًا على صاحبي، شيطاني ووحيي قد يكتبها في الكمبيوتر، وقد يرميها أو يختصرها ويحوّرهــا وينتقي بعضها ويهمل الباقي. إلى اللقاء في العالم الآخر، الوداع يا صديقي، الوداع!

1995_/ 1994

****

كلمات من اللهجة العراقية الدارجة

حروف من اللهجة العراقية: پP، چ CH، ڤ V، گ G

_ **چا (تشَا):** طَيّبْ، إذن، منتشرة في وسط العراق وجنوبه وبغداد، يقابلها:(لَعَد) في غربِه وبغداد.

_ **صُرُم باره:** "تعبير يُطلق عن رجل يتصيّد البنات.

_ **يُطبل صفح:** عن الشخص الذي يتكلم خارج عن الموضوع.

_ **طوايفي وتنكات أهلي:** كل ما يمت للأهل والأقارب والدار.

_ **كارص:** عن الشخص الذي يبقى في البيت.

_ **مُسفّط:** مُرتّب، مثل: كلام مسفّط.

_ **پاچَه:** رأس الذبيحة، نيفا، مقادم، تم شرحها بالنص.

_ **ثيّل:** عشب أخضر، يكسو الحدائق وساحات كرة القدم. _ **چاسبيه:** اسم أنثى، في الأصل: كاسبيه.

ناقوطُ الحِبّ: قطرات ماء تتساقط من (الحِبّ): فخارية كبيرة يخزّن فيها الماء ليبرد.

_ **بربووگ:** فصيحها بربوق، قُلّة (كوز، تُنكَه) بالعراقية فخارية مثلّمة من كثرة الاستعمال، مكسورة فتحتها بحيث لا تغرق، ولهذا تقال عن المرأة العاق، وعن العاهرة العجوز: بربووك ما تغرق!

_ **كلاوچي**، محتال، تقال أحيانًا بودٍّ عن شخص مقرّب.

_ **لعبةَ "التوكي"** خاصة بالفتيات: القفز بقدم واحدة بين مربّعات تُرسم على الأرض، من دون السقوط.

_ **بنات شلنفص:** بنات غير مؤدبات.

_ **هَب بياض:** كلّه أبيض، تقال عن قطعة الدومينو بلا أرقام.

_ **إسليمه اللي تُطُمهم!:حرفيًّا:** إســلَيْمَه التي تطمرهم، تُقال للذم عن الأشخاص الفاشلين، غير المرغوب فيهم.

_ **بَرَشقه:** مثلاً سيارة عتيقة، مكسّرة، منتهية، تحتاج إلى تصليحات.

_ **ودّعْ البزّون شَــحمَه:** كمَن يترك قطعة شحم مع القط (بزّون). مَثل يُقال عَمّن يترك حاجتَه عند شــخص غير أمين فيستخدمها لأغراضه الخاصة.

_ **جودليّة:** بساط، غطاء، يُخاط من بقايا قطع قماش بعدة ألوان.

_ **كلاوات، مفردها كلاو:** احتيال، احتيالات.

_ **أجَعوجَك وألعوجَك:** قد يُقصد بها: أعصرك وأمردك.

_ **مسودَن:** مجنون.

المؤلف

الدكتور زهير ياسين الشليبة

- استاذ جامعي، باحث، إعلامي، قاص ومترجم، العراق، الدنمرك.
- حائز على جائزة الثقافة الدنمركية لعام 2002 في مدينة روسكيلدة.
- ولد في العراق عام 1954، درس في مدارس بغداد والجامعة المستنصرية وغادر العراق بعد عام.
- مقيم في الدنمرك منذ التسعينيات وعملَ في الترجمة منذ عام 1992، ومستشارًا تربويًا في بلديه روسكيلدة الدنمركية 1997_2020 ويمارس الترجمة والكتابة والنقد الأدبي.
- قُبِل في جامعة كوبنهاجن كباحث دكتوراه الدولة عن موضوع الرواية العراقية.
- درس الترجمة دراسة أكاديمية جامعية في كلية التجارة كوبنهاجن، ونال شهادة الترجمة.
- درس أساليب العمل الاجتماعي في المدرسة العليا للعمل الاجتماعي في كوبنهاجن.
- حصل على شهادة مدرس لغة دنمركية للمغتربين.
- عضو نقابة الأكاديميين الدنمركية سابقًا.
- عضو نقابة التربويين الاجتماعيين الدنمركية.
- عضو اتحاد الأدباء العراقيين.
- نائب رئيس جمعية "أصدقاء من كل العالم" الدنمركية.
- نال شهادة الماجستير في الإعلام والأدب في روسيا عام 1980.
- حصل عام 1984 على دكتوراه آداب من معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية في موسكو.
- عمل باحثًا وأستاذًا بعد تخرجه مباشرة.
- معادلة شهادة الدكتوراه في جامعة كوبنهاجن 1994

صدر له من الكتب:

- غائب طعمة فرمان. دراسة نقدية مقارنة عن الرواية العراقية، دار الكنوز الأدبية، 1996.

- مختارات من الشــعر الدنمركي بالدنمركية والعربية، دار شــرق – غرب، 2000.
- ميخائيل باختين ودراسات أخرى عن الرواية، دار حوران، 2001.
- كوابيــس المنفــى. مجموعــة قصص قصيــرة. مركز الحضــارة العربية، القاهرة، 2003.
- انطولوجيا الشعر الدنمركي الحديث، بالدنمركية والعربية، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2004.
- الفطحــل. محاكاة ســاخرة وقصص قصيــرة، مركز الحضــارة العربية، القاهرة، 2010.
- في الأدب العربي، دراسات وحوارات في التنويرية والاستشراق الروسي، دار الأنام، 2025.
- رسائل إلى هناك، بالدنمركية (مجلة سامسبيل الدنمركية) 1999 _ 2000.
- رسائل من زمن الحصار لكاتب مجهول، موقع القصة العراقية، 1997.
- في السرد العربي والعراقي، طبعة إليكترونية، 2021، جاهزة للنشر.
- في الثقافة الدنمركية، طبعة إليكترونية، 2021، جاهزة للنشر.
- قصص أفريقية مترجمة. جاهزة للنشر.
- أمثال وحكم عربية وأوروبية. جاهزة للنشر.

البحوث المنشورة في الدوريات العربية (1985 _ 2004)

1_ مطالعــةٌ في الفكر النقدي عند ميخائيل باختين، بحث موســع بجزئين ضمن ملف باختين، مجلة المعرفة، دمشق، تموز 1985.

2_ آراء حول نظرية الرواية، المعرفة، دمشق، سوريا، تموز 1986.

3_ آراء حول سمات الرواية، أوزو، جامعة سبها، ليبيا،1987.

4_ النثر العراقي في الاستشراق السوفييتي، البديل، سوريا، حزيران 1986.

5_ حــول أدب علي مصطفى المصراتي. الفصــول الأربعة. طرابلس، ليبيا، كانون الأول 1984.

6_ حول مراحل النثر العراقي الحديث، دراســات عربيــة، بيروت، لبنان، العدد 12/11_1989.

7_ مقدمة لمجموعة مولود آخر لغائب طعمة فرمان. عدن، اليمن، 1984.

8_ بمناسبة الذكرى الخامسة عشــر لإصدار رواية القربان. دراسة تحليلية أكاديمية. البديل.دمشق، سوريا، آب 1990.

9_ بمناسبة الذكرى العشرين لإصدار مجموعة مولود آخر. الموقف الأدبي.

دمشق، سوريا، العدد 177/ 1986.
10_ حـول وحدة الأدب العربي الحديث. الثقافـة العربية، طرابلس، ليبيا، العدد 1989/10.
11_ حول منهجية علم الأدب، ميخائيل باحتين، المعرفة، دمشـق، سـوريا، نص مترجم، تموز 1986.
12_ دراسـات عن الروايـة الأميركية، نصوص مترجمة مـن مجلة الأدب المقارن الأميركية.
13_ حـول رسـالة الدكتـوراه عن الروايـة العراقيـة. الوطـن، الكويت، 1984/9/18.
14_ حوار مع رئيس جمعية النقاد العالمية روبير أندريه، دمشـق، سـوريا، تشرين 1985/12/27.
15_ كتابان حول اللغة العربية باللغة الروسـية، دمشـق، سـوريا، تشـرين 1985/12/22
16_ حوار أدبي مع المستعربة البروفيسور أولغا فرولوفا. الوطن، الكويت، 1984/9/25.
17_ حوار أدبي مع المسـتعربة البروفيسـور آنا دولينينا، البيان، الكويت، حزيران 1989.
18_ حوار أدبي مع المسـتعربة البروفيسور فاليريا كيربيتشينكو. دراسات عربية، بيروت، لبنان، العدد 12 آب 1988.
19_ ذكريـات وحـوار مع الأديـب العراقي غائب طعمه فرمـان. الهدف، دمشق، 14/ /1985.
20_ ذكريات وحوار مع الأديب العراقي غائب طعمه فرمان. الحياة، لندن، 1990/9/1.
21_ نبذة عن الأديب العراقي غائب طعمه فرمان، القسم العربي في إذاعة لندن، برنامج موزائيك، 1990/9/4.
22_ عندما تمطر السماء، قصة أفريقية مترجمة، مجلة الدراسات الأفريقية، سبها، ليبيا، العدد 1987/1.
23_ الحرية/ الحدود، قصة أفريقية مترجمة، مجلة الدراسـات الأفريقية، سبها، ليبيا، العدد 1988/2.
24_ النـواح علـى بقرة ميتـة، قصة أفريقيـة مترجمة، مجلة الدراسـات الأفريقية، سبها، ليبيا، العدد 1989/3.

25_ المكالمة الهاتفية اللعينة، قصة أفريقية مترجمة، مجلة الدراسات الأفريقية، سبها، ليبيا، العدد 1990/4.

أهم المؤتمرات العلمية:

26_ الرواية و قضايا النضال ضد العنصرية، المؤتمر العلمي الأفريقي، مركز البحوث والدراسات الأفريقية، سبها، ليبا. مجلدات المؤتمر 1988.

27_ مؤتمر النقد الأدبي الأول، حول أول رواية عراقية فنية ناضجة، جامعة اليرموك، أربد، الأردن، 1987.

28_ مؤتمر النقد الأدبي الثالث، حول رواية القربان، دراسة تطبيقية، جامعة اليرموك، أربد، الأردن، 1989.

29_ مؤتمرات مؤسسة التميمي للبحث العلمي 1995، 1996، 1997، 1998.

وأهم الدراسات بعد 1990:

1_ ذكريات حول الأديب العراقي الراحل غائب طعمة فرمان، الحياة، لندن، 1 أيلول 1990.

2_ حوار مع الشاعر الدنمركي إيريك ستينوس، الأيام، المنامة، 17 كانون الاول 1991.

3_ بين البطاريق، كلاوس رييفبيه، ترجمة من الدنمركية إلى العربية، الأيام، المنامة، 1 كانون الثاني / يناير 1992.

4_ النور يطلع فوق الجبل، كلاوس ريفبيه، ترجمة من الدنمركية إلى العربية، الأيام، المنامة، 4 كانون الثاني / يناير 1992.

5_ صانعو الحلف، كلاوس ريفبيه، ترجمة من الدنمركية إلى العربية، ألأيام، المنامة، 14 كانون الثاني /يناير 1992.

6_ حول المستشرق الروسي يفغيني يفسييف. الأيام. المنامة. 31 كانون الثاني / يناير 1992

7_ ترسخ الحداثة في الأدب الدنمركي. الأيام. المنامة. 13 نيسان 1992

8_ تطور الحداثة في الأدب الدنمركي بعد الحرب العالمية الثانية. 22الأيام. المنامة. نيسان 1992

9_ أسفار الهاشمي و لعنة الوعي، الأيام، المنامة، 21 أيار 1992.

10_ بني أندرسن شاعر الحياة، الأيام، المنامة، 1 شباط 1993.

11_ نشاطات العرب الثقافية، الأيام، المنامة، 2 شباط / فبراير 1993.

12_ المخطوطات العربية والرحلة الدنمركية إلى اليمن السعيد في القرن

الثامن عشر، القدس العربي، لندن، 22 / 23 مارس 1997.
13_ حول قصص الشباب العراقيين، القدس العربي، لندن، 24 حزيران 1997.
14_ قــراءة نقدية في بعض مجموعات القصص العراقية القصيرة، القدس العربي، لندن، 2 / 3 آب 1997.
15_ حبات النفتالين للروائية العراقية عالية ممدوح، القدس العربي، لندن، 5 آب 1997.
16_ خاتم الرمل لفؤاد التكرلي، القدس العربي، لندن، 11 أيلول 1997.
17_ تأثيــرات الأدب الغربي على الأدب العربي، القدس العربي، لندن، 17 أيلول 1997.
18_ قراءة في شطح المدينة ورسالة في الصبابة والوجد لجمال الغيطاني، القدس العربي، لندن، 9/8 تشرين الثاني 1997.
19_ حوار مع المستشرق الدنمركي يورجين. القدس العربي لندن. 26 و 27 تشرين الثاني 1997
20_ إنه جديد جدًا، قصيدة مترجمة للشاعرة الدَنماركية إنجر كريستينسين، القدس، 17 تشرين الثاني 1997.
21_ حــوار مع د. عبد الجليل التميمي مدير مؤسســة التميمي للمعلومات. القدس العربي، لندن، 22 أيار 1997.
22_ الحياة الفنية والثقافية في تونس، القدس العربي، لندن، 24 آب 1998.
23_ الشــاعر الدنمركي يلقي قصيدة تضامنية مع العراق، القدس العربي، لندن، 28شباط /1آذار 1998.
24_ الجزدان، قصة قصيرة، القدس العربي، لندن، 6 تشرين الثاني 1998.
25_ حول هجرة الأدمغة العربية إلى الدول الاســكندنافية، القدس العربي، لندن، 17 نيسان1998.
26_ النزعــات العنصريــة في الدَنمارك واســكندنافيا، 12 كانون الثاني / يناير 1998.
27_ أبنية متطايرة لإدوارد الخراط، القدس، 1998/8/26.
28_ أبو كاطع على ضفاف السخرية الحزينة لعبد الحسين شعبان، القدس العربي، لندن، 18 آب 1998.
29_ بمناسبة الذكرى الثامنة للانقلاب الروسي، القدس، 19 آب 1998.
30_ الصاروخ الخشبي، قصة قصيرة جدًا، ألقدس العربي، لندن، 16 شباط 1999.

31_ المكالمة الهاتفية اللعينة، قصة قصيرة للكاتب الكيني تايتا توفيت، القدس العربي، لندن، تشرين الثاني 1999.
32_ اللغة كائن حي له شخصيته، حول مجموعة عصر الحنين للكاتبة العربية رشيدة أحمد، القدس العربي، لندن، 23/22 تموز 2000.
33_ رواية المسرات والأوجاع لفؤاد التكرلي، القدس العربي، 10، 11، 12 شباط 1999.
34_ حوار مع المستشرق البروفيسور الدنمركي كارل براسه، القدس العربي، لندن، 16و 17 أيلول 1999.
35_ الرحيل، قصة قصيرة، القدس العربي، لندن، 11 مارس 1999.
36_ حول بعض جوانب القصة العراقية القصيرة، القدس العربي، ، 24 كانون الثاني 2000.
37_ جلجامش والبحث عن الهموم، المدى، دمشق، العدد السنة 1994.
38_ رسالة إسكندنافيا، المدى، دمشق، العدد 5 السنة 1994.
39_ ذاكرة البحر، قصة قصيرة، المدى، دمشق، العدد 28 (2) 2000.
40_ مقارنة بين التنويريتين العربية والغربية، المستقلة، لندن، 15 أيار 1995.
41_ قراءة في ديواني جواد جميل، الأحداث، لندن، 3 أيلول/سبتمبر 1992.
42_ الغربة والوطن لدى وليد إبراهيم و حسين الصالح، الأحداث، لندن، 7 أيلول / سبتمبر 1992.
43_ المهاجر، قصة قصيرة جدًا، القدس العربي، 10/26/ 2000.
44_ الغلامة لعالية ممدوح، القدس العربي، لندن، 15 / 16 شباط فبراير 2001.
45_ المسرح الدنمركي، بيان الثقافة، 82_01_2001
46_ لا تفتح حقيبتك وتوضِّبها. قصيدة للشاعر الدنمركي هنريك نوردبرانت. بيان الثقافة، الإمارات العربية المتحدة. 92_04_2001_06_23
48_ مدرسة السياقة، قصة، المدى، دمشق، العدد 32، السنة 2001.
49_ العينان الدائريتان، قصة، المدى، دمشق العدد 33، السنة 2001.
50_ العلاقات العربية الإسكندنافية، القدس العربي، 16 تشرين الثاني 2001.
51_ الغيوم، قصة، المدى، دمشق، العدد 35، السنة 2002
52_ لقاء في مكتب اللاجئين، الزمان، التاريخ 03_12_ 2002.
52_ حكم الإعدام، قصة، الزمان، ص10، 27/26 كانون الثاني/يناير 2002.
53_ الأستاذ الغريب، ص10، 14 آذار/مارس 2002.
54_ الكلب و القتيلة، الزمان، ص10، 22 نيسان/ أبريل.

55_ توزن تاك، قصة، الزمان، 2/1 حزيران/ يونيو 2002.
56_ ساباتو ومعالجات الأدب، الزمان، 21 يونيو حزيران 2002.
57_ موعد ترجمة، قصة، الزمان، 23 تموز/ يوليو 2002.
58_ الكتابة الروائية عند فؤاد التكرلي، الوصف والتحليل أنموذجا، الزمان. 25/24 آب/ أغسطس 2002.
59_ الكتابة عند عاليه ممدوح، مفاجأة وبوح إنساني، الزمان، 6 أيلول/ سبتمبر 2002.
60_ مقابلة مع عازف الجاز الدنمركي جون تشيكاي، الزمان، الصفحة 18 18 أيلول/ سبتمبر 2002،
61_ لقاء مع الشاعر الدنمركي بني أندرسن، الزمان، 18 أيلول/سبتمبر 2002.
62_ قصائد من الدنمرك، بني أندرسن، الزمان، 28 أيلول / سبتمبر 2002.
63_ الأدب الواقعي أنهى خطاب التنويرية العربية، الزمان، 29 ايلول/ سبتمبر 2002.
64_ الواحة الخريفية. قصة. الزمان، 31 تشرين الاول/اوكتوبر 2002
65_ مستقبل الثقافة العراقية، الزمان، 20/19 حزيران 2003.
66_ اللقاء والموت. قصة قصيرة. الزمان، 13/12 حزيران/ يونيو 2003
67_ قصائد دنمركية عن الحرب والسلام، الزمان، 26/25 ايلول سبتمبر 2003.
68_ الإخلاص للنص الإبداعي، أدب غائب طعمة فرمان، الزمان 02/ كانون الأول /ديسمبر /2003.
69_ ظاهرة الكتاب العراقيين في الخارج، الزمان، 13/كانون الثاني/ يناير/2004.
70_ قصائد دنمركية مترجمة، دان توريل وميكيل سترونجه، الزمان 20/ كانون الثاني/ يناير2004.

ومواد اخرى كثيره تم نشرها بعد هذا العام يمكن الاطلاع عليها عن طريق غوغول في الانترنيت.

الفهرس

الإهـــداء 5

هـــذه الجودليـــة العراقيـــة 7

الفصل الأول: واصل 11

من يوميات اللاجئ العراقي واصل

"منتظـــر الفـــرج، الهارب من عالم الهمـــج" 12

الفصل الثاني: المخطوط: 33

رسائل من زمن الحصار 1994 لكاتب عراقي مجهول 33

الرسالة الأولى، هلوسات الليل 1992 34

الرســـالة الثانيـــة، الجلجلوتيـــة آب 1992 38

الرسالة الثالثة، كل شيء يُحل بسوء التفاهم

تشرين الأول، أكتوبر 1992 69

الرسالة الرابعة، حُط المجادية بالسفينة،

وكلمن عدوّه قبال عينه. كانون الثاني 1993 83

الرسالة الخامسة، ميسوبوتاميون! أيار 1993 105

الرسالة السادسة، حزيران 1993 عشرون عامًا

وأنا أبحث عن أرض وهوية!. 131

الرسالة السابعة، ليس هناك كلاب سيئة،

بل هناك مالكو كلاب سيئون! أيلول1993 145

الرسالة الثامنة، أبناؤنا فلذات أكبادنا!

تشرين الأول، 1993 165

الرسالة التاسعة، المستعجل يضحك الدجاج!

تشرين الأول - أكتوبر 1993، 180

الرسالة العاشرة، عراقيون مسودَنون حتى النخاع! 190

مفردات عاميّة من اللهجة العراقية. 198

المؤلـــف 200

"جميع الحقوق محفوظة للكاتب زهير ياسين شليبه حصرًا."
لا يُســمح بإعادة الإصدار التصويري أو الإليكتروني أو أي شكل من الاستنســاخ والنشر والاقتباســات الطويلة والتوزيع بدون أخذ الموافقة الخطية من المؤلف بموجب اتفاقات Copy-Dan دان كوبي السارية.

Fotografisk, mekanisk, eller anden form for gengivelse eller mangfoldiggørelse er kun tilladt ifølge gældende Copy -Dan aftaler.

Photographic, mechanical or other forms of reproduction are only permitted according to applicable Copy-Dan agreements.

Zouhair Yassin Shlaiba

Jodaliaah

Patchwork

Anonymous Letters from Time of Siege

Narrative mix

ISBN : 978-87-971329-2-0

Sharq Gharb Publishing House

شرق غرب للنشر

2025